الآداب الأجنبية

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

العدد ٢٣ - السنة السادسة - آذار ١٩٨٠



الآداب الأجنبية

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

العدد ٢٣ ـ السنة السادسة ـ آذار ١٩٨٠

الادارة، اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ شارع مرشد الخاطر

هاتف ٤٤٦٧٠٠ ـ المراسلات باسم رئاسة التحرير ص ب ٣٢٣٠ دمشق

تصميم الغلاف : نذير نبعة

* جميع المراسلات تكون باسم رئيس التحرير .

* تتوجه رئاسة التحرير الى الادباء والمترجمين في الوطن العربي لتزويدها بمواد مترجمة من الادب العالمي في مجالات القصة والشعر والمسرحية والنقد والبحث الادبي ، وتقديم أو تلخيص الكتب ذات الشهرة والفائدة الفنية والفكرية . ويرجى من الاساتذة الذين يرسلون المواد المترجمة أن يرفقوها بالاصل ، من أية لغة كانت ، أو الاشارة الى مرجعها اذا كان مشهورا . وتعتذر الادارة عن اعادة هذه المواد سواء نشرت او لم تنشر .

كلمة المجلة

لا تزال المجلة ماضية في نهجها الذي درجت عليه منذ تأسيسها ، وهو ايجاد حلقة اتصال بين ثقافتي الغرب والشرق . وليست المجلة بحاجة الى الافتخار والزهو بالنتائج التي وصلت اليها فان رواجها واقبال القراء على اقتنائها لخير دليل على أنها تسد فراغا وتؤدي مهمة ثقافية ذات تأثير بعيد في تطور الادب العربي المعاصر .

ولا ريب في أن القراء على اختلاف ثقافاتهم وأمزجتهم ونوازعهم الفكرية لاحظوا أن ثمة تطوراً في المجلة نحو الاحسن وما هذا الا بفضل التشجيع الذي تلاقيه من قرائها وأنصارها على امتداد الوطن العربي .

ويجد القراء في هذا العدد كغيره من الاعداد السابقة دراسات ومقالات مختارة مترجمة لكتاب متنوعي الجنسيات والمذاهب الادبية والفكرية في الشرق والغرب .

وأخيراً فان المجلة تعاهد قراءها على مواصلة السعي في سبيل تقديم روائع الادب الغربي معتمدة على اسهام المترجمين المطلعين على الآداب الأجنبية .

هيئة التحرير

أنبثق من الحلم

• أناييس نن • ترجمة : محمود منقذ الهاشمي

قال يونغ : «انبثق من الحلم ...»★

ومن المهم أن نعود الى التعريف الأصلي للكلمة التي نستخدمها كثيراً دون أية مبالاة . إن تعريف الحلم هو : الأفكار والصور التي توجد في الذهن ولا تخضع للعقل . وليس الحلم بالضرورة هو الصورة أو الفكرة التي تبدو لنا في النوم . إنه مجرد فكرة أو صورة تنجو من سيطرة الذهن العقلي أو المنطقي أو السببي . وتأسيساً على ذلك قد يشتمل مصطلح الحلم على الفكرة الخيالية ، والتصور ، وحلم اليقظة ، والرؤى والهلوسات الناتجة عن تأثير المخدرات ــ وأية تجربة انبثقت من مملكة ما وراء الشعور . وهذه التصنيفات هي مجرد طرق لوصف الأحوال والمستويات المختلفة للوعي . والشيء المهم الذي يستحق أن تتعلمه من الفن ومن الأدب بخاصة ، هو الممر السهل بينهما والعلاقة . والعصاب يحدث انشطاراً ويقيم حدوداً دفاعية . إلا أن الكاتب

★ هذه هي اول ترجمة عربية للفصل الاول من كتاب « رواية المستقبل » .

يستطيع أن يتعلم السير بيسر بين مملكة وأخـرى دون خوف ، وأن ينشىء بينهما علاقة متبادلة ، وأن يصهرهما جوهرياً •

برهن التحليل النفسي أن الأحلام هي المفتاح الوحيد لحيـاة ما وراء الشعور • وما أكـده المحللون النفسيون من العلاقـة بين الحلم والأفعـال الشعورية هو ما كان الشعراء يعرفونه من قبل • لقد تنقّل الشعراء بيسر على هذا الجسر ، من الشعور الى اللاشعور ، ومن الواقع الفيزيقي الى الواقع السيكولوجي • إن حرِّفتهم هي الدمج بينهما ولذلك فإنهم قد يؤدون عملهم بانسجام • ووظيفة الرمز هي توحيـد الأشكال المتنوعة للواقع وتركيبهـا • ومعظم الروائيين يستخدمون الأحلام على سبيل الزخرفة ، دون وصلها بالحياة اليومية ، ولكن الكاتب المعاصر قد أصبح أشـد خبرة في الكشف، عن تأثـير أحدهما في الآخـر •

عندما كنت في الحادية عشرة من عمري كتبت مسرحية مثلت فلسفتي في الحياة بشكل مسبق • كانت « ملودراما » ذات ذروة فجائية • أب أعمى يعيش مع ابنته الوفية في فقر مدقع في أحد الأكواخ • ولكن الفتاة كانت دائماً تصف حياتهما ، وبيتهما ، وحديقتهما ، وأصدقاءهما ، بأوصـاف الجمال والرفـاه ، خالقة الوهم لأبيها لتهدهده به • ثـم يأتي طبيب إلـى القرية ويجري عمليـة جراحية لعيني الأب • وهو الآن يستطيع أن يرى من جديد • أمأسـاة ؟ لا ، فعندما فتح عينيه على الواقع الرث ، لم يحدث له انهيار ولم يشعر بأنـه كان مخدوعـاً • أخبر ابنته : « الحقيقـة هي أنك وصفت لي أشياء لم يكن لهـا وجود ، ولكنك وصفتها بحيوية جعلتني أستطيع أن أبدأ في بناء حياتنـا على

الصورة التي حلمتِ بها . » إن الحلم قد أصبح مترجماً الى الواقع .

إن الحلم ، كما تفحصه العلماء باختبارات متعددة ، قد وُجد ليكون ضرورة كاملة للإنسان . إنه يحافظ على حياتنا النفسية حية ، في جو مميز . ولا يؤدي بالحياة إلى الانحراف ولا يتعرض لضغوط المجتمع . وعندما نكف عن الإيمان بهذا القاع الروحي ، تصبح حياتنا صدفاتٍ خاوية ، آلية ، ميكانيكية. نحن لم نؤمن به إلا عندما أظهر لنا أعراض العصاب . وما زال الأدباء والشعراء يدافعون عن وجوده بوصفه مصدر الإبداع .

لقد نشأ العصاب عن محاولتنا الفصل بين المستويين الفيزيقي والميتافيزيقي ، وجعل كل منهما ضد الآخر ، يتقاتل في حرب ضروس . وإذا كان صحيحاً أننا نعيش في عدة مستويات في وقت واحد هي ــ الصراع والعمل ، والماضي والحاضر ، والشخصي والجماعي ــ فإننا قد منحنا الطرق لتوحيدها : بعضها بالدين ، وبعضها الآخر بالفن . ولا يكون الفصل بين هذه المستويات ضرورياً إلا عندما تتنازع ، والفصل هو نتيجة للنزاع . وإرادة كيف يمكن لهذه المستويات أن تعمل معاً في انسجام هي مهمة الكتّاب المعاصرين .

لهذا على الكاتب أن يدرس الممرات . وتلك الممرات كروافع الأقنية، تغذي بعضها بعضاً في حين أنها تحول دون غرق المستويات . إن حرفة العمل الفني وشكله يقومان على هذا الأساس من منع الغرق . فالهواة يغرقون . وعلى الكاتب أن يظل منفتحاً ، مرنا ، يلاحق ويطيع الصور التي تنزع البنية الشعورية الى تحطيمها أو محوها . وتلك الكتابة التي يستخدمها العلم أو الفكر لن

تعيد الصور ولن تنقلها الى أقنية المشاعر ، عندما تكون مؤثرة • نحن نصنّف، ونفهرس ،ونضع في ملفات ، ولكن ليس ببعد شديد عن الشعور بالتنظيم ولكن ببعد عن الخوف • والعالم النفسي بينما هو يستخدم الأحلام بوصفها نوعاً من مسبار المحاكاة الألكترونية لرسم أعماق اللاشعور ، فإنه غالباً ما يكون ، كما بين الدكتور ر • د لينغ ، شديد القلق لانتزاع الخطوط الفاصلة للحالة السوية حسب تعاريفها التي لا توجد في الواقع بوصفها حقائق نهائية بل تتموج وتتغير وتعدلها البحوث الجديدة •

وقد يكون دمج الشعور وماوراء الشعور محفوفاً بالمخاطر عند العصابي، كما هو محفوف بالمخاطر عند متناولي المخدرات • ولكن الكاتب الذي يعي الطريقة التي توجد بها هذه العلاقة التي تحيا في الواقع وتغذي الإبداع ، فإنه سرعان ما يستطيع أن يؤلف بين الفكر ، والحدس ، والانفعال ، والغريزة ، وسرعان ما يصبح عمله متكاملاً •

عندما يدرس المرء الممرات ، فإنه يكتشف الشكل والنموذج الدقيقين للاشعور ، ولكن المرء لا يصبح مرئياً حتى تجتمع العناصر • ويتعلم المرء عقد اللاشعور من التحليل النفسي • إنها قصة بوليسية عن الانفعالات • وقد كان هذا المفهوم مبسّطاً في مسرحية إريك بيرن « أناس الألعاب » • ومن الممكن لأية محاكاة اصطناعية للاشعور أن تُضبط بالجرم بسهولة • فهي غير معقولة وخالية من المعنى ، وهي مشوّشة وقبيحة • والصور غير مترابطة • وهي لا تهدي الى شيء •

وما يفعله المحلل النفسي هو كذلك ما على الروائي أن يفعله ــ وهو

السبر بعمق يكفيه لكي يجد أين تحطمت السلسلة • والتجارب الجُرحية هي التي تحدث مثل هذه التحطيمات • والمحلل النفسي يصلح الروابط المحطمـة، ويعد اللاشعور ، الذي كانت بدايته في التجربة الشخصية ، للاندماج في الحياة غير الشخصية •

والشيء المهم هو أن تتعلم من الكاتب الطرق والطـرق الفرعية لهـذه الممرات بين الشعور واللاشعور • واللاشعور قد يصبح تدميريا إذا ما تجاهلناه أو عارضناه • والعصاب ، المؤسس الخوف ، يخلق زنزانات منفردة ليحمـي نفسه من الانتهاك • والعديد من كتّاب اليوم قد استوعبـوا اكتشافـات التحليل النفسي وهم أشد خبرة في وصل ما وراء الشعور بالشعـور • إنـنـا بادئون في مشاهدة تأثير الحلم في الواقع والواقع في الحلم • والفن يكشف لنا تعدد المستويات التي نعيش فيها • وهذا قد يكون ما نود أن نعبر عنـه فيما ندعوه الآن « الوسيط المتعدد » •

وكل أعمال كافكا تقريباً قد أخذت مكانها في حقل حلم اليقظة ، وقـد كتب بروست وصفاً كلاسيكياً للحالـة بين النوم وحـلم اليقظة في « ذكرى الأشياء الماضية » •

وفي « شتـاء المـكر » Winter of Artifice [1] (ص ١٧٠ ــ ١٧٥) قصدتُ إلى اختبار الطبقات المختلفة للحلم :

---

(1) Published by the Alicat Bookshop Press, Yonkers, New York, 1946.

(عندما دخلت الحلم سرت على الأرض • كانت الأنوار المتلألئة عليه قد تبدلت أشكالها وشدتها مثل أنوار المسرح • وجرت المشاهد تحت الضوء المسلط عليها وقد كان يغلفها حجاب كثيف من السواد • وكانت المشاهد منفصلة ، أو مقطوعة ، أو متبددة بالفواصل • وكان الإخراج المسرحي مؤَسْلَباً ، ولا يقدم إلا ماله معنى • وفي معظم الأحيان كنت الضحية والمشاهِدة • في الوقت نفسه •

كان الحلم في تركيبه أشبه ببرج ذي طبقات لا نهاية لها ، يرتفع ويغيب في اللاحدود ، أوتلتف طبقاته متجهة الى الأسفل لتضيع في أحشاء الأرض • عندماابتلعتني أمواجه ، بدأت اللولبة ، وكان اللولب متاهة • لم يكن فيه قبو ولا قرار ، ولا جدران ولا مخرج • بل كانت فيه موضوعات تكرر نفسها بدقة • وإذا كانت جدران الحلم مكسوة بالحرير الطري ، وخطوط المتاهة مكسوة بالصمت ، فإن خطوات الحلم تظل مجموعات من الانفجارات التي اندفعت فيها كل شظايا نفسي المدانة داخله حياة غامضة وعنيفة ، بقلق أمومي شديد نحو الليلة الدائمة اليقظة عند الازدهار •

على أول طبقة للولب كان صحو • وما زلت أستطيع أن أرى نور النهار بين حوافّ الأهداب • مازلت أستطيع أن أرى فرجات العالم • وكان الحلم ظلاً ناقصا ، حيث كانت الأفكار مرصّعة بخطوط البرق • وكان المكانَ الذي كانت فيه الصور تصفو وتنفصل ، وظلالها مرميةً خارج المكان • • كان المكانَ الذي لم تترك فيه الخطوات أثراً ، والذي لم يكن للضحك صدى فيه، وكان فيه الجوع والخوف عظيمين • كان المكانَ الذي تمكنت فيه أشرعة

الخيال أن ترتفع دون أن تشعر بالريـح ••• وكان الحلـم مصفاة • لم يكن مسموحاً بالعالم الكلي ••• ولكن مع الليل جاء الانفتاح ••• مع الليل جاءت مسافة ••• ولم يكن الحلم مزدحماً • لقد صفّاه موشور الإبداع ••• وحدد زمانه الإحساس ••• وفي النهار تابعت الحلم خطوة خطـوة • كنت سأشعر بالضياع والارتباك لو لم يحمل لي النهار صورته ••• وكان الحلم يجري في المقدمة • وأن ألاحقه ، وأن أحيا في هنيهة انسجام معه ، كانت هي المعجزة • والحياة على المسرح ، هي الأسطـورة المعَشَّقة بنور النهار ، وخارج هـذا الزواج تغازلت طيور الألوهية ، هنيهات خالدة •)

كما أصبح الشاعر النثري مفتوناً بمصدر الصور الفني ، ركّزتْ على وصف العالم الحلمي ، ولعله قد أغرتني إليه الصعوبات التي فيه • فمن الواضح أن العالم المادي أسهل على الوصف • وكانت أول إساءة لفهم أعمالـي التي ظهرت واستمرت الى الآن هي أنني كنت أكتب قصصا غير واقعيـة وشبيهة بالأحـلام •

لقد كان تشديدي هو على العلاقة بين الحلم والواقع ، واعتمادهما على بعضهما •

والروائي اليوم يسير على خط مواز للعالم النفسي ، حيث يتبين ثنائية الشخصية الإنسانية وتعدديتها • ولن يكون توجيـه هذه العناصر المختلفـة واجتيازها وإظهارها بأصعب من قيادة الصاروخ • فالحلم ، وحلم اليقظـة ، والفكرة الخيالية ، والنزوة هي كلها تتواشج وتتبادل العلاقة في وقت واحد ولكن على مستويات مختلفة • والطريقتان اللتان يوصف بهما اللاشعور من

خـلال الرمز والسريالية تماثلان تطـور الدراسات السيكولوجية للأحلام • والرمزية لسوء الحظ قد ارتبطت في الأذهان بالرومانتيكية ، ولكننا مضطرون الى إرجاعها الى أنها أهم شكل للتعبير عن اللاشعور •

سألني أحد الطلاب مرة ، هل نحن نحلم بلغة الرموز وهل من الشائك فهمها ، ولماذا لايترجمها الكاتب الى صيغة مباشرة • لو ترجمها الكاتب لمـا تعلمنا هذه اللغة • الرمزية لغة علينا أن تتعلمها من أجل أنفسنا ، لأننا حتى ولو كنا لا نهتم بتفسير أحلامنا ، فإننا سوف نسلك في حياتنا باللغة الرمزية • وهذا شاهد من عناوين اليوم : « الطلاب ينقعون برنامج جر الأثقال في الدم •»

وجون هوكز في هذا المقطع من روايته « آكل لحم البشر » يركز على هذه الهواجس الرمزية [٢] :

(في أقصى المسافة كانت دار صغيرة ، ينطوي سطحها تحت سفح الثلج، وتطل نافذتها الخلفية على عشرين ميلاً في الخارج وألف قـدم في الاعماق ، وكانت ستيلا وإرنست ، ويداهما تمسكان ببعضهما ، يسيران على هذه الأرض القصية كل يوم بعد الظهر ويجتازان الدار ، صامتين في ذهول رائع ، يتلفتان ويربتان على بعضهما في إثارة • وكانت بعض الأشجار القصيرة قد اتكأت على المنحدرات الصخرية الشاهقة متعرضة للخطر • وكانا كلّ يوم بعد الظهر يمران بالرجل العجوز الجالس على درجة الباب ، الذي تكومت على حذائه قشارات خشبية هشة شبيهة بالرقاقات الصفراء المتفتحة على الثلج • كان يبتسم ابتسامة

(2) John Hawkes, The Cannibal (New York : New Directions Pub. Corp., 1949), pp. 86,87 - 88.

عريضة عندما ينحت ، وكان يرفع نظره اليهما ، فيبدو موشكاً على الضحك ، ويحني كتفه متجهاً الى الوراء ، خلف الكوخ ، في الفراغ الخارجي . وكانت الصلبان التي ينحتها صغيرة وكبيرة ، خشنة ورقيقة ، بعضها ذو فخامة بسيطة ، وبعضها الآخر يتحدث عن الاستشهاد بدقة . ومر"ّ كذلك بحذاء قدميه فوقعت عيدان الخشب غير المنحوت ـ وبينها قطعة خضراء من لحاء الشجر تركهـا ليصنع منها مئزراً للمسيح : ذلك أنها لم تكن معلقة بمتانة على السلك المعقد ، فاستدار ببطء يشع سواد عينيه بينما كان جسده بليداً . وكان السائحـون يدفعون مالاً سخياً ثمناً لهذه الصلبان لأن إنسانيتها كانت عادة أشدّ مـن قدسيتها ، وإيلاقها أشدّ من إعجازها . وارتفع الكتف ، وتوقفت السكين ، وأخذ يشير الى قرب المرتفعات الصخرية . وبعد الأسبوع الأول ، اشترت إرني صليباً من الصلبان ، هو الروح الحارس الرهيب ذو الألم المبرّح الملتفّ حول فم ليس أكبر من الخرزة ،وقد صورت بمنتهى الإحكام يداه الصغيرتان . ثم بدأ يجمعها ، وفي كل يوم بعد الظهر كان يلوح مسيح جديد من جيبة بين باقات الوبر .

والآن أصبحت صلواته في وقت الطعام مسموعة تماماً . وصبغت الشمس المائلة النوافذ الناقصة ... ولامست يَدَه ، فوجدتها صلبة وباردة ، ناعمـة ودينية . فظننت بادىء الأمر أنهـا استطاعت أن تشعـر بشيء من عقيدتـه الأسقفية ، بشيء من هذا الطقس المختلَس الذي أجهد نفسه فيه شيئاً فشيئاً، حتى عندما كانت الأماسي غنية بالألوان .

وبدأت الصلبان تملأ الفندق . (ص ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨) .

إن اللاشعور لا يستطيع أن يعبر عن نفسه مباشرة لأنه مركب من الماضي، والحاضر ، والمستقبل ، ولأنه كيمياء لا زمنية ذات أبعاد متعددة . والتعبير المباشر يحرم العمل من فعاليته . والصورة التي تهمل الرقيب الذهني هي التي تؤثر في انفعالاتنا ومشاعرنا . والعمل يمكن أن يفسَّر على مستويين ـ أحدهما بوصفه عملا ، والآخر بوصفه معنى . فلـ « الآن » جذوره في أمكنة أخرى من الماضي . والعالم السفلي الفاتن للعمل الرمزي قد عرفه الشعراء دائماً . وكان فرويد قد شكا أنه كلما قام باكتشاف وجد أن بعض الشعراء قد اكتشفوه قبله .

نحن في العلم نستخدم الرموز . فلماذا إذن لا نستخدمها في الشعر ؟ لماذا يجب أن يكون المحلل النفسي هو وحده القادر على تفسير أحلامنا وأفعالنا الرمزية ؟ وكما برهنت الرموز الرياضية على أنها أداة أساسية في تطور العلم الحديث ، فإن الرموز الشعرية هي الآن أشد ضرورة من أي وقت مضى في كتابة الروايات ، لا لأنها شعرية ، أو غامضة ، وإنما لأنها وحدها القادرة على أن تبحث في نسبية الحقيقة في الشخصية .

إن الحالة النفسية التي أقع فيها عندما يتملكني العمل حقاً تشبه استغراقات الصوفيين . إنني أوصد الباب على العالم الخارجي لأركز على ما أرى وأشعر . ولا ريب أن فعل الإبداع شديد الشبه بفعل الحلم . والفارق أنه يشتمل على نشاط يصعب تحليله . وليست القوة هي مجرد استدعاء الصورة ، ولكنها كذلك تركيب الصورة . والقدرة الثانية ، قدرة الإبداع الفعال ، هي التي تنجو من استخدام المخدرات . فالمخدرات تنتج السلبية .

وسلبية ، كسلبية الدين الهندي ، تدمر الحياة الإنسانية والفن معاً .

المجراف هو مجراف هو مجراف هو مجراف

بالعملية التي لست مستعدة لتحليلها ، أصبح الأدب الأمريكي أشد أدب حرْفي أحادي الجانب في العالم . وما زال الأكاديميون يفسرون رمزية « موبي ديك » ، ولكن الدراسات الحديثة في الخمسينات لم تستطع أن تفهم رمزية د . هـ . لورنس . كانت الرمزية هي ببساطة المعنى الانفعالي والروحي لأفعالنا ! إن ثمة رمزية في كل شيء تفعله ــ في إهداء الزهور الى الموتى ، وفي ولائم عيد الشكر، وفي الاحتفال بعيد الفصح، وفي الشعائر الدينية، والمصافحة بالأيدي ، وحتى في بصاق الجانحين على المارة في النفق .

والعديد من الشعراء الأمريكان ، كما يرى كارل شابيرو ، يكتبون نثراً لا شعراً . فالنثر حرْفي . والشعر بُعدي . فلماذا نريد أن ننفذ الى مملكة الحلم؟ لأنها تشتمل على مفتاح لمعرفة ذواتنا . والمغامرة في اللامعقول تخيف بعض الكتاب . فالمملكة التي يأخذنا الكاتب اليها قد تجعلنا نفقد النفس التي تعودنا عليها . نحن نخاف من التغير ، والتأثر ، خلف سيطرة العقل . فالحقيقة أن للشعر تأثيراً لا يُدرك . إنه يؤثر بالعدوى ، والتقمص ، كما تؤثر الموسيقى .

وتدين بعض تجاوزات الشبان في تفجر المخيلة والأصالة لقمع هاتين المقدرتين قمعاً طويلاً ، وهما التوحيد القياسي الذي أحدثته الميول التجارية ، والتنظيم الصارم الذي بلغ الذروة من الرتابة الكاملة . إن الفن هو الذي يحدد ضوابطه . والشكل هو اختيار ، وليس قمعاً . ونحن لا نستطيع أن نتجاهل

اللامعقول ، لأننا لا نستطيع أن نحقق الأخوية العميقة دون أن نستكشف ونتظم قبل أي شيء هذه القوى غير العقلية التي تستمر في تحريض الكائنات الإنسانية تحريضاً إلزاميا أعمى • ونحن مضطرون أن نعترف بأن ما اعتبرناه قمع العقل للنفس اللاعقلية كان وهماً • فالنفس اللاعقلية لا يمكن أن تقمع لأنها كذلك مصدر الشعور ، والحياة ، والإبداع ، والدين ، ولكنها من الممكن أن توجّه بالفهم •

بدءاً بفرويد، واستمراراً بأوتو رانك ، ومن ثم بالرائد الأشد حداثة ر • د• لينغ ، اكتشفنا التمثيليات التحزيرية والألبسة التنكرية • ومسؤوليتنا تكمن في قدرتنا على توجيه كل موجة من موجات الغضب ، والتشويه ، والبغض التي نقذفها في العالم كأنها قنابل من صنعنا •

لا مفر للإنسان من الحلم • وعلى الإنسان أن يتعلم العيش خارج التاريخ بالإضافة الى عيشه فيه ، وإلا سيصبح كالخروف المتأخر منجرفاً الى أخطائه (التي هي كمخاوف النازية) • إنه يحتاج الى جزيرة روحية يمكنه فيها أن يجدد قوته ، وقيمه المبعثرة ، وانفعالاته المجروحة ، وعهوده المتفسخة • إنها الحاجة الى مختبرات النفس التي تعالج اليأس ، والتشاؤم ، والهستريا • والحياة الداخلية ، المحروثة ، المعتنى بها ، هي ينبوع القوة • وأن نخلطها بالبرج العاجي المضطهد بشدة معناه أننا نفتقر الى فهم البنية الداخلية التي نحتاج من أجلها الى مقاومة الكوارث والأخطاء والمظالم الخارجية • وإذا أصررنا على العيش داخل التاريخ كأننا أصفار لا وجود لها ، فإننا لا نضيف شيئاً الى التاريخ •

إن رفض الثقافة في الماضي للفن المنطوي على العوالم الليلية قد جعل الكثيرين يلجؤون الى نسف الحواجز بالمخدرات التي وصفها هكسلـي بأنهـا فتح أبواب البصيرة • والحلـم لا بد منه للصحـة النفسية • ولقد أقيمـت الدراسات حول الحالمين وكان من الملاحظ أن قطـع الحلم يسبب العصبيـة والزعزعة • (« الأحلام هي فترة نكون فيها مجانين بأمان ، ولذلك نستطيع أن نبقى أسوياء خلال النهار •» ـ مسز ر • كارترايت ، مديرة مختبر النائمين، جامعة إلنويز •) والوجه السلبي الوحيد للحلم هو عندما يكون مقطوع الصلة بالواقع •

وباستخدام المخدرات يصبح الناس سلبيين ، سائحين غـير خلاقين في عالم الصور • والحاجة الى دمج رسائل الحلم بالحياة لا يمكن ان تتحقق بغمر اللاشعور بصور تفوق طاقته على الامتصاص ، والتفسير ، والدمـج ، والربط بالنفس الأخرى • والفنان يصب أحلامه في أعماله ، وهي تتخلل شكل العمل ، سواء أكان رسماً ، أم مؤلّفـا موسيقياً ، أم رقصـاً ، أم شعراً أما المخدراتُ الهذيانية فإنها لا تلهم إلا الصور التي تشتمل عليها أحلامنا ولكنها لا تعلمنا تفسيرها ، أو إضاءتهـا أو تنويرهـا • وبإغلاق الباب علـى العالم الخارجي ، لا تواجه المخدراتُ الفردَ بالنفـس الحالمـة فحسب ، بل كذلك بالكوابيس • والشعراء الذين سكبوا كوابيسهم في الأدب (مثل لوتر يامون في « أناشيد مالدورور » ، أو رامبو في « الإنارات » ، أو آنا كافان في « أجزاء الحرم » أو جينه في أي عمل من أعماله) قدموها لنا في شكل يختلف عنهـا اختلافاً شاسعاً كاختلاف ما يرسمه المجانين عما يرسمه عظماء الرسم •

فالفنان إذن يستدعي تخيله ويستميله ، فهو مسيَّر ذاتياً . وما ينجزه التسيير الذاتي يقوي قدراته على البناء والابداع . والصور والأحاسيس ينبغي أن تصبح عملاً أدبياً ، وإلا فلن نستطيع أن نشركها مع الصور والأحاسيس الأخرى أو أن نبدع عالمنا وفاقاً لخططنا ورغائبنا . وسر الخصب يكمن في الأعماق الجيولوجية للرمز الحلمي . فالفكر ذو تأثير جاف في التجربة. والتحليل تشريح ، تشريح الوسيلة من أجل العمل على المادة الميتة . والفنان يعمل بالمادة الحية .

وقد اخبرني الدكتور روبرت هاس عن رسّام ذهب الى فرويد وقال له : « أنت تفسّر الأحلام ، وأنا أعلّم الناس كيف يحلمون » . إنه لتعريف جيد للأدب . وقد عرّف يونغ النفس بأنها قوة واقعة بين الشعور واللاشعور تمنح الإدراك المتساوي لكليهما .

وثمة قوة محددة للذهن أيضاً تكف بها الحياة والموت ، والماضي والمستقبل ، وما هو قابل للنقل والإبلاغ وما يتعذر إبلاغه ، والعالي والوطيء عن أن تفهم بوصفها متناقضات .

ولقد قال نوفاليس إن العالم شكل مستخرج من الروح ، إنه صورتها الرمزيـة

وقال بيير ما بي في « مرآة المدهش » (٣) :

(ينبغي لمن يود أن يبلغ المدهش العميق أن يحرر الصور من روابطها

(3) Pierre Mabille du merveillewx (Paris : Sagittaire, 1940).

المبتذلة ، تلك الروابط التي يسيطر عليها الحكم النفعي على الدوام : ينبغي له أن يتعلم رؤية الإنسان خلف وظيفتــه الاجتماعية ، وأن يحطـم ميزان ما يسمى القيم الطبيعية ، ثم يعيده ميزاناً للقيم الحسية ، وأن يتغلب على المحرمات، وعلى ثقل التحظيرات السلفية ، وأن يكف عن ربط الموضوع بالكسب الذي يمكن للمرء ان يخرج به ،وبالثمن الذي له في المجتمع، وبالعمل الذي يستحقه. ويبدأ هذا التحرر عندما ترتفع بطريقة من الطـرق الرقابة الإرادية للضمـير الفاسد ، وعندما لا تبقى آلية الحلم معوّقة . فالطقوس السحرية ،والممارسات النفسية التي تقود الى التركيز والبحران ، والتحرر من الأوتوماتيكية النفسية، كلها وسائل قادرة على تنمية الرؤية عبر التوترات التي تحدثها . انها وسائل تنمية القدرات : إنها طرق الاقتراب من مملكة المدهش .)

هذا ما كُتب في الأربعينات .

وقد كتب الفيلسوف الفرنسي غاستون باشـلار (٤) : « إن الشبــاب الدينامي عند بعض الفنانين الشيــوخ يبدو برهاناً على أن الخيال هو مبــدأ الشباب الخالد .»

ويذكرنا والاس فاولي في « عصر السريالية » (٥) بتعليم فرويد للسرياليين

---

(4) Gaston Bachelar, Poètique de la reverie (Paris : Press Mniversitaire de France, 1960), P. 81.

(5) Wallace Fowlie, The Age of Surrealism (Denver - Chicago : The Ewallow Press; and New York : William Morrow & Co., Inc., 1950), P. 182.

أن الإنسان كائن نائم في المقام الأول • ولذلك على السريالي أن يلاحق أحواله الشعورية كما عليه أن يلاحظ أحلامه وهو نائم • على السريالي أن يتعلم الغوص في أحلامه كما نزل أورفيوس الى العالم السفلي ليستكشف كنوزه •

يقول فاولي عن « يوليسز » : « في الحادثة الأخيرة من رواية « يوليسز » لجوليس ، نجد في نجوى مولي بلوم الطويلة أن الشخصية كفت عن أن تكون واقعية بأي معنى مألوف • إنها مستلقية على السرير والكلمات التي تجتازها في حلمها النصفي وحالتها الشعورية النصفية تحولها الى رمز أسطوري للمرأة ، الى رمز الأرض نفسها » •

وقد كان أندريه بريتون أول أديب تقبل فرويد بوصفه قوة من القوى العظيمة التي تساعد الإنسان على استكشاف معنى الكلمات وحيويتها وعلى إضفاء الأهمية على أحلام الإنسان وما وراء شعوره • لقد شعر بريتون أن ثمة في الذهن قوة محددة تكف فيها الحياة والموت ، والواقع والخيال ، وما هو قابل للنقل والإبلاغ وما يتعذر إبلاغه ، والعالي والوطيء عن أن تفهم بوصفها متناقضات • والعقلانيون يعرّفون هذه القوة بأنها الجنون ، ولكنهم يقصرون رؤية أنها توازن الثنائيات وتقيم بينها علاقات متبادلة وتجعل الوحدة ممكنة • وعلى المرء أن يخاصم هذه الأشياء « الكائنة » من أجل التوحد مع الأشياء التي « يمكن أن تكون » •

والمخدرات ، بإغلاقها الباب على العالم الخارجي تنعش القدرة على الحلم ، ولكن هذه القدرة ليست مجرد شريط صور ينظر اليه بسلبية • إن لها وظيفتين إبداعيتين : إحداهما تحفظ النفس حية في لغتها المناسبة (من صور

ومشاعر) ، والأخرى تغذي الإبداع . والاغتراب ينشأ من رفض معنى الحياة. وفي اليوم الذي نكف عن التغذي بأنهار النفس ، نشعر أن الحياة فارغة .ونحن لاندرك الاغتراب إلا عندما يظهر العصاب عارضاً من أعراضه .

عندما جعلنا شبابنا قساة لمواجهة « الواقع » عرّفنا « الواقع » بأنه غير سائغ لهم . لقد أزلنا حساسيتهم نحو الحقائق السيكولوجيــة . وأحدَرنا وشوهنا الفنان الذي يود أن يوسّع خياله وشعوره دون أن يتعرض لآثــار جانبية . وبالتالي ، فإن الشبّان ، الذين تدربوا على السلبية والاستسلام ، قد أصبحوا ، من خلال المخدرات ، مبصرين في عالم الصور ــ لا مبدعين .

إن الشبان لن يحتاجوا الى المخدرات إذا تثقفوا على حيــاة المشاعــر والانفعالات من خلال الفن . فالفن قد وهب الناس خلال العصور الإحساس العميق بالحياة ، ومنحهم مفتاح معناها . ولقد سُلب الشبان الإحساس العميق بالحياة بسبب المحرمات في علم الجمال ، وفي الأحاسيســ ، وفي الخيــال . واستطاع بروست ، الذي حرم الشبان الأمريكان من قراءته ، أن « يسمو » في تأمل بساط الحمام الذي أضاءته أشعة الشمس . إن أبواب ثقافتنا قــد أغلقت بإحكام في وجه « كيف نشعر » . وعدّ الحلــم عارضــاً من أعراض العصاب ، وانتمى علم الجمال الى الثقافات الأخرى ، وكان الفن كلمة فاحشة ، وكانت السريالية لا تتلازم إلا مع فرحات دالي . ولم نكن نستطيع أن نميزها عندما تظهر على سبيل المثال في أعمال ناثانيل وست أو روايات هنري ملر .

الحلم هروباً

ظلت ثقافتنا النفعية أمداً طويلاً تعتبر الحلم هروبــاً ،و أدب الخيــال

والتجريب هروباً • ولم يستطع الشبّان أن يجدوا إلا طريقة واحدة خـارج قسوة المناهج الصارمة والخطرة • والفضول من وجهة دلالة اللفظـة هـو استخدام في غير محله يحط من القدر ، عندما يعني في غير محله (أو الـذي يفضي « أو يجر الى » خارج التربية) وكان الفضول ذات مرة تعريفاً للثقافة • لقد غسلنا أدمغة الشبان فيما يتعلق بالواقع • والشبان لا يبحثون عن الهروب بل عن التوسع •

لقد كان العظماء الحقيقيون من شعراء ، ورسامين ، وموسيقيين قد فتحوا الأبواب طوال الوقت لاتسـاع الوعي • وقد تعلـم السرياليون البحث عن المدهش ، وهي طريقة الحياة والإبداع المليئين بالمفاجآت ، طريقة إعلاء الحيـاة وتشريبها بالمعنى • فلم يكن من الضروري استخدام المخدرات لبلوغ هـذا الاتساع • وفي أمريكا تحيزنا للكتاب ذوي البعد الواحد الذين يصـورون العالم ذا البعد الواحد • لقد اعتبرنا كل تحليق غنائي فوضى بدلاً مـن أن نعتبره تحليق الخيال • وقد كان كل تحليق للخيال مداناً بوصفه ابتعاداً عـن الواقع • فكان المنطقي أن ينحو الشبان نحواً اصطناعياً لبلوغ عالم اللاشعور الذي أغلق في وجههم •

ولا ريب أننا نحمل في جوانبنا هذه الحياة الفسيحة الغنية التحتـ ـ الشعورية كما يحمل المحيط حياته البحرية ، وعندما لا ندركها ونوجهها ، فإنها، تحت الضغط ، قد تبرهن على وجودها بطريقة تدميرية • وإذا كانت حيـاة الفرد الشعورية شديدة الصلابة ، صارمة التنظيم ، فإن السطح بمرور الزمن قد يتصدع ، عندما نكون غير مستعدين للانفعالات التي سنختبرها • وهـذه

الانفعالات تصبح سلبية وتدميرية • وفي الثقافة الجماعية القديمة ثمة غرفة على الدوام للحالم ، لذلك الذي يحلم للقرويين ، وذلك الذي يفسّر الأحلام ، وللبشائر ، والأساطير ، والحكايات المروية ، والتاريخ المحفـوظ ، والقصائد الثلاثيـة المقاطع ، وأساطير العشيرة • وقد طور الدكتور الفرنسي « دزوالية » تقنية في توجيه الحلم بعيدة عما سمّاه « التجربة النزولية المخيفـة » (وهي الآن تسمى الخطوة العاثرة) للصعود الذي هو من ممارسات الحرية • وفي ثقافتنا تتكلم كثيراً عن الحرية ، ولكننا لا نشعر بأننا أحرار • فخيالنا ليس حـراً •

لقد عُدّ الحلم هروباً ، ملاذاً ، وهماً ، وطريقة في الكسل • وخصائصه الإيجابية كالإلهام ، وإظهار كوامن الانسان ، والتخطيط للابتكار والابداع قد تجاهلها كل الناس إلا الفنانين • ولقد تحدث السرياليون عن استيلاء الحلـم على الذهن لإثرائه لا لإخضاعه له • وعَدّه بعضهم مضاداً للعمـل ، ولكـن السرياليين وعلماء النفس قد عرفوا أنه مصدر للعمل • وتحليقات السرياليين في الخيال ، والابتكار ، وقوة اللمح أدلة على وجود العوالم الخفية العميقة • ومن يستطيع أن يفسّر أحلامه لن يخـاف من الوقـوع في شركهـا • إنـه مستكشف • وفي « منزل سفاح القربى » وصفت ما يبدو معقدا في الحلم ، لا يمكن وصله بالحياة ، ولا يمكنه أن يصل الى « نور النهار » • ولم أكن قاصدة الى البقاء في تلك الممالك بل الى استكشافها •

لقد علمتنا دراسة مرض القلب ما القلب السليم • وعلمتنا دراسة العصاب العلاقة بين الحلم والحياة • ويستمد العدد المتزايد من الكتّاب إلهامهم مـن الأحـلام •

وفي « الغابة الليلية » لدجونا بارنس فصل سمته « أيها الحارس ،ماذا عن الليل ؟ » (٦) :

(سأل الدكتور : « هل سبق لك أن فكرت في الليل ؟) ... فقالت نورا: « أجل ... لقد تعودت أن أفكر ، ... في أن الناس قد ذهبوا الى النوم ، أو إذا لم يذهبوا أنهم كانوا ذواتهم ، ولكنني الآن ... أرى أن الليل يفعل شيئاً لذاتية الإنسان ، حتى وهو نائم ... إنني لم أفكر في أن الليل حياة أبداً ... »

« الليل والنهار مسافران ... ونحن نمزق أحدهما من أجل الآخر ، ... ولكي تفكر في البلوط ينبغي أن تصبح شجرة . وشجرة الليل هي أشق الأشجار مصعدا ، وأقساها قشراً وأحرها ملمساً ، وأصعبها في مسالك الاغصان ، وهي تنز صمغاً وتقطر قاراً أمام النخلة التي لم تغامر بتقديرها . والغوروس الذين آمل أنك تعرفهم ، هم معلمون هنود ، يتوقعون منك أن تتأمل البلوط عشر سنوات باستمرار ، وإذا لم تكن في ذلك الحين منتبهاً للجوزة ، فلن تكون نيّراً جداً ، وقد تكون تلك هي الحقيقة الوحيدة التي ستخرج بها ، وهي سوداوية ما بعد التخرج ــ لأنه لا يستطيع أي إنسان أن يجد حقيقة أكبر مما يراه مزاجه . ولذلك فأنا ، الدكتور ماتيو مايتي أوكونور ، أطلب إليك أن تفكر في الليل طوال النهار ، وفي النهار خلال الليل ، أو لدى إنقاذ الذكاء بشكل مؤقت ستفاجئك بشدة ــ قاطرة تجثو فوق

(6) Djuna Barnes, Nightwood (New York : New Directions Pub. Corp., 1961, Paperback), PP. 80 - 89.

صدرك ، تتعثر عجلاتها على قلبك ، إذا لم تفسح لها طريقاً ••• خذ التاريخ••• هل في الليل سدوم أصبحت عمورة ؟ أقسم أن ذلك كان في الليـــل ! كانت مدينة مكرسة للظلال ، وهذا ما يفسر لنا لم لا نقرها ولا نفهمها اليوم ••• لأنه ليس للأحلام إلا صبغة الواقع ••• ولماذا لا يكون النائـــم مسؤولا ؟ وأيّ حديث يُجري ، ومع من ؟ إنه يضطجع مع نلي ويغلـــبه النعاس بين ذراعـــي غريتشن • الآلاف التي لا يطلبها تأتي الى سريره ••• وهكذا بتعوده أن ينام وأن يلتهم الحلم الحدود يجد ما يحلم به أسهل العادات مـــع السنين ، وعند المأدبة تندمج الأصوات وتتقاتل دون أن ترتفع • إن النائم هو مالك الأرض المجهولة ••• ونحن ننظر الى الشرق من أجل الحكمة التي لن نستخدمها ـ والى الحلم من أجل السر الذي لن نجده • ولذلك أقول : ماذا عن الليل ، عن الليل الرهيب ؟ ») (ص ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٨٩) •

إن بعض الناس من أمثال كوستو لا يهتمـــون إلا بما يكمن في أعمـــاق المحيط • وبعض الناس لا يهتمون بالماضي ، وبالجيولوجيا والأنثروبولوجيا • ولقد أبرمني السطح الخادع المشدود الى الأنهار الجوفية والذي لا يشتمل على سر ولادتنا المادية بل على ولادتنا النفسية وسر سلوكها فوق الارض • فالحاضر (الآن) عمل ولكنه يمتلك جذوره سواء في الماضي أو في الدرامة النفسية غير المحسوسة • وهذا العالم الفاتن لم يلهم إلا المحلل النفســـي والفنان • فالمحلل النفسي استكشفه ، والفنان اختبره وسجله •

عندما سئل روسو لماذا رسم مضجعاً في وسط الغابة ، أجاب : « إن لنـــا الحق في أن نرسم أحلامنا » • وعندما سئل ساعي البريد الفرنسي الحبيب الى

السرياليين عن بنائه قلعة مصغرة في فترة ثلاثين سنة بحجارة كان يحملها في جيبه خلال توزيعه الرسائل البريدية ، أجاب : « عندما يكون على الانسان أن يُمضي ثلاثين سنة في الطريق نفسها ، فلن يكون لديه سبيل الى إنقاذ نفسه من الرتابة إلا بإبداع شيء حلم به » • ويمكن أن يقال الشيء نفسه في «أبراج واتس » التي بناها سيمون روديا في لوس أنجلوس ، بصبر ثلاثين سنة ، من الأحجار التي أهملها خلال عمله في البناء • والرمز الجوهري للتحول يمكن للمرء أن يراه في الطريقة التي بدأ بها فرانتس كافكا روايته « الاستحالة » : « ما إن صحا غريغور سامسا ذات صباح من أحلامه المضطربة حتى وجد نفسه قد تحول وهو في سريره الى حشرة ضخمة » •

ولقد رفض رلمكه التحليل النفسي • إذ خاف أن يشفيه ، فيشفيه من الشعر • ورفضه كافكا ، فظل حبيساً في عالم ضيق من الكوابيس • وقبله هرمان هسه ، فاتسع خياله • فالخوف لا يحفظنا إلا من الأعماق • وكان ستريند برغ في طليعة زمانه • فقد استكشف عمل ما وراء الشعور في أثناء النوم ورأى كيف تنشطر شخصية الحالم الفرد الى شخصيات متعددة ظاهرة الاختلاف • ولهذا كتب « لعبة الحلم » ، التي لو كتبت الآن لسميت سريالية كسريالية « انتظار غودو » • ووحّد هرمان هسه الاهتمام بفلسفة الشرق مع التحليل النفسي الذي خضع له ، ولعل هذا قد منحه الجرأة على شق نظام كرونولوجي (ميقاتي) في الحلم الطويل الذي هو أحد مقاطع روايته « ذئب البوادي » التي يعيش فيها انفصام الشخصية خارج تعدديتها بوضوح شديد •

وكان لجاك لندن حلم متكرر عن كونه في عش طائر ، بني فوق شجرة ،

جعلته يعتقد أني عانى مشاعر الإنسان البدائي الذي كان يعيش في الأشجار : « إنني بالغ الصغر وقد التجأت الى نوع من الأعشاش المصنوعة من الأغصان والأعواد » • وعلى هذه الذاكرة الجماعية أسس كتابه « آدم » الذي وصف فيه وجودنا قبل التاريخ عندما كان أسلافنا يعيشون في الأشجار وكان خطر السقوط يهددهم على الدوام • إنني لا أعرف الحقائق العلمية حول هــذا الموضوع ، ولكن الأطفال جميعاً يحبون منازل الأشجار ومن الممكن لنا أن نخرج باستنتاج من هذا الحب • وكتب د • هـ • لورنس حول مراقبته الهادفة لإحدى الشجرات وشعوره بأنه أصبح شجرة • « إ نني أود أن أصبح شجرة بضع دقائق • إنها تراقب المكان كبرج هائل وأنا أقف تحتها أشعر بحمايتها • إنني أصبح تلك الشجــرة • إنني أمتلك في أوصالــي قوتها ، وصلابتهــا ، وجذورها المتماسكة المتينة • »

تأثير الحلم في الواقع

يمكن للأحلام ، إذا ما أتيح لها ، أن تكون هاديات للعمل ، شريطــة أن يستحسنها الذهن الشعوري وأن تستجيب لها الانفعالات استجابة إيجابية • وأود أن أقدم مثالاً على تأثير الحلم في الواقع • لقد بدأت تجربتي بزيارة دار في بريتانيا كان قد شغلها ده موباسان ذات مرة • وكتب فيها معظم قصصه • وفي أثناء العواصف كانت زوارق الصيد تنقل الى داخل البلد وتوضــع في الحدائق • وعندما تنحسر الفيضانات كانت تندفع الى الشاطىء وترسو عليه • وكان الناس ينقلونها الى مخازن الأدوات أومنازل الضيافة • وكنت قد أمضيت نهاية الأسبوع في تلك الدار • فطلبت من المضيفين أن يسمحوا لي بالنوم في

الزورق ولكنهم لم يسمحوا • فحلمت أنني نمت في الزورق وأنه سافر خلال الليل ، وعام في النهر عشرين سنة على حين كان زوجي وأصدقائي يصيحون بي أن أتوقف • وفي اليوم التالي كتبت قصة عن الحلم • والقصة جعلتني أقف على شدة رغبتي في مثل هذه الحياة • وبعودتي الى باريس بدأت أبحث عن « المنزل الزورق » ، ووجـدت ضالتي • وعشـت في « منزلٍ ــ زورقٍ » وكتبت قصة ورواية عن الحياة في المنزل الزورق • وفي هذه الحالة قادني الحلم الى تنفيذ أعمال محددة ، مبهجة ، في حياتي اليقظة •

وقد يكون الذهن الشعوري عند الكاتب أكبر كابح ، أكبر رقيب •وهذا الذهن الشعوري قد خلقته العادات الاجتماعية ، والثقافة ، والبيئة ، والضغوط العائلية ، والأعراف • ومن الضروري للإبداع أن يعمل الكاتب باللاشعور الذي يجمع التجربة الصافية ، وردود الأفعال ، والانطباعـات ، والحدوس ، والصور ، والذكريات ــ ذلك اللاشعور المتحرر من الأثر السلبي للتقويمات الاجتماعية • ولا يمكن للذهن الشعوري أن يعمل إلا بعد ذلك بوصفه ناقداً ، نابذاً ، منتخبـاً •

وقد اخترت في كتبي أن أكتب عن الفنانـين لا لأنني أعرفهم خيراً ممـا أعرف الناس الآخرين فحسب بل كذلك لأن الفنان يعيش عـادة في إخلاص واستقلال وعفوية تفوق غير الفنانين • وفي فن الآخرين بالإضافة الـى فني ، اكتشفت أن الاحلام الحقيقية والتخيلات متشابهة • ويمكن للشاعر وفي يسر أن يبتدع صورة الشجيرة المشتعلة التي جاءت في الحلم ، وصورة طائر الفردوس الملون ، أو الملك الأسود • إلا أن علاقتها بالتجربة الحياتية لا تتضح غالبـاً إلا بالتحليل الذي يعقبها • وقبل نشري المجلد الأول من « اليوميات » حلمت

أنني فتحت الباب الأمامي فواجهني إشعاع قنبلة ذرية • كان نوراً باهراً رهيباً • وعندما أغلقت الباب فكرت : إن هذا سوف يؤذيني إلى الأبد • ثم كشفت معنى الحلم • إن النشر كان يعني فتح الباب الأمامي على العالم ، على الشهرة ، والتلفزيون ، والأضواء ، والرأي العام ، والمراجعات • والتعرض الشديد للشهرة قد يؤذيني • وقد كان تعبيراً عن الخوف • وكنت أشعر دائماً أن الحياة العامة تؤذي خصوصية الفرد وحياته الشخصية •

والكتابة بحد ذاتها هي في معظم الأحيان حلم يقظة • وأنا قد أجدد في ذاكرتي بناء مشهد حقيقي خلّف انطباعاً عميقاً في نفسي ، كإعادتي تركيب انطباعي حول سان ميغل ده ألند في المكسيك الذي ظهر في « استطلاع منزل الحب » (ص ٦٤) : « الشوارع خربها الزلزال • ولم يترك الا واجهات الأبنية ، كما في أحد أنواع الرسم ، وبقيت الواجهة الغرانيتية ، مع الأبواب والنوافذ نصف المنفصلة ، المفتوحة بشكل فجائي لاعلى أسرة آوية حول الموقد ولكن الأسر جميعاً قد عسكرت تحت السماء ، واقية نفسها من الغرباء بجدار وباب فقط ، ولكنها من الجوانب الثلاثة الأخرى مكشوفة تماماً ومفتقرة الى الجدران والسقوف • »

في « استطلاع في منزل الحب » (ص ٦٨) استخدمت هذه الصورة ـ الذكرى لأعبّر بها عن توق سابينا الى : « ••• المدى غير المحدود الذي ارتقبته لتجد فيه غرفة كل عاشق ، والى البحر ، والجبال التي تبدو من كل الجوانب ، والعالم المنفصل من جانب واحد • والموقد الذي لا سقف له ولا جدران ، النابت بين الأشجار ، والأرض التي اندفعت فيها الأزهار المتوحشة لتعرض وجوهها المبتسمة ، والعمود الذي تقيم عليه الطيور التائهة ، وعلى مبعدة من

المكان المعابد والأهرام والكنيسة الباروكية • »

هذا هو نقيض البيت الكامل ، الكلي المغلق ـ إنه بيت الضيف لليل ، البيت الذي يسهل هجره ، وهذه الصورة قد اقترحتها سابينا نفسها ، وعبرت فيها ، كما يعبر الرسام ، عن ضجرها ، وتجولاتها ، وزعزعتها ، ومزاجها الحركي •

فلماذا علينا أن نتصل بلا شعورنا مادام لا يتحقق إلا بمثل هذه اللغة غير المباشرة ، لغة الرمز ؟ يجيبنا والاس فاولي عن هذا السؤال في « عصر السريالية » (٧) :

(إن الأحوال الشعورية لكينونة الإنسان لا تكفي لكي تفسره لنفسه أو للآخرين • ولا شعوره يشتمل على أوسع جزء من كينونته وأشدها أصالة • وقد تبين أن كلامنا الشعوري وأعمالنا اليومية تتناقض عادة مع حقيقة نفوسنا وأعمق رغائبنا • والنموذج الدقيق لسلوكنا الإنساني قد أوضحه الواقعيون وحيواتنا التي تبدو متتابعة قد تبين أنها نماذج شكلتها القوى الاجتماعية بدلاً من رغائبنا أو أمزجتنا أو قوانا السيكولوجية الداخلية نفسها • والفكر وحده ، أو الحياة التي نظمتها معايير المجتمع الثابتة ، أو الأحوال الشعورية لكينونتنا ، كل تلك الأشياء حواجز في وجه الصدق •)

إن الحلم إذن ، بدلاً من أن يكون شيئاً بعيداً عن الواقع ، أو عالماً خاصاً من الوهم أو الخيال ، هو بالفعل جزء أساسي من واقعنا الذي يمكنه أن يسهم فيه ويتصل به بوساطة اللغة المجازية •

(7) Fowlie, op. cit., P. 16.

فيري والفرس العجفاء

بقلم الكاتب المجري : أندره آدي • ترجمة : جورج صدقني

نبذة عن الكاتب :

يعد أندره آدي (١٨٧٧ ـ ١٩١٩) أعظم الشعراء المجريين في عصره بلا منازع . كان يدعى بحق طائر العواصف المبشر بالثورة ـ مثل غوركي في روسيا ـ لأنه هو الذي أطلق في بداية هذا القرن الفوران الثوري في الأدب ، وتوقع الثورة الاجتماعية التي ستقوم في المجر . بدأ حياته ، مثل كثيرين من الأدباء المجريين ، في الصحافة . وسافر ، وهو بعد فتى يافع ، الى باريس ، التي سافر اليها فيما بعد عدة مرات. كتب يقول: «شاء الحظ أن تكون باريس هي المكان الذي أعثر فيه على مبرر شجاعتي ككاتب ـ وذلك عند واحد أو اثنين من الكتاب الفرنسيين التراجيديين » . كان يحب بودلير وفيرلين، واستمد منهما تشجيعاً في شعره الغنائي ، الذي يتسم برمزية أضفت شخصيته عليها طابعاً خاصاً . وفي باريس استمد تشجيعاً على الصعيد السياسي أيضاً ،من الراديكاليين ومن الحركة العمالية الفرنسية ؛ وأشاد كذلك في عدد من آثاره باناتول فرانس ، الذي كان يتعاطف مع الكادحين .

إنه يتحدث عن نفسه وعن العصر الذي عاش فيه بقوة وشجاعة لا يمكن تصديقهما ، وبصور جريئة وإيقاع جديد ، وبصدق وبروح كفاحية . وكانت رؤيته الاستثنائية ورموزه القوية تفضح عبث الحياة في زمانه ، وتنادي بضرورة التغيير . وقد وصمه المحافظون بانه ممثل ، وبانه خائن لوطنه ، وقالوا عنه إنه غير مفهوم ، وأنه يعبر عن نفسه بلغة مجرية ركيكة . وعن هذا كتب يقول : « الخلاصة أنني نلت كل ما يمكن أن يطمح إليه في المجر شاعر جديد » . غير أن الشباب تجمعوا حوله وحول مجلة « نيوغات » ـ الغرب ـ التي تاسست في عام ١٩٠٨ ، وضمت أعظم الكتاب في ذلك الوقت . وقد نشر آدي أعماله بإيقاع مذهل : فكل سنة تقريباً كانت تشهد ظهور ديوان جديد من أشعاره ،

يبرهن على زيادة فنه عمقاً ، وعلى بلوغه قمماً جديدة . كتب قصصاً قصيرة ، ومقالات صحفية ، ودراسات تتميز بروح الكفاح ، ومقالات سياسية عنيفة . وقبل وفاته أصبح معروفاً خارج بلاده ، ونصب رائداً للشعر الغنائي المجري الحديث . وبعد وفاته ترجمت أشعاره الى عدة لغـات .

وفي أثناء الحرب العالمية الأولى بلغت أشعاره القمة من جديد ، إذ أخذ يستصرخ الضمـائر بحيوية نادرة ضد أهوال هذه المجزرة العقيمة ، وضد الأقوياء الذين أثاروا هذه الحرب . وامتدت به الحياة حتى شهد نهاية الحرب ، وشهد الثورة المجرية في عام ١٩١٩ ، تلك الثورة التي انتظرها وتمناها طول حياته .

وهذه إحدى قصصه القصيرة ـ قصيرة جداً ، حتى انها ليست أطول من النبذة عـن حياته بكثير ـ يقدم فيها صورة أخاذة لشقاء فلاح مجري ، بل أكاد أقول صورة رائعة ، أعني مرعبة .

فيري والفرس العجفاء

مع الفجر ، أخذ يانوش كيشكه ، المسكين ، يشـق طريقه ، مع عربـة الجر ، نحو غابـة (ارميت) . كان الفجر قد بزغ مع الثلج الذي كان يتساقط في ريـحٍ صرصر تحـدث دوامات ، وكانت « العجفاء » تقح . كانت الزوجة تحمل القنديل لزوجها ، وهـي تخبط نعليهـا ، في حين كان كيشكه يشدّ ربـاط الحيوانـين . كانت « العجفاء » تقح ، فتتقصف أضلاعها المهزولـة . وكان بخـار قحتها الحـار المرضي يشعّث لهـا رأسها . كانت « العجفاء » أشبـه بفلاح هـرم أصابته حمى الـدق ، وتمرد حاجباه الأبيضان . كانت الأم شارلوت تتفجع ، وتبكي ، وتدغدغ « العجفاء » ـــ وهي ترتعد من البرد ـــ كدغدغة المختلس . أما يانوش كيشكه ، المسكين ، فكان يسوي وضـع عـدّة الفـرس نافخـاً طـول الوقت في يديه المتجمدتين . كان يشتم المرأة ، والله ، والعالم ،

وغابة ارميت • في بيته كان يحدث قليلا من الدخان بأعوادٍ من دوار الشمس ، وها هو ينبغي عليه أن يطرد هذا الحيوان المبهور الأنفاس ، المريض ، من الاسطبل ، لينقل حطبا للآخرين • وإذا انهارت « العجفاء » في الطريق، ماذا يحدث؟ إن حياة المرء بحصانٍ واحد أشقّ من حياته بيدٍ واحدة ، وليس هناك مال من أجل حصان آخر • عندئذ تنتهي نقلات الحطب مقابل بنغوسين (١) للنقلة الواحدة ، فيجد نفسه حبيساً في الكوخ حتى الربيع • وحينئذ يموت جوعاً بالجملة مع أطفاله ، فلا يستطيع حتى أن يعطي تبناً للحصان الباقي •••

كان يانوش كيشكه يجدّف ، ودون أن يلقي تحية الوداع فرقع بالسوط فوق الحصانين • جأرت العربة وهلة ، وأخذت تجري وكأنما تجرها خيل من خيول السباق • رفعت « العجفاء » رأسها الرمادي ، ومضت وكأنها تتذكر أيام صباها • كان لابد من الجري بسرعة : فقد كان أمام سائق العربة الذاهب الى غابة ارميت مسيرة أربع ساعات • وأنفق يانوش كيشكه ، المسكين ، ساعة من الزمن حتى خرج من صمته المر في هذا الصباح الشتائي • فهتف بصوت عال : « وعندما أفكر بأنني لم أقل حتى كلمة حلوة للمرأة ، وفيري الصغير لم أسأله عن أحواله • لقد تزحلق على الجليد حتى لم يعد يقدر على التنفس » •

لقد ضربه ، هذه الليلة ، مرتين ، لأنه لم يستطع النوم من شدة أنينه • فكأن الأطفال ليسوا كثيرين جداً ، وكأن الحياة ليست شاقة بما يكفي! وانهال يانوش كيشكه ، المسكين ، بضربة غاضبة من سوطه على حصان

(١) البنغوس وحدة صغيرة من النقود المجرية القديمة .

الجر . كان يراعي « العجفاء » ، وهذه الشقية المبهورة الأنفاس كأنها كانت تريد أن تعدو الى آخر العالم .

في غابة ارميت حمّل الحطب على عربة يانوش كيشكه ، المسكين . كان الوقت قد تجاوز الظهيرة عندما عاد ليسلك طريق العودة . فظل متأخراً عن سائقي العربات الأخرى ، التي كانت تحمل حطب التدفئة للطاحون البخارية التي يملكها اليهودي . وفي (وادي الذئب) كانت عاصفة ثلجية لعينة تنتظر يانوش كيشكه ، والعجفاء ، والحصان الآخر . كانت العجفاء تجر نفسها على نحو آلي ، كالجثة . وعندما وصلت الى السفح الصاعد ، أخذت تبكي مثل كائن بشري . كانت تبكي متقطعة الأنفاس بكاء حزيناً يائساً ، وخرّت ، على ركبتيها ، على قائمتيها الأماميتين ، فوق الثلج المتراكم . فصرخ يانوش كيشكه : « سيأكلنا الغول هنا » . وكأن العجفاء فهمت ، فقحّت حتى غطاها العرق ، وبذلت جهداً هائلاً ، وانطلقت من جديد . كانت تثير العطف لبذلها خير ماتملك ، ولم يكن ينقصها سوى النطق . لتقول : « الحق ، يا يانوش كيشكه ، يامعلمي المسكين أن ما أفعله الآن ، إنما هو لإنقاذ الشرف . سأجر وأجر ، وأصمد حتى ساحة الطاحون ، وبعد ذلك فليحدث ما يحدث » .

كان الثلج يتساقط منهمراً شديد السرعة ، ولم يضلّ يانوش كيشكه ، المسكين ، طريقه ، بفضل الله والعجفاء فقط . غير أن الساعة كانت قد بلغت الثامنة عندما وصلوا . وأفرغوا حمولة الحطب في ساحة الطاحون . وتلقى يانوش كيشكه ، المسكين ، البنغوسين . وفي هذه المرة جلد

العجفاء جلداً بالسوط • فقد كان ينبغي له أن يسرع • أطلقت العجفاء صهيلاً أليماً، وانسابت العربة • وفي غضون ذلك لاحظ كيشكه، من بعيد، أن الضوء ساطع في منزله • فهتف قائلاً : « فليقبض الشيطان أرواحهم! من الساعة التاسعة يشعلون القنديل؟! إن هذه خطيئة ترتكب ضد الله ! » • ودخل من الباب الخارجي الذي ظل مفتوحاً ، وهو يجدّف مثلما جدّف عندما خرج في الصباح • وعند الباب، تعثرت العجفاء عثرة رهيبة وسقطت على ظهرها • فأطلق يانوش كيشكه، المسكين ، صرخة رعب ، وقفز الى الأرض من العربة • وفك رباط عدّة العجفاء ، وهو يتفجّع • وعلى صوت تفجعاته خرجت من المنزل جماعة من الناس بكاملها • كان كيشكه يسبّ الله ، فلم يلاحظ أن الناس خرجوا يحملون عشرة قناديل •

لقد كانوا يؤلفون كل أقربائه وكل أقرباء امرأته • كانوا رسميين ولطفاء غير أن هذه الرسمية ، وهذا اللطف انقضيا سريعاً • فالعجفاء لم تكن تمزح • لقد شخرت شخرة قوية من رئتيها الرديئتين ، وتمددت • فأخذت الأم شارلوت ، والقريبات جميعهن أخذن يندبن ويعولن • وكان الرجال يتأوهون ويجدّفون • كانت العجفاء ، بكل بساطة ، قد نفقت • بشرف ، وبجدية ، لقد أرهقت نفسها إرهاقاً لتحتفظ بأنفاسها حتى عتبة الباب • ولم تبق لديها القوة للمزيد • فكّ الحصان الآخر ،ودفعت العربة الى المخزن • أما العجفاء ، التي نفقت ، فقد جرّت على الثلج الأبيض حتى وسط الساحة • في غد يسلخ جلدها • وفي غضون ذلك وصل بعض الجيران ، وكذلك أناس أبعد من

ذلك . كانوا يعبرون عن أسفهم ، ويدلون بنصائحهم . ولم يكن أحد منهم ليشعر بالبرد ، وكان منتصف الليل قد حلّ عندما خلت ساحة كيشكه . مضوا جميعاً ، بما في ذلك الأقرباء . وانصرف يانوش كيشكه، المسكين ، الى شؤونه ، وهو في حدادٍ في الليل الأبيض الناصع . ومن وقت الى وقت كانت المرأة تخرج لتأتي الى جانبه . الخلاصة أن كيشكه لم يدخل المنزل إلا قبيل الفجر . وكانت تنتظره هناك مفاجأة:

كان فيري ، ابنه ، مسجى على الطاولة أصفر الوجه ، في لباس أبيض . قالت له الأم شارلوت منتحبةً :

ـ مات عند الظهر .

خبط يانوش كيشكه قدميه قرب المدفأة ، حيث كانت تشتعل أعواد دوار الشمس . كان ينفض الثلج العالق به . وتدفأ . وبعد ذلك فقط ، بعد ربع ساعة ، تنهد وقال :

ـ هو أيضاً !

من الأدب الفرنسي الروماني

الفرد دي موسّيه وَليَاليه

● تقديم : د . ابراهيم الكيلاني ● ترجمة : ماجد خير بك

التقديم

كانت ايطاليا الجميلة ، وما زالت ، مهوى الأفئدة وقبلة الانظار ، فيها تتجسّم الاحلام وتنبعث الرؤى ، وتكمُل السعادات ، يرحل اليها محبو الفن ، وأرباب الذوق ، وأصحاب الجاه والثراء ، وروّاد المغامرات من كل سنخ وجنس ، ولئن متع أناس عيونهم بما خلقته الطبيعة فيها ، وما ابدعته يد الانسان ، واستحم آخرون بأضوائها وألوانها المتجددة على مر الزمان ، فان جميعهم واجدون غذاءً ، وانطلاقاً ، ولهواً ، ودفئاً روحياً وجسمياً معاً .

ولعل الشعوب اللاتينية وريثة حضارة يونان وروما أشد الشعوب تعلقاً بايطاليا ، وتقديساً لذكراها ومظاهر الحضارة العريقة فيها . فاذا أراد أحدهم ، أديباً كان أو مفناً ، مثرياً أو متشوقاً للمتع ، تصورَ السعادة ، كانت تلك البلاد الجميلة ، والعيش فيها حقبة من الزمن امنيةَ الأماني . فحفظت ايطاليا بمدنها القديمة الخالدة الشيء الكثير من قصص وأساطير العلماء والأدباء والمغامرين والعشاق لم يزدها بُعدُ الأيام والقدم إلا صفاءً وجلالا وروعة .

ومما حفظه التاريخ قصة واقعية جرت في البندقية بطلاها أديبان : امرأة ورجل ، المرأة هي الكاتبة جورج صاند، والرجل هو الشاعر ألفرد دي موسيه، وكلاهما يحتل مكانة في تاريخ الآداب العالمية • ولا بد لنا قبل شد الرحال معهما الى « فينيسيا » من الالمام بسيرتهما ، فهي شديدة الصلة بالموضوع ، ولا غنى عنها في تفهم بواعث هذه الرحلة الميمونة المشؤومة وتتبع مراحلها •

ولدت جورج صاند في باريز سنة ١٨٠٤ من أسرة بورجوازية قديمة • ومات ابوها شاباً وهي لمّا تزل طفلةً فكفلتها امها ، وهي امرأة تافهة ، ومن بعدها جدتها ، وهي امرأة مهذبة تمثل الطبقة المحافظة في فرنسا ويقال إن صاند كانت ملتقى عدة وراثات ، قد عرف من أجدادها ملك من ملوك بولونيا ، وراقصة في الاوبرا ، وصاحب حانة ، وتاجر طيور ، ومن هذا التضارب ورثت صاند صفات جسمية وخُلُقية منها : متانة البنيان والجرأة والاقدام ، وتناقض في السلوك والتصرفات ، ونهم شديد للاستمتاع بالحواس ، ونزوع قوي نحو المثل الأعلى •

تُركت صاند لوحدها على عَتَبَة الحداثة تربي نفسها بنفسها ، وقضت سني حداثتها في مرابع البيري غربي فرنسا تجوب الامكنة في نزهٍ ريفية طويلةٍ تمتّع عينيها بالنور، وتغذي نفسها بعِشرة الطبيعة، وفي السادسةَ عشرة زوجت من السيد دود فان ، وهو رجل محدود برمت به صاند لعدم إقامته للأدب والمواهب العقلية وزناً ، فقضت فترة من حياتها قبل الطلاق في عُزلة فكرية وعاطفية ، وبعد عشر سنين تركت زوجها برضى منه وهاجرت الى باريز مع ولديها سعياً وراء العيش ، ولم يكن يساورها يومئذ أيُّ طموح أدبي ، فبدأت

تحرر في مجلة أدبية صغرى مقالاتٍ لم تلق رواجاً • وقد توسم فيها مدير المجلة موهبة القصة فصار يشجعها على التأليف الروائي ، وفي سنة ١٣٨٢ نشرت صاند أولى رواياتها « انديانا » فكانت فاتحة حياتها الادبية • وقد بلغ نشاطها في التأليف حداً لم يُؤثر عن الرجال بَله بناتِ جنسها حتى أربت آثارها على المائة كتاب • ولم يلبث أن سطع نجمها فعُرفت في المحافل الأدبية والفنية فكثر أصدقاؤها وعشاقها والمعجبون بها • وكانت كلما امتدت الأيام ازدادت صاند خبرة بالحياة ومعرفة بالناس ، فتفتحت عواطفُها ونَضجَ عقلُها فقرأت كثيراً وسمعت كثيراً ، وكان لتفتح ذهنها وقوة امتصاصه أثرٌ في تلوين أدبها • وقُرِنَ نشاطُها الأدبي بآخر سياسي اجتماعي فكانت من انصار الحركة العمالية الاشتراكية وموآزري ثورة سنة ١٨٤٨ •

وماتت صاند في مسقط رأسها نوهان سنة ١٨٧٦ بعد أن بلغت الثالثة والسبعين •

كانت صاند جميلة ، وكان في خطوط تكوينها نصيب وافٍ من تناسق الجمال الاغريقي الملطف بالرقة الاوربية العصرية ، وكان شعرها الكستناوي الغزير يتدلى من جانبي رأسها على كتفيها ، وعيناها الناعستان الغارقتان في سوادٍ جميل يعلوهما سائل كهربائي اللون يركزان الملامح الهامة في هيئتها ، ويصعب على من يقع تحت تأثيرهما الفكاك أو الخلاص ! ذلك أن نظراتها تشبه نظراتِ النائم اليقظان، واذا تحركت ملامحُها جذبتِ الانتباه، وانتزعت إعجاب محدثها انتزاعاً ، وكان لها أنف جميل ، وفم مليح ، ولعل أبرز شيء فيها بعد عينيها صوتُها الرخيم العميق المغلف كأنه آت من بعيد ، لأن صاند كانت

أميل للتأمل والصمت ، تتلقى اكثر مما تعطي ، لا تواضعاً أو تكبراً أو عجزاً بل سعياً وراء امتصاص اكبر كمية من كلام محدثيها لكي تنضج هذا الكلام في أعماق نفسها ثم تبرزه فيما بعد وعليه طابعها الأصيل •

واذا شئتَ المزيد من أوصافها فان كتفيها بديعتان ، وكذلك ذراعيها ويديها وقدميها في غاية اللطف والصغر ، وكانت أقرب الى الامتلاء واعتدال القامة ، إلا الرأسَ ففيه كل معاني الفتنة والاغراء والمثل الأعلى •

أحبت صاند الحياة والحرية ، واختطت لنفسها مقاييس أخلاقية ارتضتها وسارتْ عليها ، وكان لها من نشأتها وطبيعةِ عصرها الروماتيكي المتمرد على التقاليد والموافقات خيرُ معينٍ على ذلك فهجرت عالم المرأة الى عالم الرجال ، فتزيت بزيهم ، وتسمت بأسمائهم ، وتخلقت بأخلاقهم متحدية بذلك آراء ذويها وأوضاع مجتمعها ، كما أنها اوتيت طبعاً سمحاً سخياً فياضاً ذا اتجاهات متعددة ، إذ كانت تتنازعها ثلاثة عوامل رئيسية هي سر شخصيتها وتقلباتِ طبيعتها ، كان مزاجها أو دمها الحار كما قال أحد الادباء يدفعانها في تيارات الهوى والحب العنيف، تلتمس منه هزاتٍ وروافدَ لاحساسها وأدبها،مستجيبة في الوقت ذاته لنداء الأمومة ، كما كانت تتجاذبها دواعي التعبير الفني والعمل الأدبي فاستطاعت أن تشبع الرغائب الثلاث كأحسن ما تشبعها امرأة" عبقرية مثلها ، فكانت عاشقة مثالية ، وربةَ بيت ممتازة ، وكاتبةً مجوّدة في آن واحد ، ومن الطبيعي ألا يتم هذا التركيب إلاّ بعد أ ندفعت صاند الثمن غالياً من خيبات عاطفية ، ومآسٍ نفسية ، ومغامرات مؤلمة ، وسمعةُ مشينة وجدت فيها غذاء لروحها ووسيلة لتصعيد أدبها حتى قال أحدهم : إن السيدة صاند

فعلت المخازي ولكنها كتبت الروائع !

كانت تلتمس من وراء الحب الصفات المثالية عند من تتوسم وجودها فيهم من الرجال ، تعطيهم من حنانها وأمومتها وتضحيتها لتنعم بصداقتهم وعشرتهم فيكون لها من وراء ذلك تجديد لكيانها وهزة لشعورها . قالت مرة تدافع عن نفسها مشيرة الى حياتها العاطفية ومغامراتها : « إن العواطف أقوى من المحاكمات المنطقية ، وإن القيود التي فرضتها على نفسي لم تُجدني نفعاً ؛ لقد غيرتُ رأيي اكثر من عشرين مرة ، آمنت بالوفاء ، وفاءَ الزوجة لزوجها ، وبشّرتُ به ، وحرَصت عليه ، ودافعت دونه أمام هبوب العواصف ، ولما كفر الناس بالوفاء كفرت به أيضاً دون أن أشعر بوخزٍ في الضمير ، لأنني كنت مسوقةً في عملي بدوافع محتومةٍ من القدر وغريزة المثل الأعلى الذي يجعلني اهجر النقص وأسعى نحو ما كان يتراءى لي فيه الكمال » .

وكانت صاند تعتقد بعد كل فشل عاطفي أنها لم تُحسن الانتقاء ، وأن المحبوبَ المثالي الذي سوف يقدّرها حق قدرها ، ويتحاشى الاساءة الى كرامتها لا بد أنه موجود ، وأنها سوف تلقاه لا محالة فظلت طوال حياتها تستعرضُ من يحيطون بها كما يستعرض السلطان في الحرم جواريه ومحظياته سعياً وراء واحدةٍ تلقى هوىً من نفسه حتى إذا جربها ، عافها وسعى وراء غيرها .

أما الفرد دي موسيه فقد ولد في باريز سنة ١٨١٠ إبان العهدالرومانتيكي من أب موظف مثقف ، وأم حسنة الحال ، وبعد دراسة موفقة فيالمعاهد الثانوية شرع في دراسةالحقوق ، ثم الطب ، واتتهت به الأحوال الى العمل في إحدى

محلات التعهدات البنائية ، ثم اهتدى موسيه أخيراً الى طريقه فعاشر كبار أدباء زمانه وفي طليعتهم فيكتور هوغو ، فنظم الشعر ونالت مقطوعته الأولى « الحُلُم » رواجاً عظيماً لفت الأنظار الى هذا الشاعر الحَدَث ، ثم تتابعت آثاره من شعر وقصص وتمثيليات وتراجم عن الأدب الانكليزي فكان من أشهرها : اعترافات فتى العصر التي عربها فيلكس فارس « والليالي » الاربع التي عبر بها عن آلام قلبه الجريح فكلُّ ليلة من الليالي تعيِّن مرحلة من حياة موسيه وتجاربه العاطفية وأذكر على سبيل المثال لمن شدا من الأدب الفرنسي شيئاً بالليلة الاولى ، وهي ليلة مايس التي تدعوه فيها آلهة الشعر الى معاودة العزف على عوده بعد أن زهدت نفس الشاعر في الانشاد معددة له المواضيع التي تصح ان يجعلها مادةَ وحيه ، فيمتنع الشاعر عليها فتقول له الآلهة العبارة المشهورة : « لا شيء يجعلنا كباراً سوى الآلام الكبيرة » كما « أن أجمل الاناشيد هي التي تصدر عن اليأس » وتذكر له اسطورة البجعة التي بقرت بمنقارها بطنها لتُطعم صغارها أحشاءها •

ومات موسيه في السابعة والاربعين سنة ١٨٥٧ •

كان موسيه ذا طبيعةٍ حادة ، متناقضة ، قلقة قد تصل به الى حدود الجنون وإضاعة التوازن والتماسك النفسيين، كان جميلَ المظهر، ذا أناقةأصيلة منقطعة النظير كأنها عطية" آلهية حتى عُدَّ في زمانه في طليعة الشبيبة « الانيقة المُذهبة » ، وكان دأبه مطالعة الناس بالغرائب ، ومفاجأتهم بأناقة ملابسه ، وغريب حركاته ، هذا مع ولع بالسهرات الصاخبة ، والمراهنات العجيبة وكل ما من شأنه احداث الجلبة واللغط في المجتمع • وكان موسيه مَزّاحاً ، لاتفارقه

النكتة في أكثر الاوقات حرجاً . طلعة الى ابعد حدود التطلع ، يقرأ كل شيء ويهتم بكل شيء .

وصفه أحدهم في أول نشأته فقال : « كان شاباً غرانق ، ينسدل شعره على كتفيه ، له جبهة تنمّ عن الذهول اكثر منها التفكير ، وعينان حالمتان أكثر منهما مضيئتان ، وقامة ممشوقة فيها تثنٍ ، يخيل للناظر أنها تنوء في سن مبكرة تحت ثقل شبابه الغض العنيف ، كل هذا مدعوم بجاذبية تفعل فعلها في وسط عجّاج باللهو والتهتك والنساء والشعراء ، ووصفه سانت بوف فقال : « هو الربيع ذاته ، ربيع الشعر يتفتح أمام أعيننا » .

كان موسيه عبقرية مبكرة ، دخلت الحياة كالسهم الناري دون استعداد أو نضج فاراد التهام لذائذ الحياة التهاماً ،حتى أصبحت الملذات عنده ضرورة حيوية مما أدى به الى الايغال في الشذوذ مدفوعاً بزهوة العمر ومنّة الشباب ، وإقبال الدنيا ، وكان في سلوكه أول الامر شيء من التكلف والقسر والمباهاة فلم يكد يتوسط ميدان الشباب ويقف على عتبة العشرين حتى استنفذ ما عنده من حيوية ، فجفت شاعريته ، وعصت عليه قريحته، فوجدت المهيجات والمكيفات والمخدرات الحسية والمادية طريقها اليه فأدمن الخمرة عله يجد في قعر الاقداح أو رغوة الشمبانيا أو بخار الأفيون أو النساء دوافع تعوض ما استعصى عليه في الطريق السوي ، حتى صار كالمريض الذي يُرغم نفسه على تناول الدواء فكان يشرب حتى الثمل وفقدان الوعي . قيل إنه كتبت اليه احدى قريباته وهو فيحالة جفاف وتبلد وعطالة تدفعه الى نظم الشعر فأجابها « أرسلي لي نبضة من نبضات قلبك فسأردها إليك » .

وكانت الحياة المضطربة الفوارة التي كان يحياها سبباً في تبديد نفسه ، وهدر مواهبه ، فصار شعرُه يأتيه متقطعاً في شكل نوبات فجائية ، فاذا واتته القريحة وانقاد شيطانه أتى بالسحر الحلال ، وإلا حلت العربدات والمخاصمات وتحطم الاقداح ، والبكاء وجميع مظاهر الهذيان ، وما أكثر ما كان يهدد السماء بقبضتيه ، ويخاطب القمر شاتماً، في حالة عصبية يعلو الزبدُ فيها شدقيه!

إن من شأن ذوي الاعصاب المنهارة ، التأرجحَ بين حالتين متناقضتين : صحوٍ وغيم ، فهو تارة طيب ، ساذج ، متواضع لطيف المعشر تهزه أتفهُ الحوادث ، وتارة شيطان ضعيف الارادة، شرس متكبر ، مستبد ، ولا نجد فيه صفة طيبة إلاّ ولديه نقيضها وكذلك كان موسيه •

ثم إن من صفات العاطفة العارمة ، والاندفاعات الجنونية ان تستنفد بسرعة السائل العصبي ، قوام حياة الانسان الروحية والمادية الذي يبقى عند أناس آخرين في حالة صيانة او كمون مدة طويلة ، ولذا كانت علاقة موسيه بعشيقاته قصيرة لم تدم أكثر من ستة أشهر ، وبعضها لم يتجاوز اليوم ونصف اليوم •

ذلك هو الرجل الذي وضعته الاقدار في طريق جورج صاند ، فقد علقته لما آنست فيه من صفات الضعف ، وكان هو يعرف ذلك فحاول استغلال هذه الصفة على أنها ناحية من نواحي عبقريته ، داعماً اياها بالدلال والاندراء والزهو ، حتى اذا انتصر بضعفه أراها الوجه الثاني من نفسيته ، فانقلب الى مستبد ، قاهر ، جبار يسومها العذاب والهوان ، وكانت صاند تحتضن هذا الفتى المتمرد برعاية وصبر ، فكانتِ الرجلَ هذه المرة أيضاً ! ان علاقة موسيه

بجورج صاند من الحوادث التي اثرت في حياته فنجد صداها في آثاره ، وكان ، وهو المحتاج دوماً الى الهزات يتساءل قبل تعرفه عليها : « أشعر أنه ينقصني شيء لا أدري ما هو ؟ أحبٌ عظيم ام مصيبة كبرى ؟ ام كلاهما معاً ؟ فلم تحرمه الاقدار من الاثنين •

ويظهر ان الجواذب بينهما تنحصر في تشابه الأذواق ، واعجاب متبادل اكثر منه هوىً حقيقي ، على أن نواحي الخلاف اشدُّ واعمق وأهمها : المزاج فقد كان لكليهما « شعور نسائي وطريقة رجالية في التنفيذ » • وفارق السن : اذ كانت تكبره بسبع سنين • واختلاف العواطف السياسية والخصائص الفكرية التي يستحيل معها التفاهم ، فهي ثورية ذات نزعة جمهورية اشتراكية ، وهو محافظ شديد التمسك بالنظام الملكي •

غير أن صاند التي اتعبتها الخيبات العاطفية المتتالية ، وارهقها تبدل عشاقها كانت تعاني يومئذ ازمة عاطفية ، زد على ذلك خشيتها من الوحدة والانعزال ، فوجدت في مزاج موسية بلسماً لجراحها وبصيصاً من نشوة تخفف عنها من وطأة الماضي ومرارة الحاضر •

لقد كانت تثق بالناقد سانت بوف وتركن اليه في الزعازع والأهوال مستشيرة تارة ، ومفضية اليه بأسرارها تارة اخرى ، ولما افهمته أنها في حالة فراغ عاطفي أراد أن يرشح موسيه لملء هذا الفراغ ، فأجابت بعد ان ترامت اليها اخبار مجونه وتهتكه : « انه شاب مستهتر ، ولا نصلح لبعضنا » هكذا شاءت هذه المرأة ، وشاء القدر غير ذلك •

ولما دعيت الى الحفلة التي اقامتها مجلة « العالمين » لمحرريها لقيت موسيه،

فأعجبت بسذاجة هذا الغلام ، وقد استطاع موسيه بخفة روحه ان يزيل سياج الحيطة التي اعتصمت وراءه ، حتى إنه اضحك صاند الصامتة ، الشاردة النظر، القليلة الكلام ، اما هو فقد بهرته هاتان العينان اللتان ترمقانــه خلسة بنظرات استفهامية اختبارية، كما سحره لون بشرتها الاسمر ذي الانعكاس البرونزي ، مما أثار فيه رغبات دفينة .

لم يضع موسيه وقته بل عمد بعد رجوعه الى منزله الى قراءة قصتها « اندیانا » وكتب اليها رسالة انتقد فيها القصة بلهجة جريئة فيها تهكم ودعابة قضت على ما تبقى من الحواجز وشيدت مكانها نوعاً من الألفة السليمة والعلاقة الأدبية ، ثم اعقب ذلك رسائل كثيرة تمكن فيها موسيه ان يدغـل في قلب صديقته دغلة المريب تذكرنا بقول ابن الرومي :

لك مكر يدبُّ في القوم أخفى   من دبيب الغذاء في الاعضــاء

وفي يوم من الايام تلقت الرسالة الآتية : « عزيزتي جورج : لدي شيء سخيف أريد البوح به ، إنك سوف تهزأين مني ظناً منك اني رجل أحســن تنميق الكلام كما توهمت منذ بدء علاقتنا ، وإنك لن ترددي بطردي اعتقادا منك انني كاذب ... إني احببتك منذ اليوم الذي كنت فيه عنـدك ، وكنت أنوهم انني سوف ابرأ مما أصابني بسهولة في إعتبارك صديقة فحسب ... إنك ستقولين : « هاهو ذا رجل آخر جاء الآن يضايقني ، إنني أعلم ما يجول في خاطرك عني إني لا آمل شيئاً من وراء اقوالي هذه ، ولا يسعني عندئذ إلا التسليم بفقد صديقتي ولكن الحقيقة أنني أتألم وأن قواي تخذلني » !

ترددت المسكينة ، وقد حرص مؤرخو الادب على تصويرها كأمــرأة

رجلة ، تجيد فن اختطاف الشبان ، أو كغول تلتهم شبابهم الغض الطري ، وهي التي لم تتعد غايتها التسلية والهرب من نفسها وواقعها مع من توسمت فيهم الكمال ، فمنحتهم عطفها المكبوت ، وحنانها الفائض وكان اكثر ما صدها عنه ترامية على الملذات وسوء رأيه في المرأة اليس هو القائل : « إنني أحب النساء جميعاً ، واحتقرهن جميعاً » ثم ان الحب الذي تصبو اليه حب عميق ، ثابت الاركان ، واذا لم تخلص لمن عرفتهم في حياتها العاطفية فمرده الى الخيبة واليأس المسببين من الطرف الآخر .

وكأن موسيه ادرك مواطن الضعف فيها فكتب اليها رسالة مطولة ختمها بالعبارة التالية : « الوداع يا جورج إني أحبك كما يحب الطفل » .

كالطفل : هذه هي الكلمة التي أصابت منها مقتلاً ، هل اهتدى الماكر الى المفتاح الذهبي الذي يفتح قلبها الرجراج المتمرد ، إذ لم تكد تصل الى هذه الكلمة حتى سرت فيها قشعريرة ، فضمت الرسالة الى صدرها بيدين مرتجفتين ، وصارت تدور على نفسها قائلة : « كالطفل ، يحبني كالطفل ! رباه ماذا يقول هنا ؟ هل درى مقدار الأذى الذي رماني به ؟ »

حتى اذ لقيته ثانية تضرع إليها باكياً مسترحماً فلم يسعها الا الاستسلام ، وبعد زمن عندما وقعت الواقعة بينهما قالت له : « لولا شبابك ، والضعف الذي اوحت به دموعك الي لظللنا كأخ واخته . »

كتبت لسانت بوف تصف حالها في رسالة : « إنني سعيدة يا صديقي ، لقد تجنبته في باديء الامر ثم رجعت عن عزمي ، فعلت ذلك بدافع الشفقة لا الحب!

إن الحب الذي أجهله قد تجلى لي منزهاً عن الالآم التي أخشاها • » وكتبت أيضاً : «كل يوم ازداد تعلقاً به ، وإني الحظ الصغائر التي تؤلمني فيه تختفي رويداً رويداً » •

وفي الحق فقد كانت اول الأمر سعيدة مع هذا الطفل (تلك الكلمة التي كانت تلفظها مشحونة بحرارة الأمومة) حتى إنها استعادت فرحة شبابها ، فعم بيتها المرح والضحك ، فكان موسيه ينشر بأضاحيكه وعبثه البهجة في كل مكان ، تنكر مرة بزي خادم وحمل صحون الطعام الى الضيوف فانقلب إناء الماء على رأس احد المدعوين الفيلسوف ليرمنيه حتى كاد يشجه ، وكانت صاند تحب هذه المداعبات فهي ، كئيبة بطبعها ، ولذا كانت بحاجة الى هذا النوع من المرح العنيف، ودأب الطرفان حين يكتشف احدهما الآخر على ان يعرض كل منهما في عفوية ولا مبالاة امام صديقه ما اختزنه في نفسه ليفوز بثقته واعجابه تمشياً مع فرحة اللقاء الاول ، ولذا عم دار صاند مرح عظيم فقد توفر كل شيء، حياة حرة ، وألفة ، وأمل صاعد ، وهل بعد هذه الحياة امل في حياة أسعد وأكمل ؟

كانت من أماني كل أديب في ذلك الزمن أن يزور ايطاليا كما قدمنا ، حتى إن موسيه تغنى في قصصه باسبانيا وايطاليا دون ان يشاهد هذين البلدين ، وكذلك كانت صاند تحن لتلك البلاد الجميلة ، آملةً أن تجد في السفر والاغتراب تجدداً ، فرحلا في اوائل شتاء سنة ١٨٣٣ ، وكانت صاند ترتدي لباس الرجال ، وتبدو عليها مظاهر الفرح فزارا في طريقهما مدينتي ليون وآفينيون ، ثم مرسيليا ومنها ابحرا الى جنوى • وكان موسيه يُرى على

الباخرة متلفعاً بردائه يشكو دوار البحر ، اما صاند فشوهدت ويديها في جيوبها واللفافة في فمها تنظر الى رفيقها الذابح نظرات لا تخلو من استعلاء ، إن لم نقل من رثاء ، وكان موسيه يشكو من صاند صلابتها ورجولتها وانكماشها عنه الى حد البرودة ، لأن هذه الرحلة الشعرية لم تحل دون انشغال صاند بعملها الادبي المتواصل المنظم ، والانقطاع كل يوم ثماني ساعات في الليل تقضيها في الكتابة والتأليف ، وما أكثر ما كانت تغلق بابها بالمزلاج غير عابئة بتوسلات الشاعر المسكين ، وتلك ظاهرة عجيبة لم يكن يدركها موسيه بل كان يرى بصفته رجلاً ان مصير صاند المرأة في يديه يصرفه كيف يشاء ، ولكن مصير صاند لم يكن في يديه مما أدى الى طعنه في كبريائه ، فغدا شرساً سيء الطبع ، وصار يدعوها « الملل المجسم ، والمرأة الحالمة المتوحشة ، والراهبة الباردة وأنها ــ وتلك اعظم سبّة وجهها اليها ــ اعجز من ان ترضي الرجال » ، وفي جنوى اصيبت صاند بالحمى ، والشهوة والمرض شيئان لا يجتمعان ، ولا يرضيان الرجال بحال من الاحوال ، فكان موسيه ينفر من الفراش الساخن بنار المحمومة ،الى دور الدعارة والشراب والنساء الرخيصات ، وكان يقول على مسمعها بشيء من التقزز : « ان منظر المرأة المريضة لمحزن ، وباعث على السأم والاشمئزاز » ، وصار ينزع الى استعادة حريته لأن في التغير تجديداً ، وان المفن لم يخلق للاستعباد والأسر، ويظهر أن من شأن المرأة القوية الارادة،المالكة نفسها اقلاق الرجال وازعاجهم، اذ تظل فيهذه الحالةشاهداًواعيا علىتصرفاتهم، في حين ان الرجال يبغون من وراء الحب نسيان انفسهم ، ولم يكن غرض موسيه إخضاع صاند وإذلالها ، بل كان يريد اشباع غريزة التملك الكامنةفيه،

تملك هذه المرأة التي اعترفت بنات جنسها بحرية أن سيدهن الرجـل ، والتي تأبى ان يملك قيادها احد" سواها •

كان الوصول الى فينيسيا التي كانت تسميها صاند من قبل : « فينيسيا الحمراء ، ومدينة الاحلام الفريدة من نوعها في الدنيا » والتي تصورها موسيه قبل أن تطأها قدماه « مدينة الرهبان الأنيقين ، والراقصات والحب والجنون » والتي قال فيها عن لسان احد ابطاله : « لنعش ونموت هنـا » أقول : كان الوصول الى فينيسيا كئيباً ، والوقت ليلاً ، وكان الجندول الأسود الـذي اقلهما يشبه نعش الموتى ، ولما دخلا المدينة وسطعت أشعة القمر الباهتة الحمراء على كنيسة القديس مارك بقبابها الصاعدة في السماء بدت كأنها بنيت كلها من الرخام الابيض ، وخيل إليهما امام القصر الدوقي بتقاطيعه الهندسية العربية ، وابراج اجراسه المسندة بألوف العواميد المشوقة أنهما امام لوحة فنية رائعة ، حادة الألوان ، ولم يدم استمتاعهما بمناظر فينيسيا في المساء لأن الحب هـو الذي يجمل الدنيا ويخلع على المناظر والمدن الروعة وليس جمال المدن والمناظر هو الذي يخلق المحبة او يغير القلوب • وفي المساء عندما حلا في فندق «دانيلي» اشتد أوار الخلاف ، وكادت صاند تحزم متاعها وتعود من حيث أتت لولا أنها كانت مريضة • فلم يترك موسيه الضجور الصخاب مظهراً من مظهر أنانيتـه وسوء خلقه إلا أظهره ، وما اكثر ما ابكى تلك العينين السوداوين ! ويقـول انصار موسيه إنه نفر منها في باديء الأمر بدافع الملل لأنها كانت ـ وهذا دأبها مع عشاقها ـ تعامله معاملة الأم لولدها الصغير وتزوده في كل مناسبة بالنصح والارشاد خيفة عليه من تهوراته واندفاعاته الجنونية ، ثم تحول الملل الـى

اشمئزاز سواء لأنها مريضة ، او لأنها كانت تريد بانزوائها عنه اخفاء كرهها له بلباقة ، فلم يكن لموسيه بد من الاستسلام للتهتك والغوص في أعماق حانات فينيسيا الحمراء حيث تفوح رائحة المياه الراكدة ، وأنواع الكحول الرديئة .
وكانت صاند جرياً على عادتها في الحفاظ على اصدقائها وصيانة مواهبهم من الضياع تدعو رفيقها الى الارعواء والتزام العفة والكف عن غلوائه ، وما أكثر ما كانت تنتظر عودته وحيدة لا يؤنسها سوى طقطقة مياه القناة على درج المنزل، ودبدبة اقدام الحراس ، وصيء الجرذان الحاد المنتشرة على ارض الميناء ، إنها لأصوات خفية غريبة تعكر صفو ليالي فينيسيا ! وفي أحد الأصباح عاد موسيه الى النزل ملطخاً بالدماء في احدى المشاجرات ، وما لبث ان انتابته نوبة عصبية ناشئة عن حمى دماغية ، او تيفوئيدية قديمة ، فكان منظره فظيعاً ، فقد روت انه كان ينهض في هذيانه عارياً ، فيركض في الغرفة صائحاً أو باكياً ، ولم يستطع رجلان شديدان كبحه إلا بصعوبة ، ثم يرتمي بعدها خائر القوى في إعياء تام . خافت صاند ، إذ قد يلقى موسيه حتفه ، فماذا تكون مسؤوليتها بل ماذا تكون خاتمة هذه الرحلة التي علقت عليها الآمال ؟ فاستدعت على عجل الطبيب باجللو وقصت عليه الحادثة مستعطفةً انقاذ صديقها .

وقد اظهرت صاند عطفاً على المريض منقطع النظير ، وجلداً يندر وجوده ، على الرغم من توزعها ، والضيق المالي الذي تعانيه ، حتى تفتقت حيلتها لسد هذا النقص عن اشياء عجيبة : قالت تشكو : « هاهو ذا قد مضى عليَّ ثمانية أيام ولم أخلع ثيابي ، أنام على المقعد ، وكان عليَّ في كل ساعة أن أكون على تمام الأهبة لتلبية نداء مريضي ! » وفي تلك الدقائق الحاسمة التي تجمع فيها الحقد

والملل واليأس ورواسب أخرى عزمت صاند على الخلاص من هـذا المستبد الذي لم يرع للوفاء والحب عهداً واستبداله بغيره • فكان الطبيب باجللو ! كيف تمّ هذا الانتقال ؟ قالوا : إنه في ليلة من ليالي الشتاء الطويلـة كتبت صاند ثلاث صفحات من نثرها البديع وتناولت مغلفاً ووضعت فيه المكتوب ودفعته الى باجللو ، ولما لم يقرأ هذا عنواناً على الغلاف فهم أو تظاهر بعدم الفهم ،فسألها الى من يجب ايصاله ، وعندها انتزعت المغلف من يده وكتبت عليه : « الى السخيف باجللو ! » ومما جاء في الرسالة قولها : « ولما كنا ولدنا تحت سمائين مختلفين ، فليست لنا إذن ذات الافكار والتصورات واللغة ، ولكن هل لنا قلبان متشابهان ؟ إنني اعرف كيف أحب وأتألم ، اما أنت فكيف تحب ؟ إن نظراتك وحمية رغبـاتك تغريني وتخيفني في آن واحـد ، انني لا استطيع مقاومة هواك ، كما لا استطيع مشاطرتك إياه ، ولذا ارقبك بتعجب وشوق وقلق ! » •

ثم اعقب ذلك اسئلة متنوعة انتهت بهذه العبـارة « اني احبك لانك تعجبني » !

وكتبت اليه مرة : « وا أسفاه لقد تألمت كثيراً ، لقد جهدت في التفتيش عن الكمال دون العثور عليه ، هل أنت يابيترو الـذي سيحقق احلامي ؟ » •

وهنا حق لنا التساؤل عن سر هذا التحول ، كما تساءل من قبلنا النقاد ومؤرخو الأدب ، فانقسموا الى فريقين يناصر كل منهما من يعتقد أن الحق بجانبه ، ونحن اذا فرضنا أنه يمكن أن نعرف ما يدور في رأس المـرأة ، ومـا تنطوي عليه نزواتها الفجائية ـ وهذا من الصعوبة بمكان ـ نستطيع على ضوء

الحوادث القول : « إن امنية الأماني عند صاند التي اصبحت في حل من موسيه أن تظفر بحب كالي ، مقيم ، وجدت في باجللو ، الشاب الجميل ، القوي البنية « الذي تصعد العافية من قلبه الفتي الى وجهه النضير » ضالتها المنشودة ، ثم إن وجودها في فينيسيا وحيدة ، غريبة في عشرة شاب شبه مجنون يزيد في متاعبها جعلها تشعر أنها بحاجة الى سند اختلط عندها في غمرة القلق واليأس والذعر مع فكرة الحب، ثم إن السهرات الطويلة امام سرير المريض، والقلق المتبادل بينهما عليه قرب بين الرجل والمرأة ، والتعب كما يقولون خير وسيط . زدْ على ذلك في النهاية عمل الخيال لأن صاند ارادت ان تعوض بشخص باجللو ما حرمته من الاستمتاع بفينيسيا فأنابت التجربة العاطفية عن المتعة الشعرية ، فكأن جمال ايطاليا ومفاتن فينيسيا قد تقمصا شخص باجللو الايطالي .

ماذا كان تأثير الرسالة على باجللو ، الرجل الحييّ ، الخجول ، الذي لم يحلم يوما ان ترفعه صاند الى مستواها ، يجيب هو نفسه قائلاً : « نعم ! إني لا أنكر بأن عبقرية هذه المرأة قد سيطرت علي واذابتني ! فاذا كنت أحببتها أول الامر فان حبي لها زاد بعد قراءتي الرسالة ، وكنت مستعداً للجود بما لدي لكي أراها عندئذ وارتمي على قدميها مقسما بالحب الخالد ، هيهات لقد فات الأوان فظللت امام الرسالة أقرأها اولاً وثانياً وبذات الحماسة ، غير أن بعض الجمل قد أيقظت فيَّ عند القراءة الثالثة شعوراً غامضاً مراً احسست أنه يصعد الى رأسي من اعماق قلبي !

لقد عصفت هذه الرسالة بقلبه الواهي ، فزالت معها حياته المطمئنة الهادئة

هدوء مياه القناة في فينسيا ، ، وأحس باجللو مرة اخرى على شاكلة الغزاة الغالبين من الرجال بانكسارهم أمام المغلوبات من النساء !

هل درى موسيه بالأمر ؟ ماذا عرف عن هذا التحول ؟ لقد كان يتقلب على فراش المرض في بحران الهذيان والحمى ، حتى اذا عاودته فترات صحو، رأى أو خُيِّل اليه ، امرأة جالسة في حضن رجل في وضع مريب ، او رأى على الطاولة فنجاناً واحداً للشاي شرب منه الرجل والمرأة ، وزعم آخرون أن موسيه شاهدصاند يوماً تكتب رسالة توهم انها لباجللو، ولما اصر على ظنه هددته بارساله الى مستشفى المجانين ، وأنها قذفت بقطع الرسالة الممزقة من النافذة ، حتى اذا طلع الصباح نزلت صاند بلباس النوم الى الشارع تلتقط الجزازات المبعثرة !

والواقع أن دخول باجللو للميدان قد خلق لصاند عالماً جديداً لم يعد لموسيه فيه مكان ، لأنه اساء إليها وطعن في انوثتها وكبريائها ، فلتجعلنه إذن فريسة للغيرة الآكلة تلك الغيرة التي تنشأ عند الشخص الثالث عندما يأنس وجود تواطؤ بين اثنين أقصي عنه ، الى اليوم الذي يصطلح فيه المتخاصمان فيقصى باجللو بدوره فيذوق ما ذاق غيره .

لقد كان باجللو وسط هذا الجحيم يقوم بالنسبة لصاند بدور المنقذ ، يشد أزرها في حالات اليأس ، وتتكيء عليه لمقاومة المتاعب والعوادي . ألم تكتب فيما بعد في مذكراتها : « ياالهي ارزقني العزم الذي اعطيتنيه في فينيسيا، أعد إليَّ حب الحياة الذي لازمني وسط افظع حالات اليأس ! » .

لقد علم موسيه بالحقيقة ، فلم يجد بداً من الفرار من فينيسيا المشؤومة ،

وعلى الرغم من الثورات الغضبية والتهديد بالقتل والحجز في مستشفى المجانين ، والمحاولات اليائسة للتوبة والندم واستعادة الحياة القديمة ، فقد خيم على الشاعر قبل رحيله سكون عجيب ، فكأنه لحظ هفواته ، وادرك عظم خطيئته فعزم على التضحية بنفسه ، فكان حينئذ اكثر اخلاصا وصدقاً من أي وقت مضى ، ففي ساعة من ساعات اليأس ، وبدافع من الجود والتسامح وضع موسيه بملء اختياره صديقته صاند وديعة بين يدي باجللو ، اعتقاداً انه الوحيد الذي يستطيع حماية هذا القلب المعذب الجريح . وقبل رحيله تواجد الثلاثة وجداً قوياً وبكوا وتعانقوا معتقدين على الطريقة الرومانتيكية أن الصداقة أجدى من الحب وأسلم عاقبة .

رحل موسيه الى باريز ، وبعد أن شيعته صاند وعانقته عناقاً اموميـاً ، عادت الى فينيسيا لتسكن مع باجللو داراً صغيرة عاشت فيها خمسة شهور في عزلة ، موزعة اوقاتها فيها بين التأليف والعمل المنزلي وكان موسيه اثناءها لا يفتأ يراسل صديقته صاند شاكياً يأسه ، مداويا جراحه ، قارئاً آلام فرتر وغيرها من المآسي الرائعة التي سخر منها فيما مضى ، آخذاً العدة لكتابة قصة حية الفت فيما بعد كتاب « اعترافات فتى العصر » .

أما صاند فقد كانت حياتها مع باجللو الهادىء الرزين ، البطيء الذكاء حياة باهتة تسير الى غاية من الملل ، لأن باجللو الذي تعلق بها دون أن يصعد الى النجوم كان بعيدا عن الشقاء ، غير متعب ، راضياً عن حياته كل الرضا ، فليس لها أن تحنو عليه وتعمل لاسعاده ،فهي كما قالت عن نفسها بحاجة الى التألم من أجل انسان ، كما أنها بحاجة الى صرف الفائض من شعورها

وإحساسها • وفي شهر تموز من سنة ١٨٣٤ عادت الى باريز وصحبها باجللو في هذه الرحلة وهو يعلم في قرارة نفسه أنه سيعود دونها ، ولم يسؤه في قرارة نفسه أن يتخلص منها ومن الشعور بالخطيئة نزولاً عند إصرار أسرته وأهله وأمه التي نصحته قائلة : « إذا صادفت يا بني في الحياة مظاهر تتنافى والقواعد الاخلاقية التي لقنتكها فاجتنبها لانها ستجعلك شقياً » •

ولما وصلا استقبلهما الباريزيون بالنقد والتجهم ، وكان أصدقاء صاند ومعارفها ينتظرون أن تجلب لهم شاعراً أو اديباً أو فناناً جرياً على عادتها في انتقاء عشاقها ، وأما أن تختار هذا الايطالي الركيك ، الكهام ، فهذا شيء غير معقول • فعاد • باجللو الى فينيسا بعد ان عاهد نفسه على الماضي، فتزوج ورزق أولاداً ومات بعد أن نيّف على التسعين محاطاً بالذكريات يقصها على أولاده واحفاده ، وبهالة من المجد قرنت اسمه الى كوكبين من كواكب الأدب •

وبعد سفر باجللو جرب صاند وموسيه الصلح والحب الافلاطوني فكان كل ذلك تافهاً حقيراً وما زالا في مدٍ وجزر حتى وصلا الى القطيعة النهائية ، بعد أن حاولا عبثاً تحريك الرماد وبعث الجذوة الخامدة •

وقد تركت هذه الحادثة التي لم يخطىء أحدهما فيها إلا ببقائه كما هو أثراً عميقاً في نفسي البطلين اوحت اليهما بروائع هي صدى للمحزونين والتعساء الذين شقوا بالحب واكتووا بناره •

وكانت كلما نكأت الذكريات جرح الشاعر صاح بملء فيه :

يجب أن نألف الوحدة •

أيها القلب المعذب الذي يكاد يغفر جرحه
والذي لم يجد الحب ، بل أجاد الألم •

ليلة مايس

ظلّ الشاعر صامتاً منذ مفارقته جورج صاند ، وإذا به يشعر في شهر مايس من سنة ١٨٣٥ ان « ثمّ شيئاً في نفسه يودّ الانطلاق » • فكتب في ليلتين ويوم وسط دافع حماسي شعري «ليلة مايس» التي تعدّ من اشدّ قصائده تأثيراً وأروع جرح صدر عن قلب فتيّ طفحت كأس عواطفه » • إن الحوار بين آلهة الشعر والشاعر انتقال للمشادة بين عبقرية موسيه الحسّاس بنداء التجديد وقلب الرجل المخدوع في حبه والذي اضلّه شقاؤه • ألم يقل موسيه نفسه : « إن اكثر الأغاني جمالاً اكثرها اغراقاً في اليأس ! »

الليالي ...

ترجمة : ماجد خير بك

آلهة الشعر ــ لايراها الشاعر ولكن يسمع صوتها ــ
أيها الشاعر ! خذ عودك ، وأعطني قبلة ،
ان زهرة النسرين تشعر بأن براعمها تتفتح •
في هذا المساء ، يولد الربيع ، وقريباً تحترق الرياح •
لقد حطّ العصيفير الصغير ، منتظراً الفجر
على أوليات الأدغال الخضراء •
ايها الشاعر ! خذ عودك وأعطني قبلة •

الشاعر

ما أشد كثافة الظلام في الوادي !

خيل إليّ أن شكلاً مقنّعاً
يتموّج في الغابة ،
لقد خرج من المرج ،
تلامس ساقه العشب المزهـر
إنه لحلم غريب
(ولكنه) يمّحي ويختفي •

ربـة الشعر ــ الصوت اكثر ثباتـاً ووضوحاً وحرارة ، وبـدأ قلـب الشاعر يخفق ــ

ايها الشاعر ! خذ عودك ، فالليل على المرج الأخضر
يداعب النسيم بملاءته الفِطرة ،
والوردة ، لم تزل عذراء ، انها تنطق ، غيرى
على الزنبور المزركش فيموت من السُّكر • (من عطر الوردة)
إصغِ ، كل مافي الطبيعة ساكت ، فكّر بحبيبتك •
في هذا المساء ، ترك الغروب وداعاً أكثر لطافة :
تحت الزيزفونة القاتمة الاغصان •
كلٌ يُزهر في هذا المساء ، والطبيعة الخالدة
تمتليء بالعطر والحب والهمسات ،
مثل سريرٍ هانيءٍ يضمُّ زوجين شابين •

الشاعـر

لماذا يخفق قلبي بسرعة ؟

وما الذي فيَّ يرتعش
فينتابني منه الذعر ؟
الا يُقرَع بابي ؟
ولماذا مصباحي المحتضر
يُبهرني بضيائـه ؟
يا الهي القدير ! كل جسمي يرتعش
من يأتي ؟ من يناديني ؟ لا أحـد .
أنا وحدي ، انها الساعة تدق :
يا للوحدة !
ربة الشعر ـ تُلِحّ وقد عرفها الشاعر واستقبلها ـ
أيها الشاعر ! خذ عودك ، ان حمرة الشباب
تختمر ، هذه الليلة في عروق الإلـه . (١)
ان ثديبي قلِقٌ والشهوة تعتصره ،
والرياح الحرّى ألهبت شفتيّ .
أيها الولد الكسول ! انظرْ ، إنني جميلة ،
الا تتذكر قبلتنا (٢) الأولى
وذلك عندما رأيتك شاحباً جداً ، بلمسة جناحي ،
وعندما رأيت عينيك مغرورقتين بالدمع .

---

(١) الطبيعة وابوللون ـ إله الشعر ـ واحدٌ في نظر الشاعر .

(٢) قبّلته بجناحيها

فسقطتَ وقتئذٍ بين ذراعيّ •
آه ! لقد عزّيتك في تألمك المرير (٣) •
واحسرتاه ! مع أنك كنتَ بعدُ صغير السنّ وكدتَ تموت حباً •
عزّني هذا المساء ، انني اموت في الأمل ،
وإنني بحاجة لصلاة كيما اعيش حتى الصباح •

الشاعـر

هل انتِ التي يناديني صوتها
يا ربتي المسكينة ! أنت !! ؟
يا زهرتي ! يا مخلّدتي !
أنتِ الشخص الوحيد المخلص الحيّ
الذي ما زال يُحبني •
أجل ، إنك أنتِ ، يا شقرائي !
انت ، يا عشيقتي ويا أختي !
انني اشعر ، في هذا الليل العميق
ومن ثوبك الذهبيّ الذي يلفّني ،
أشعر ، بالأشعة تتسرّب الى فؤادي •

ربة الشاعر ـ في هذه المقطوعة الرائعة تعلمنا ربة الشعر ان جميع انواع الشعر فن يكتبه الشاعر الأصيل لا المفكر المتفلسف ـ

---

(٣) حبه الاول

ايها الشاعر ! خذ عودك ، هُو َأنا ، مخلّدتك
التي رأتك ـ في هذا المساء ـ حزيناً صامتاً ،
والتي ـ مثل طائرٍ تدعوه فراخه ـ
نزلتْ من علياء سمواتها لتبكيَ معك .
تعال ، إنك تشكو ، يا صديقي ! وبعض السأم الغريب
ينهشك ، ان شيئاً ما يتأوّه في قلبك ،
لقد أصابك حبٌ ، وكما ترى امثاله على الارض فإن الحب
ظِلٌ من اللذة ، ظاهر من السعادة .
تعالَ ، لِنُغَنِّ أمام الله ، لِنُغَنِّ في افكارك
في لذائذك الضائعة وجهودك الماضية .
لنسافرْ في قبلةٍ نحو عالمٍ مجهول ،
ولنوقظْ ـ كيفما كان ـ اصداء حياتك ،
لِنَتحدّث عن السعادة ، عن المجد ، عن الجنون ،
وليكن حُلماً نستقبله كأول قادم ،
ولنخترع في مكان ما ، مواضع ننسى فيها سريعاً .
لنرحل ، نحن وحدنا ، الكون لنـا .
ها هي ذي إيكوسيا(١) الخضراء وايطاليا السمراء
واليونان ـ أمي ـ حيث العسل الشهيّ ـ
قل لي : أي حلمٍ ذهبيٍ تهدهده اغانينا !

---

(١) ايكوسيا : اسكتلندا

ومن أين البكاء الذي نسكبه !
في هذا الصباح ، عندما يداعب النهار جفنيك
فأي ملاكٍ مفكّرٍ منحنٍ عند رأس سريرك
يهز أزاهير الزنبق في ثوبه الرقيق !
ويقصّ عليك بصوت منخفض حبّه الذي كان يحلم به !
ألا تغنّي الأمل ؟ ألا تغنّي الكآبة ؟ ألا تغنّي الفرح ؟
ألا نلطخ بالدم الفِرَقَ الفولاذية [١] ؟
ألا نعلّق الحبيب على سُلّم من الحرير ؟
ألا تُلقي الى الرياح الهوج زبد الفارس ؟
ألا نقول : أيّةُ يدٍ اشعلت ــ ليل نهار ــ
المصابيح التي لا عداد لها في البيت السماوي
من زيت الحياة المقدّس ومن زيت الحب السرمدي
ألا نقول لتاركان [٢] : حان الوقت ، ها هو الظل ؟
ألا ننزل الى أعماق البحار كي نقطف اللؤلوءة ؟
ألا نقود الماعز الى شجرة الابنوس المرّة [٣] ؟
ألا نشيرُ الى سماء الكآبة ؟
ألا تتّبع الصيّاد في الجبال الوعرة

---

(١) اشارة الى اغاني الحب

(٢) اغاني الفلك والفلسفة

(٣) اغاني الرعاة وراء قطعانهم .

والوَعِلَةُ تنظر اليه وتبكي وتسترحمه ؟
ان عُشبَها ينتظرها كما ينتظرها أطلاؤها القريبةَ الولادة
ولكنه ينحني ويقتلها ويلقي قلبها ــ الذي لم يزل يخفق ــ
كحصّةٍ للكلاب المُجهدَة .
الا نرسم عذراء ذاهبةً الى الصلاة
ووصيفتها تمشي وراءها ــ عذراء نجدها الوردي ــ
تنظر الى أمها وهي الى جانبها
وتنسى شفتَيها ــ النصف المفتوحة ــ صلاتَها ؟
إذ تصغي وهي ترتجف الى صدى
رنينِ مهمازِ فارسٍ شجاعٍ على المصطبة .
ألا نقول لأبطال الأزمنة الغابرة من فرنسا ،
كي يصعدوا شاكي السلاح الى ابراج حصونهم
وأن يُحبّوا القصة الساذجة
التي علّمها مجدُهم المَنسيُّ للتروبادور [1] ؟
ألا نكسو بالبياض[2] أغنيةً رخوةً ؟
ورجل[3] « واترلو » سيسرد لنا قصة حياته
وما حصد بمنجله من قطيع البشر

(١) شعراء فرنسا في القرون الوسطى
(٢) كَفَن الشعر الوضيع الذي لا قيمة له
(٣) كان الشاعر لا يحب نابليون .

قبل أن يأتي رسولُ الليل الدائمُ
ويحطّمَ بضربة من جناحه عرشَه الأخضر
ويصلّب ذراعيه على فؤاده الحديدي ؟
ألا نسمّرُ على خشبة النقد
الاسمَ الذي بيع سبع مرات لهجاءٍ باهتٍ
الاسمَ الذي دفعه الجوعُ من أعماق النسيان
فجاء وهو يرتعد من الرغبة والضعف
ليشتمَ الأمنيةَ على جبين العبقرية
ويعضَّ النارَ الذي وسّخه بنَفَسِه ،
خذ عودك ، خذ عودك ، لا استطيع السكوت
إن جناحي يرفعني مع أنسام الربيع ،
ستحملني الرياحُ قريباً ، وسأترك الأرض .
دمعةً منك . ان الله يُصغي اليّ . حان الوقت .

الشاعـر

إن لم تكوني بحاجةٍ ، يا أختي العزيزة !
إلاّ الى قبلةٍ من شفةٍ صديقة
والى دمعةٍ من عينيّ
فانني أقدمهما لكِ دون عنـاء
وليذكّراكِ بحبنـا
أما اذا عاودت الصعود الى السموات ،

فلن أغنّي حبي الذي تذكرينه
ولن أغنيَ الأمل
ولا المجدَ ولا السعادة
واحسرتاهُ ! حتى ولا الألم ،
سيلزم الفم الصمت
كيما اسمع القلب يتكلم .

ربة الشعر

أتظنُ إذاً أنني سأكون مثل هواء الخريف
الذي يتغذّى بالبكاء حتى على قبر ،
والذي عنده الألم مثل قطرة الماء (في فم الظمآن)
أيها الشاعر ! أنا التي اعطيك القبلة ،
أمّا العشب الذي اريد اقتلاعه
ليس الاّ خموتك . فألمُكَ لله
ومهما كان السهم الذي يعانيه شبابك
فدع هذا الجرح المقدس يتسّع
ذلك الجرح الذي أحدثته فيك ملائكة الألم
لا شيء يجعلنا عظماء الاّ الجراح العظيمة ،
ولكي تصل اليها (١) ، فلا تظنّ أيها الشاعر !
بأنّ صوتك هنا ـ في الأرض ـ سيظلُّ أبكم

(١) الى الجراح العظيمة

إن اجمل الأغاني اكثرها نصيباً من اليأس
إني أعرف اغاني خالدة هي نحيب صِرْف
عندما تعب البَجَعُ من جَوْلتِهِ الطويلة (١)
وعاد في ضباب المساء الى قَصَبه ،
فأسرعت فراخُه الجوعى نحوه متدافعة على الشاطيء
مذ رأينه من بعيدٍ يتخبط على الأمواه ،
لقد ظننَّ انهن سيتقاسمن ما جلبه لهن
ركضن إليه وهن يطلقن أصوات الابتهاج
محركات مناقيرهن على أعناقهن البشعة .
أما هو ، فصعد بكل تؤدة ، وعلى صخرة مرتفعة
غطّى فراخه بجناحه المتدلّي .
إنه صياد حزين (٢) يرمق الفضاء
والدم يتدفق بغزارة من صدره المفتوح .
لقد جاب البحار منقباً في أعماقها ولكن دون جدوى .
كان المحيط خالياً والشاطيء مقفراً .
ولم يجد من الأغذية سوى قلبه .
وتمدّد على الصخرة كئيباً صامتاً
تاركاً أبناءه يتشاطرون احشاءه .

---

(١) خير مثال للشاعر

(٢) لانه فشل

لقد هدهد الآن بحبه السامي النبيل ،
فهو يتأمل سيلان ثديه المدمّى
ترنحّ ، تهاوى في مأدبة الموت
سكرانَ من اللذة ، والحنان ، والهوْل .
ولكنه أحياناً ، وسط هذه التضحية الالهية
وقد انهكه الموت وسط عذاب جدّ طويل
خشي ألا تتركه حياً
ولذا نهض وفتح جناحيه للريح
وطعن قلبه ـ بمنقاره ـ وأرسل صوتاً وحشياً
صارخاً في الليل وداعاً فاجعاً
قال : لِتهجر طيور البحر الشاطيء ،
وليَتَأهَّب ـ للقـاء الله ـ
كلُّ مسافرٍ استوقفته الرمال
وكل شاعرٍ غمرته الوحشة .
أيها الشاعر ! هكذا يفعل كبارُ الشعراء
يُفرحون أبناء زمنهم
ولكن مآدبهم البشرية التي يقيمونها في أعيادهم
يشبه اكثرها مأدبة البجـع .
وعندما يتكلمون عن الأمل الخادع
وعن الأسى والنسيان والشقاء ،
فهذه كلها ليست نَغَماً تَسُرُّ الفؤاد ،

ان أناشيدهم كسيوف :
تخطُّ دائرة باهرة في الهواء
ولكن يعلق عليها بعضٌ من قطرات الدماء

الشاعر

يا ربة الشعر ! أيها الشبحُ الجَشِع
لا تطلبي مني ما يطول ،
ان الرجل لا يخطّ شيئاً على الرمل
في لحظة مرور العاصفة .
رأيت الزمن — حين كان شبابي
الذي لم يزلْ على شفتيّ —
مستعدّاً (1) للغناء مثل طائر
ولكن تحملّتُ استشهاداً قاسيا ،
وأقل ما يمكن أن أقول عنه
انني اذا ما غنيته على قيثارتي
أن يحطّمها لما تحطم القصبة .

ليلة ديسمبر — كانون الاول

لهذه الليلة طابع رومانطيكي يتجلّى فيها أكثر من ليلة مايس . والازدواجية تختلف — أي ازدواجية الشاعر وربة الشعر لان كليهما واحد — فموسّه

(1) أي الزمن

تلميذ ، شاعر بالفطرة ، مغرم ، ساذج ، خليع ، يتيم ، رحالة ، فهو يرى في كل مكان ازدواجيته ، حتى وفي كل وجه ، لقد تعب فؤاده وعيناه .

في هذه الليلة يعيد مخلفاته المقدسة الى امرأة كان يحبها وهي قد صدفت عنه . وضيفه المواظب ليس الا «الوحدة» . وكما قال أخوه «بول موسّه»: ان هذه الليلة مستوحاة من قطيعة امرأة أخرى غير « جورج صانـد » . امـرأة متزوجة ولكنها ندمت على ما فرط منها فهجرته . ان قوله هذا ممكن" ، ولكن كيف تفسر بعض التعابير القاسية ؟ وهل تتقبل أن الألمين ــ قطيعة هذه المـرأة وقطيعة جورج صاند ــ ذابا في بوتقة واحدة ليشكلا ألماً واحداً ؟

الشاعـر

عندما كنتُ طالبا
بقيتُ ساهراً ، ذات مساء
في غرفتنا المنفردة .
وأمام منضدة ، جاء تلميذ"
مسكين يرتدي السواد وجلس :
انه يُشبهني كأخ

* * *

كانوجهه كامداً وجميلاً
على ضوء مصباحي ،
وفي كتابيَ المفتوح طفق يقرأ

وأسند جبهته على يدي
وبقي هكذا حتى اليوم التالي
يفكّر وعلى ثغره ابتسامة حلوة •

* * *

ولما بلغتُ الخامسة عشرة
كنتُ أتمشى بخطاً بطيئة
في غابةٍ ، وعلى النّباتِ •
وعند ساق شجرة ، جاء
شاب يرتدي السواد وجلس
إنه يشبهني كأخ •

* * *

سألته عن طريقي ،
وكان يُمسِك باحدى يديه عوداً
وفي الثانية طاقة من نسرين ،
فالتفت إليّ نصف التفاتة
وأشار باصبعه نحو الهضبة •

* * *

وفي السّنّ الذي يطلب الحب ،
كنتُ ــ ذات يومٍ وحدي في غرفتي

أبكي بؤسيَ الأول . [1]
وفي زاوية من موقدي ، جاء
غريبٌ يرتدي السواد وجلس .
انه يشبهني كأخ .

* * *

كان كئيباً مضطرباً
يشير باحدى يديه الى السموات
وبالأخرى يُمسكُ سيفاً . [2]
ويبدو أنه يتألم لألمــي ،
ولكنه لم يرسلْ إلاّ زفرةً واحدةً .
ثم تلاشى مثل حلمٍ .

* * *

وفي سن الفجور [3] ،
كنتُ في وليمة ــ ذات يوم ــ .
ولكي أشرب نخباً
رفعت كأسي . فجاء الى أمامي

---

(١) ليس المقصود جورج صاند ولكن اولى تجاربه في الحب
(٢) الشهوة التي تثقب الفؤاد
(٣) الركض وراء المرأة .

مدعوٌ يلبس السواد وجلس .
انه يشبهني كأخ .

* * *

كان يهز تحت معطفه
ثوباً مهلهلاً من الأرجوان
وعلى رأسه آسٌ ذابل .
كانت ذراعه تطلب ذراعي
وما إن لمستْ كأسي كأسهُ
حتى تحطمت في يدي الضعيفة

* * *

وبعد سنة ، في ليلة ليلاء ،
كنت راكعاً قرب السرير ،
وعليه أبي يلفظ نفسه الأخير .
جاء يتيمٌ وجلس عند رأس السرير
وكان يرتدي السواد ،
انه يشبهني كأخ

* * *

كانت عيناه غارقتين في الدمع
كملائكة الألـم .

وكان على رأسه تاج من شوك
وعوده على الأرض ، يحتضر
وثوبه الأرجواني يحكي الدم
وسيفه في صدره (مغمود)

* * *

فتذكّرته جيداً
لقد عرفته ، طالما شاهدته
في كل لحظة من لحظات حياتي .
انه حلمٌ غريب ،
ومع ذلك ، رأيته في كل مكان .
وسواءٌ لَدَيَّ أكان ملاكاً أم شيطانا
انه ظِلٌّ صديق

* * *

وبعد زمنٍ طويلٍ ، وقد اجهدني الألم ،
اردتُ أن أنفي نفسي من فرنسا [1] .
إمّا لأولَدَ من جديد واما أن انتهي .
لقد عييتُ من السير
فاردت السفر كيما
افتّش عن بقايا آثار أمــل .

(١) سفره مع جورج صاند عشيقته الى ايطاليـا .

في كل مكان ، تحت هذه السموات الرحيبة ،
أجهدتُ فؤادي وعينيَّ
وكلاهما يَدْميان من جرحٍ خالد ،
في كل مكان ، يجرُّ حقدُ الحياة
جهودي وراءه ،
ويتمشى بي على حصير من صفصاف

* * *

في كل مكان ، كنتُ أتلظّى ظَمَأً
ودائماً من عطش عالَمٍ مجهول
لقد تبعتُ شبحَ أحلامي ،
في كل مكان ، حتى في المكان الذي كنت لا أعيش به
رأيت ما كنت أرى
الوجهَ الإنسانيَّ واكاذيبه

* * *

في كل مكان ، وعلى طول دروبي
اخذتُ رأسي بين يديّ
متأوهاً كامرأة .
في كل مكان ، ومثل حَمَلٍ
تركَ صوفَه على الدّغل ،
شعرت ان روحي تتعرّى .

* * *

في كل مكان اردت فيه النوم ،
في كل مكان اردت فيه الموت
في كل مكان لامست الأرض راكعاً ،
في طريقي ، كان بائس" يأتي
ويجلس وهو يرتدي السواد .
انه يشبهني كأخ .

* * *

من أنت إذن ؟ أنت الذي
أراه طوال حياتي في طريقي ؟
لا أستطيع أن أصدّق – مِنْ أساك –
بأنك قَدَري الرديء .
ابتسامتك الحلوة فيها الكثير من الصبر ،
ودموعك تنمّ عن الكثير من الإشفاق .
عندما أراك أحبّ العناية الإلهية .
حتى أن ألمَكَ أخو ألمي
إذ إنه يشبه الصداقة

* * *

من أنت اذن ؟ لست بملاك الخير ،
لم تأت قطّ اليّ وتُنذرني ،
إنك ترى أدوائي – وهذا شيء غريب –

وتنظر إليّ وأنا أتشكّى .
منذ عشرين عاماً وأنت تعترض سيري .
لا أعرف بماذا ادعوك .
من أنت اذن ؟ واذا كان الله قد أرسلك
فإنك تبتسم لي ولا تشاطرني أفراحي
وتُشفِق عليّ ولا تعزيني .

* * *

في هذا المساء ايضاً ، رأيتك تظهر لي
وكان ذلك في ليلة حزينة ،
وجناح الرياح يقرع نافذتي ،
كنت وحدي منحنياً على سريري .

* * *

كنت اجمع رسائل الماضي :
شَعراً ونِتَفاً من الحب .
وكان الماضي في كل ذلك يصرخ في أذنيّ بأيمانه الخالدة ،
كنت أتأمل تلك المخلفات المقدّسة
التي تجعل يدي ترتعش
والتي تجعل دموع القلب يلتهمها القلب
والتي تجعل من عينيّ الباكيتين
لا تعرفان الغد مطلقاً

لففتُ في مِزقةٍ خشنة من الصوف
تلك المخلفات من أيامي السعيدة ،
وكنت أقول لنفسي : الذي يبقي على هذه الأرض
هو ذؤابة من شعر .
ومثل غاطسٍ في بحرٍ لجّيٍّ
ضعتُ في خِضَمٍّ من النسيان ؟
أديرُ آلة الأعماق في كل الاتجاهات ،
وكنت أبكي وحدي ، وحدي بعيداً عن أعين الناس
أبكي حُبيَ المسكين المدفون .

* * *

وأوشكلت أن أضع خاتم الشمع الأسود
على ذلك الكنز[1] العزيز السريع العطب
لأعيده الى مصدره ، وأنا لا أصدق ما أقوم
وأبكي ، ولا أصدق (هجرانك لي) .
آه ! أيتها المرأة [2] الضعيفة المتكبرة المجنونة
ستتذكريني رغماً عنك .
لماذا ــ يا إلهي العظيم ــ تكذب على افكارها
لماذا ذلك البكاء ، وذلك الحلق المسحوق
بتلك الآهات ، ان لم تكوني تحبّين

---

(١) الرسائل المتبادلة مع من أحب .

(٢) جورج صاند .

ولكن فجأةً ، رأيت في الليل الحالك
شكلاً ينزلق دون أن يُحدث صوتاً
وعلى ستارتي رأيت ظِلاً يمرّ
وجاء وجلس على سريري •
من أنت اذن ؟ ايها الوجه الحزين الشاحب !
ايتها الصورة القاتمة المجللة بالسواد !
ماذا تريد مني ، أيها الطائر البائس في مرورك بي ؟
هل هذا حلمٌ باطلٌ • هل هذا صورتي حقاً
ما أرى في المرآة •

* * *

من أنت اذن ؟ يا شبحَ شبابي !
أيها المتجول الذي لم يتعبه شيء !
قل لي : لماذا أجدك دائما
جالساً في الظلّ حيث أمرّ ؟
من أنت اذن ؟ أيها الزائر الوحيد !
والضيفُ المواظب في آلامي ؟
ماذا جنيتُ لتلاحقني على هذه الأرض ؟
من أنت اذن ؟ من أنت اذن ؟ يا أخي !
الذي لا يتراءى إلا في أيام بؤسي •

* * *

الحلم (الشبح)

يا صديقي ! أبي ابوك
لست الملاك الحارس
ولا القدرَ المشؤوم للبشر
لا أدري الى أي جانب
تذهَب الخُطا بالذين احبهم
في هذا الوحل[1] القليل الذي نحن فيه

❊ ❊ ❊

لستُ إلهاً ولا شيطاناً .
وقد دعوتَني باسمي
عندما ناديتني بأخيك .
أنَّى تذهبْ اكنْ معك
حتى آخر أيامك ،
وعندها أجلس على شاهدك[2]

❊ ❊ ❊

لقد أودَعتني السماءُ قلبك
عندما تتشكّى من الألم .

---

(١) الارض
(٢) شارة توضع على القبر .

تعال إليّ ولا تَخَفْ
سأتبعك في الطريق ،
ولكنني لا أستطيع أن ألمسَ يدك :
يا صديقي ! أنا الوحـدة

* * *

ليلة أغسطس ـ آب

كتب « موسه » هذه الليلة بجماح من الشباب ومن الغبطة . فقد كان يستقبل بترحاب في كل مكان ، فيغشى الأندية الارستقراطية ويزور علِيَةَ القوم . فهو راض عن نفسه كل الرضى . وتعتبر هذه الليلة أغنية الصبا وأنشودة الحب .

وقد لامه النقاد لاهماله الالهام وسعيه وراء المغامرات العشقية . وتبدو نبرات الشاعر في هذه الليلة ليست أقل حرارة من غيرها مـن الليالي وعندما يتعمق المرء في دراسة هذه الليلة يبدو له أن تلك الغبطة ليست الا ضرباً من القنوط واليأس .

ربـــة الشعر

منذ أن تخطت الشمس في الأفق الرحب
برجَ السرطان على محورها المشتعلَ
غادرتني السعادة فانتظرت بكل سكينة
الساعة التي يدعوني بها حبيبي .

واحسرتاه ! منذ زمن وبيته مقفر خال ،
ولم يبق شيء حي من أيامه الحلوة ٠
انا وحدي ، آتي ملتَفّة بملاءتي
واضعة جبهتي اللاهبة على عتبة بابه النصف مفتوح
كأرملة تبكي على قبر ولد ٠

الشاعر

سلاماً ، يا صديقتي الأمينة !
سلاماً ، يا مجدي ! يا حبي !
أنت خير من اجده
لدى عودتي وأعزه ٠
لقد خطفني الطمع والفكرة
زمنـاً(١) ٠
سلاماً ، يا أمي ومربيتي !
سلاماً سلاماً ، يامعزيتي !
افتحي ذراعيك ، انني قادم لأغني

ربـة الشعر

لماذا ، يا ذا القلب الظمآن ! ياذا القلب المجهد من الأمنيات !
لماذا تهرب مني في كثير من الاحايين لتعود الي متأخراً ؟

(١) اشتغل فترة بالسياسة ونشر المقالات حباً بالكسب .

وعلى ماذا تفتش ، ان لم يكن على بعض الحظوظ ؟
وماذا تجلب لنفسك ، ان لم يكن بعض الآلام ؟
ما تفعل في بُعدك عني ، وانا بانتظارك حتى شروق الشمس ؟
انـك تتبع برقاً باهتاً في ليل عميق
لم يبق لك من لذائذ الدنيا
الامقت عاجز لحبنا الشريف
عندما وصلت الى غرفة دراستك وجدتها خالية
فوقفت أنظر من هذه الشرفة ، وأنا حالمة قلقة
الى جدران حديقتك ، وأفكر :
انك تستسلم في الظل لقدرك الخبيث(٢) ٠
ان بعض الجمال المتكبر يكبلك بقيده ،
فتترك ذلك النشاط الذي يجب أن تسقي آخر أغصانه
ـ في أزمنة أكثر سعادة ـ بدموع عينيك ٠
ان تلك النضارة الكئيبة كانت رمزي الحي ،
ياصديقي ! من نسيانك نموت معاً ،
فعبيره الخفيف يطير
بذكراي ضارباً في الأجواء ٠

الشاعر

رأيت ـ هذا المساء ـ في الدرب ،

---

(٢) الركض وراء المراة .

عندما مررت في المرج
زهرة مرتعشة ذابلة
زهرة شاحبة من النسرين ،
ورأيت الى جانبها برعماً أخضر
يتأرجح على الشجيرة !
رأيت في البرعم زهرة جديدة تبدأ بالتفتح ،
وكانت الزهرة الفتية أكثر جمالا ٠
وهكذا يجب على الانسان أن يتجدد ٠

ربــة الشعر

واحسرتاه ! دائماً انسان ! واحر قلباه ! دائماً دموع !
ودائماً رِجلان مغبرتان وعَرَق يكسو الجبين !
دائماً معارك مقيتة وأسلحة مدماة !
كم ينكر القلب الجرحَ في أعماقه ٠
واحسرتاه ! في كل بلد نفس الحياة :
الرغبة ، الأسف ، الأخذ والعطاء ،
دائماً نفس الممثلين ونفس المهزلة ،
كل هذا ابتدعته البراءة الانسانية ،
ليس بحقيقي الا الهيكل البشري ٠
واحسرتاه ! يا حبيبي ! لم تعد شاعراً

الشاعر

عندما اجتزت الوادي
كان طائر يغني في عشه ٠
وصغاره ، صغاره العزيزة عليه
ماتت في الليل ٠
ومع ذلك فهو يغني للفجر ٠
لاتبكي يا ربتي !
ان فقدنا الكل فالله باق
الله في العلى ، والأمل هنا ٠

ربــة الشعر

وما عساك تجد ، في يوم يعيدك
بؤسك الى بيتك الأبوي ؟
وماذا تجد ، عندما تمسح الغبار بيديك الواجفتين
عن تلك العزلة التي تظن أنك نسيتها ٠
بأي وجه تعود الى بيتك الخاص
لتفتش عن قليل من الهدوء وكرم الضيافة ؟
سيكون وقتذاك صوت يصرخ في كل آونة ،
في أعماقك : ما فعلت بحياتك وبحريتك ؟
أتظن اذن أننا ننسى أكثر مما نأمل ؟
وهل تظن أنك ستجد نفسك اذا ما درت عليها ؟

مَن الشاعر ؟ أأنت أم قلبك ؟
انه قلبك ، وقلبك لن يجيبك ٠
قد يحطمه الحب وتحوله الرغبات المشؤومة
الى حجر ، من كثرة احتكاكه بالخبثاء ،
وعندها لن تشعر الا ببقايا رهيبة
تتلوى فيك كما تتلوى الأفعى ٠
ماذا فعلت ـ ياحبيبي ـ بأيام شبابك ؟
من قطف ثَمَرتي من شجرتي الفينانة ؟
واحسرتاه ! كان محياك يعجب الآلهة
التي تحمل بين يديها القوة والصحة
لقد أذبلت الدموع المجنونة خدك ،
ومن جمالك(٣) ستضيع الفضيلة ٠
انا التي احبك كصديق لي وحيد ،
بماذا تجيبني اذا ما الآلهة الغضبى
نزعت مني عبقريتك وأسقطتني من العلى ؟

الشاعر

طالما ان عصفور الغابات يطير ويغني
بين الأغصان وقد تكسر بيضه في عشه ،
وطالما زهرة الحقول التي تتفتح مع الفجر

---

(٣) القوة الفكرية والخلقية .

وهي ترمق ، في الروض ، زهرة تتفتح
فتنحني (زهرة الحقول) بكل هدوء وتسقط مع الليل (١)

* * *

طالما في أعماق الغابات ، تحت أسطحة الخضرة
نسمع تحطيم الخشب الميت ، في الدرب ،
وطالما ان الانسان الخالد وهو يجتاز الطبيعة الخالدة
لايعرف من كل العلوم
الا أن يمشي دائماً وينسى دائماً ٠

* * *

طالما أن الصخور تتحول الى غبار ،
وطالما كل شيء يموت مساء ليتجدد مع الصباح
وطالما أن القتل والحرب عبارة عن سماء ،
وطالما من القبر تنبعث
تلك القشة من العشب فتقدم لنا الخبز ٠

* * *

ياربتي ! لقد تساوى لدي الموت والحياة ٠
وأحب ، وأريد أن أذوب ، وأحب وأريد أن أتألم

(١) تاركة لغيرها حق النماء .

أحب ، ولقاء قبلة واحدة ابذل عبقريتي ٠
أحب ، وأريد أن أشعر على خدي النحيل
بسيلان نبع ، لايملك أن ينضب
أحب وأريد أن أتغنى بالفرح والخموس ،
وبتجربتي المجنونة ووساوسي اليومية ،
أريد أن أقص وأن أعيد دوماً ما قصصت ،
بعد أن أقسمت بأن أعيش دون عشيقة ،
أقسمت أن أعيش للحب وأن أموت في سبيله ٠

* * *

تعري أمام الجميع من الكبرياء التي تفترسك ،
يا ذات القلب المنتفخ بالمرارة ، وكنت تظنين أنه مغلق ٠
أحبي وستولدين من جديد ، كوني زهرة دائمة التفتح ٠
بعد أن تألمنا يجب أن نتألم
ويجب أن نحب دوماً بعد أن أحببنا ٠

ليلة أكتوبر ـ تشرين الاول

ربما كانت هذه خير لياليه ولكن الاختيار صعب ٠ في هذه الليلة تختلف النبرات من حقد الى صفح الى حنان ، وتتغير النغمات وفقاً للعواطف وايقاع الأبيات الجامح أو الهادىء مع سلامة في اللغة والتعبير ، مما يجعل منها تحفة فنية رائعة ٠

كان موسه ذا صلة « بأيمي دالتون» وهي فتاة شقراء ناعمة لطيفة رقيقية • وكانت ابنةعم صديقه«دالتون شي» •وقدتزوجت، بعدوفاته، بأخيه بول موسه • لقد كان الشاعر ينظم هذهالليلة وهي تقرأمايكتب من وراء كتفه• وربما قالت في نفسها : «كم كان يحبها» ـ جورج صاند ـ •

فيهذه الليلة توبخه ربة الشعر وتلومه علىخمولهوتذكره بايحاءاتها السعيدة • ولكن الشاعر أجابها بأنه مستسلم الى هياجه • لقد غدر به حبه •

الشاعر

ان المرض الذي أشكو منه هرب مثل حلم ،
ولا أستطيع الا أن أشبه تلك الذكرى البعيدة
بالضباب الرقيق الذي يثيره الفجر
والذي نشهده يتلاشى مع الندى •

ربة الشعر

ما بك يا شاعري ؟
أي هم غامض
أبعدك مني ؟
واحسرتاه ! انني لا أزال أشعر به •
ما هذا المرض الذي أجهله
والذي بكيته طويلا •

الشاعر

انه مرض متداول مبتذل معروف من الناس جيداً ،
ولكننا عندما نصاب بقليل من السأم في النفس ٠
نتخيل ـ نحن المجانين المساكين ـ
ان لا أحد شعر بألمه قبلنا ٠

ربـــة الشعر

لاغم مبتذل
ألا غمّ نفس مبتذلة ٠
يا صديقي ! لينطلق هذا السر الكئيب
من بين حناياك ـ الآن ـ
ثق بـــي ، تكلم بكل ثقة
فاله الصمت القاسي
وأحد اخوة الموت ،
عندما نتشاكى نتعزى ٠
وربما كلمة واحدة تخلصنا من عذاب الضمير ٠

الشاعر

اذا كان من المحتم علي أن أتكلم الآن عن ألمي ،
ولاأدري أي اسم اطلقه على هذا الألم ٠
هل هو حب ، جنون ، كبرياء ، تجربة ٠ لا ادري
حتى ولا أعلم اذا كان أحد الناس استفاد منه ٠

ومع ذلك سأروي لك قصته ،
طالما نحن وحدنا ، جالسين قرب المدفأة ٠
خذي هذا العود ، اقتربي ، ودعي
ذاكرتي تستيقظ شيئاً فشيئاً على ايقاع لحنه ٠

ربـــة الشعر

قبل أن تحدثني عن ألمـك
أيها الشاعر هل برئت منه ؟
فكر ، ان حديثك الآن
سيكون خلواً من الحب ومن الحقد ٠
واذا كنت تذكر بأنني احمل
اسم المعزية الجميل ،
فلا تجعل مني شريكة اهوائك
التي أضاعتك ٠

الشاعر

لقد شفيت تماماً من ذلك المرض ،
وان كنت أشك احياناً في ذلك عندما أفكر فيه
وفي الأمكنة التي تعرضت فيها حياتي للخطر (١) ٠
وأعتقد بأنني ارى لنفسي وجهاً آخر (٢) ٠

---

(١) كان ذلك في البندقية مع جورج صاند .
(٢) غير وجهه الأول عندما كان يحبها اي جورج صاند .

ربة الشعر ! لاتخشي شيئاً ، ففي النفثة التي توحي اليك
نستطيع بها أن تتوادع أسرارنا دون أي محذور
من الجميل أن نبكي ومن الجميل أن نبتسم ،
وبذلك نستطيع أن ننسى ذكرى البؤس .

ربـــة الشعر

مثل أم يقظة
تنحني على سرير ولد حبيب
أنحني وأنا واجفة
على هذا القلب الذي اغلق في وجهي
تكلم يا صديقي ! فعودي مصغ
لكل نأمة شاكية
تقتفي اثر نغمات صوتك
وفي خيط من الشعاع
تمر ظلال الماضي
مثل رؤيا لطيفة

الشاعر

أيام العمل ! انها الايام التي عشتها(١) .
وانت ، أيتها الوحدة المحببة ثلاثا الى قلبي !

---

(١) ظل موسه يعمل دون انقطاع ليكسب رزقه .

من الحمد يارب ! ها قد عدت
الى غرفة الدرس القديمة
انها كوخ حقير ما أكثر ما عريت جدرانه !
مقاعده مغبرة مصباحه الأمين ،
يا قصري ! يا عالمي الصغير !
وانت يا ربتي ! أيتها الخالدة الفتية
لك الحمد يا رب ! سنشرع اذاً بالغناء !
أجل ، أريد أن أفتح لك روحي ،
فتعرفين كل شيء ، وسأقص عليك
ما أحدثته امرأة من شقاء(٢) ٠

ربـــة الشعر

كفاك ، أيها الشاعر ! بالنسبة لغادرة ٠
اذا كانت ظنونك لاتعمر الا يوماً واحداً ،
فلا تشتم هذا اليوم عندما تتحدث عنها ،
وان اردت ان تحب ، فاحترم حبك
واذا كان الجهد الذي نبذله أكبر من ضعفنا البشري
وأننا لا نستطيع ان نغفر ما يجليه غيرنا من الاضرار ،
فلنتجنب ـ على الأقل ـ عذاب الحقد ،
وان كنت لاتستطيع الغفران ، دع النسيان يأتي ٠

---

(٢) هذا موضوع القصيدة .

الموتى يرقدون بسلام في باطن الارض ·
وهكذا يجب أن ترقد مشاعرنا المنطفئة ·
للقلب مخلفات جليلة ولكن لها غبارها أيضاً ،
ويجب أن نبعد أيدينا عن تلك المخلفات المقدسة ·
لماذا ، في هذه القصة المثقلة بالألم الحي ،
لاتريد أن ترى فيها الا حلماً مزعجاً وحباً مخدوعا ؟
هل تتصرف العناية الالهية دون أي سبب ؟
وهل تظن بأن الله لم يختبرك ؟
ربما كانت ضربته هذه التي تشكو منها قد انقذتك ·
أيها الولد ! من هنا غزيت ، فانفتح جرح قلبك ·
الانسان خادم يتعلم والألم معلمه ·
ولا أحد يعرف نفسه اذا لم يتألم ·
انه دستور قاس ولكنه دستور جاء من فوق
وقديم قدم العالم وقدم القدر المحتوم ·
لقد كتب علينا الشقاء منذ خلقنا
وبهذا الثمن نشتري الحياة
ولكي ينضج الحصاد لابد له من الندى ،
ولكي يحيا الانسان ويشعر لابد له من البكاء ،
ان للفرح رمزاً هو نبتة كسرت
وهي لم تزل بعد رطبة من المطر ومكسوة بالزهر ·
ألم تقل : انك برئت من جنونك ؟

ألم تكن شابا سعيدا يرحب بك في كل مكان ؟
وتلك الرغبات اللطيفة التي تجعلنا نحب الحياة
لو لم تبكها ، ما نفعل بها ؟
عندما يميل النهار ـ وأنت جالس على النبات ـ
تشرب بحرية مع صديق لك ،
قل لي : هل ترفع كأسك من كل قلبك
لو لم تشعر أنك قد قدمت ثمن الغبطة ؟
أتحب « بترارك » ونشيد الطيور
أتحب « ميكال أنج » والفنون و « شكسبير » والطبيعة ،
لو لم تجد في كل ذلك بعض الزفرات العتيقة ؟
هل تفهم نغم السموات الخفية ؟
وهل تفهم هدوء الليل وتمتمة الأمواه
لو لم تجد في الماضي الحمى والأرق
اللذين جعلاك تفكر بالراحة الأبدية

* * *

يا ولدي ! ارحمها ، ارحم تلك الجميلة الغادرة ،
التي أجرت ـ من قبل ـ الدموع من عينيك ،
اعطف عليها ! انها امرأة ، والله جعلك بقربها
تعرف ـ وأنت تتألم ـ سر السعداء .
كانت مهمتها قاسية ، وربما كانت تحبك ،

ولكن شاء القدر أن تحطم قلبك ·
انها كانت تعرف معنى الحياة ، وعرفتك اياه
لقد قطف غيرك ثمرة أحزانك
أرحمها ! ان حبها مر كحلم نائم ،
رأت جراحك ، ولكنها لم تستطع أن تضمدها ·
صدقني ، لم تكن كاذبة في بكائها ،
اشفق عليها ، ولو كذبت على نفسك ، انك لم تزل تعرف كيف تحب

الشاعر

قلت حقاً ، فالحقد كفر ،
وهو ارتعاش ملؤه الرعب ،
عندما نترك هذه الأفعى الظمأى
تلتف على نفسها في صدرنا
اصغ الي اذن ، يا ربتي
وكوني شاهدة على يميني :
أقسم بحق عيني عشيقتي الزرقاوين ،
وبلازورد السماء ،
وبتلك الشرارة اللامعة
التي تحمل اسمها من « فينوس »
والتي تشع بعيدا في الأفق

مثل لؤلؤة واجفة ،
برحمة الخالق
بالضياء الهادىء الصافي
من نجمة عزيزة على المسافر(١) ،
بأعشاب المروج ،
بالغابات ، بالغياض الخضراء ،
بقــوة الحيــاة ،
بنسغ الكــون ،
سأبعدك عن ذاكرتي
يا بقية حب مجنون ،
وسترقد في الماضي
تلك القصة الغامضة الكامدة ،
أنت التي كنت تحملين من قبل
اسماً حلواً له شكل ،
فاللحظة السامية التي انساك فيها
يجب أن تكون لحظة الغفران ٠
لنغفر ، انني أقطع القوة السحرية(٢)
التي كانت تجمعنا أمام الله ٠

---

(١) النجمة القطبية .

(٢) جعل الحب قوة سحرية قطع سلسلة حلقاتها .

ومع آخر دمعة ـ اذرفها ـ
تقبلي وداعاً أبدياً .
والآن ، يا ربتي الشقراء الحالمة
هيا بنا الى حبنا !
اعزفي بعض الأغاني المفرحة
كما كنت تعزفين في الزمن الأول من أيامنا الجميلة .
ان الروض المعطر
يشعر بدنو الصباح ،
تعالي ، أيقظي يا حبيبتي !
زهرات الحديقة واقطفيها .
تعالي تري الطبيعة الخالدة
تخرج من غلائل النوم ،
اننا سنولد معها
مع شعاع الشمس الأول[1] .

اكتوبر ١٨٣٧

* * *

(١) يقصد صباح الأمل الجديد .

سبع قصائد شعرية حديثة من كوريا

• ترجمة: منذر رشراش

تقديم :

بدأ الادب الكوري الحديث حقيقة عند تزاوج الابجدية الكورية والافكار الديمقراطية الوافدة في هذا القرن ·

ان اللغة الكورية والتي هي فرع من اللغة المونغولية ليس لها نبرة حادة ولا تعتمد على الحروف الملفوظة من الانف NASAL · ان الاصوات فيها مختلطة وموسيقية · وهي تعتمد على الصور والصوت في اللفظ بينما تعتمد اللغة الصينية على الرموز والصور ·

وقد قامت في الادب الكوري الحديث وفي عام ١٩٢٣ مدرسة الواقع الاجتماعي والتي دافعت لاول مرة في التاريخ الكوري عن فوائد انتشار الثقافة للجماهير العامة ولم تنس الحرية الفردية وتشجيع الصناعة · وقد دعمها الحزب الشيوعي آنذاك ·

بعد هذه المدرسة قامت المدرسة الرومانسية في عام ١٩٢٦ · وقد تأثر أفرادها بالكتاب والشعراء الاوربيين أمثال بليك وجون كيتس

وجان جاك روسو فنجد شعراء رومانسيين مثل لي هوانغ سو ولي سوك .سا يتحدون نحو المادية الديالكتيكية ويؤكدون أهمية الشعور والحدس في الشعر • ان شعراء هذه المدرسة يهتمون بالماضي والطبيعة مع الميل الميتافيـزيقية •

ولكن المتجاوز لكل هؤلاء هو هان يونغ ين ، الناسك البوذي ،الذي يرى بأن المواضيع المجسدة لا أهمية لها بجانب اللامرئيات• وقد كانت محاولته فلسفية بعض الشيء • أما كيم رم و كيم هوانغ سبا و لي ان سو فهم مدينون لبودلير وفيرلين • لقد ثاروا ضد المدرستين السابقتين في تلك المرحلة وبحثوا في الاساليب الحديثة والافكار الرمزية •

وبالرغم من عدم وجود القافية ـ بالمعنى الاكاديمي ـ في كلمات الشعر الكوري الحديث الا أنها تستعاض بالموسيقى الداخلية المتوازنة والصور والخيالات الحية •

وفي الشعر الكوري تعتبر الطبيعة عظيمة كعظمة مخلوق الرب ، الانسان • ان الورود والصخور الجامدة خاليتان من الروح ولكن الشعراء قد حولوها الى أجسام عظيمة ومنحوها الخواص المميزة للانسان •

١ ـ هان يونغ ين(١) :

النسبة المعكوسـة

هل صوتك قد خفت ؟

عندما لاتُغنّي

أسمع صوتك بوضوح
صوتك باهت ٠

هل وجهك مظلم ؟
بعينين مُغلقتين
أرى وجهك بوضوح
وجهك مظلم ٠

هل ظلك مُشرق ؟
على الشباك المعتم
سطع ظلك
ظلك مشرق ٠

٢ ـ لي يوك سا(٢) :

المذروة

فار(٣) من وطأة الشتاء القاتل
زحفت أخيرا الى الشمال

أقف عند نصل سيفه المتجمّد
في السهل مشلول الحركة

لا أعرف أين أحني ركبتي
ولا أين أضع خطواتي المرتعشة

لا لشيء ولكن لأغلق عيني
وأفكر بالشتاء فكأنه قوس قزح فولاذي

٣ ـ لي هوانغ سن(٢) :

الشـــوق للاصـــدقاء

اخواني وأخواتي !
هل تسمعون ؟
هل تسمعون
الأغنية التي أغنيها
وأنا جالس تحت الجدار المنهار
راكعا للاسفل ؟

اخواني وأخواتي
هل تشـــمون ؟
هل تشـــمون
رائحة الغابة المحروقة
بيدي المرتجفتين
في المبخرة البالية ؟

اخواني وأخواتي !
هل تشاهدونني ؟
هل تشاهدونني

وأنا أقف منتظراً ،
باكياً ، خلف جدار المدينة ،
ألتمس مكاناً في قلوبكم ؟

٤ ـ كيم هوانغ سب(٤) :

التفــــــــرُّد

اذا وُلِدَت حصــاة
في واد سحيق من العدم
ثم نموتُ ولم تكن مثل صخرة صمــاء

اذا سرت مثل جدول
ولم تصل الى بحر كبير
تشــبث بهذه اللحظة
لتبقى في الطريق ·

٥ ـ لي ان سو(٥) :

صلاة صباحية في الصحراء

ان شجرة المعرفة لا تُعطي ظلا
فهي تحمل فاكهة موجعة ·
فاذا ماجلسنا تحتها ،
هل يجب أن نخطط لرحلة الى منطقة الظل

قبل أن تشملنا شمس الحزن ؟
أو هل يجب أن نبعث الارث الموجع
في بحر الصمت المهيب ؟
اننا أشرفنا على اليأس
ولسعتنا الشمس الكاسرة ٠
لقد انتشرت قافلة آمالنا وسعادتنا القادمة
عبر أفقك القارص ٠
حُفظت سهرات الليل ،
أقامت خلال رحلات الحج والتضحية ،
والآن ،
ماذا منحتنا ؟ أي جائزة ؟
ان أعصابنا متعبة وخواصرنا قد تلاشت ٠
اننا نعتقد بأن الاختيار
بين اليأس والسعادة
معدوم ٠
ولكن يبقى السؤال :
كيف نجابه الاضطراب ،
القلب الملتاع ،
الذاكرة البليدة ؟
إلهي ، أنت يا من منحتنا
القوة في الشمس ،

هل تستطيع ، يا إلهي ،
اخراجنا من هذا الشرك ؟

٦ ـ كيم كي رم(٦) :

الفراشـــة والبحـــر

الخوف من البحر ، لدى الفراشة البيضاء ، معدوم
فهي لم تعلم عن عمقه ، عن أعماق أعماقه ٠

تخيلت البحر أخضر ، حقلا أخضر
ضربت الامواج بأجنحتها
وتحطمت فوقها كملكة صغيرة حزينة

في شهر البنفسج الارجواني
لم يكن للورود في البحر عطرا
ولكنها ماتت باهتة ٠
كان القمر الجديد على أكتاف الفراشة أزرق باهتا ٠

٧ ـ ب ٠ ب ٠ هيون(٧) :

الـــروح المحتـــرقة

الروح محتـــرقة ٠
الجسد ميـّـت ٠
وقد وجدت نفسي في جوف شمعة

أحرق شحم الأدعياء الفارغين

أهز النجمة لأمسك القمر ،

وأسمع سراً

حكايات لا تحصى

عن الايام الخوالي .

اشـــارات

(١) من أكثر المتحدثين عن الشعر البوذي في كوريا اليوم . نشر هان يونغ ين (١٨٩٩ـ١٩٤٠) بعض الكتب التعليمية عن البوذية بالاضافة الى ديوانه (قصائد مختارة) وروايته (الريح السوداء) .

(٢) عندما كان طالبا في جامعة بيكين يدرس الادب الصيني توفي لي يوك سا (١٩٠٥ـ١٩٤٤) في سجن بيكين .

(٣) ولد الشاعر في ١٨٩٢ وتخرج في جامعة داسيدا في طوكيو . وهو معروف ككاتب روائي فله عدة روايات مثل (الرائد) و (شذى الحياة) و (الحب) . ويعتبره النقاد أب الادب الكوري الحديث .

(٤) ولد الشاعر في عام ١٩٠٤ وتخرج من جامعة داسيدا في طوكيو . وقد نشر قصائده المختارة تحت عنوان (الحنين الى الوطن) .

(٥) تخرج الشاعر لي ان سو (١٩٠٩ ـ ١٩٥٠) من جامعة لندن . عند وفاته كان لي ان سو يعمل في كتابين هما (الانجاز الفني في كوريا) وترجمة لـ (الارض الخراب) للشاعر الامريكي ت. س. اليوت.

(٦) ولد الشاعر في عام ١٩٠٩ وهو خريج جامعة توهوكو امبريال . يعتبره النقاد رائد حركة الرواد الطليعيين في كوريا .

(٧) ولد في ١٩٢٨ في كوريا وهو الان يعيش في باريس . درس في جامعتي كولومبيا ومدريد.
نشر العديد من قصائده وقصصه في مجلات أوسكيور وليبيلي في باريس.

ملاحظة :

هذه القصائد اخذت من كتاب :

New world, writing, a new adventure in modern reading.

والصادر عـن :

New American Library
501 Madison Avenue, New York 22, N.Y.

* * *

المظهر والمخبر

• قصة : وليم سمرست موم • ترجمة : د. حسان الحاج ابراهيم

وليــم سمرست موم

سمرست موم كاتب ذائع الصيت ، قل أن تجد من لم يسمع به أو يقرأ له ، بل لعله أكثر الكتاب قراء ، وأبعدهم صوتا • وقد وصفه أحد النقاد الادباء وهو Syrill Connally بأنه خير كاتب قصصي في الادب الانكليزي الحديث •

ولد وليم سمرست موم في باريس سنة ١٨٧٤ لأب يعمل محاميا لدى السفارة البريطانية هناك ، وأم أديبة حسناء • فنشأ وترعرع في باريس ، وأتقن اللغة الفرنسية ، حتى كانت معرفته بلغته الانكليزية آنذاك ضئيلة• وقد توفي أبواه في صغره، فكفله عم له كان يعمل قسا في وتستبل Whitstable ، وأدخله مدرسة الملك في كانتربري Canterbury ثم قضى سنة بعدها في هايدلبرغ في ألمانيه ، حيث نعم بالحرية لاول مرة في حياته • وبعد عودته الى انكلترة التحق بمستشفى القديس توما St. Thomas في لندن ، حيث درس الطب الى أن تخرج

منهطبيبا عام ١٨٩٧ ، ولكنه لم يمارس مهنة الطب ، بل آثر الكتابة، وقد شجعه في ذلك مالاقته أولى رواياته من نجاح ، وهي رواية Liza of Lambeth

أما حياته بعد ذلك فانها تتمثل في ماكتبه قبل أن تتمثل في ماعاشه من أحداث ٠ وقد عاش سمرست موم حتى الحادية والتسعين يكتب القصص والروايات والمسرحيات « واضعا حياته بأجمعها فيها » ٠ وقد لاقت رواياته وقصصه نجاحا منقطع النظير بين القراء ، وترجمت الى شتى اللغات ٠ وكان سمرست موم مولعا بالسفر والترحال ، فلم يدع بلدا من البلدان الا زاره ، ولكنه آثر أن يقيم في فرنسة ، فاقتنى له دارة في الجنوب منها على ساحل البحر ، عرفت بدارة موريسك كانت مبنية على الطراز الاندلسي ، فكان يقضي وقته فيها بين كتابة ومطالعة ، ينهض في الثامنة ويقعد الى مكتبه في التاسعة ويكتب لمدة أربع ساعات ، اذا زادت فانها لاتنقص عن ذلك أبدا ٠ وقد سأله صديق له ذات مرة : « ولكن ، ماذا كنت تفعل أيام لاتواتيك الرغبة في الكتابة؟» قال : « عندما يعيش المرء مما يكتبه ياصغيري ، فانه لايملك أن يضيع تلك الايام ٠ قال : « فماذا لو لم تستطع أن تفكر في شيء تكتبه ؟ » قال : « انك محق ، فهذا أمر كثيرا مايحدث ، فان حدث فاني كنت أجلس هناك وأكتب (سمرست موم) وأعيد كتابتها مرة بعد مرة حتى يفتح علي بشيء » ٠

وقد عاش موم الى ١٩٤١ ، وهو يعاني من ثقل في لسانه ولجلجة

في كلامه ، وهي عاهة عانى منها كثيرا في صغره ، الى أن شفاه منها أحد الاطباء ، ولكنها أخذت تعاوده بعد ذلك عندما كبر وشاخ ٠

وقد خلف موم عددا كبيرا من القصص والمسرحيات والروايات وكتباً أخرى ٠ فأما كتبه الاخرى فقليلة في عددها ، تتضمن بعض ما كتبه عن نفسه أو حياته ، وكتباً قليلة في النقد والاسفار ٠ وقد كتب عددا كبيرا من المسرحيات ، بل قد أتى عليه زمن كان فيه ثاني اثنين شهرة في مسارح لندن بعد جورج برناردشو ، ولكن نشاطه المسرحي انتهى بمسرحية Sheppey سنة ١٩٣٣ ٠

وتبرز من بين رواياته العديدة روايته التي استمد أحداثها من حياته ، وهي رواية Of human bondage التي وصف فيها ماعاناه من بؤس وشقاء في حياته قبل العشرين ٠ وقد كتب بعد ذلك يقول :

« ان الميزة الكبرى في أن يكون المرء كاتبا هي في أن يخلص نفسه مما مر به من تجارب بائسة ، بأن يكتبها على الورق » ٠

وقال عن كتابه في العبودية الانسانية هذا بعد أن فرغ من كتابته « لقد حقق الكتاب لي ما كنت أبغيه ، فبعد أن أخرجته للناس ، وجدت نفسي حرا من كل تلك الذكريات الاليمة ٠ لقد وضعت فيه كل شيء كنت أعرفه ، فلما فرغت منه ، أخذت أعد نفسي لبداية جديدة ٠ »

ومن رواياته الاخرى الشهيرة أيضا روايتا Caks and ale و The moon and sixpence وغيرهما ٠

وقد اتجه سمرست موم الى كتابة القصص بعد عام ١٩٢١ عندما نشر أولى مجموعاته القصصية (ارتعاش ورقة The trembling of a leaf) ثم اتبعها مجموعات أخرى خلدت اسمه بين كتاب القصص المعاصرين٠ وتمتاز قصصه بالسلاسة والاتقان ٠ تمتع قارئها وتسليه ، وتزيد من فهمه للانسان وطبيعته ٠ ولعل أروعها قصة « مطر Rain) التي مثلت ولخصت وترجمت وطبعت مئات المرات حتى درت على صاحبها نحوا من نصف مليون دولار ٠

وكان موم كاتبا واسع الثقافة ، كثير المطالعة .

أما فلسفته التي كونها لنفسه فقد كانت فلسفة قائمة على ما يسميه الانكليز Common sense ، فليس كموم ممثلا لهذا العرف العام أو منطق الفطرة والحس السليم ٠ فكان يؤمن بما يثبته العلم ويدع ماوراء ذلك ٠ وكان لايخدع نفسه أو غيره بما يزعم الناس الايمان به من مثل وقيم ، يظهرون الايمان بها ويخفون دوافعهم الأثرة وأطماعهم خلفها ٠ فلم يكن يدهشه أن يجد الشر والمنكر فاشيا ، على علمه بأن الانسان كائن مركب معقد أشد التعقيد ، تجمع فيه خلال الشر والخير معا في توافق عجيب ٠ وقد أبدى لذلك في رواياته تسامحا لم يرض نقاده مع الجناة والآثمين ، مع اعتقاده بأن المرء انما يفعل مايفعله في كثير من الاحيان نتيجة لحكم الظروف والبيئة ، وفطرة فطر عليها لايملك أن يغيرها ، وطبيعة بشرية هي أميل الى الشر والاثرة منها الى الخير والايثار ٠

وقد أكثر الناس فيه لآرائه هذه وهم لاغرو يكثرون • فقد طالما ألف الناس أن يتشدقوا بالمثل والفضائل ، وأن يزعموا الايمان بها والتزامها في حياتهم ، حتى اذا حق الحق وجدتهم قد نبذوها وراءهم ظهريا ، وفعلوا ماتمليه عليهم مصالحهم الاثرة وأطماعهم ، وهم مع ذلك يزعمون بأنهم انما يفعلون مايفعلون في سبيل غاية مثلى ، يخادعون أنفسهم وهم لايشعرون • فهم لذلك ينكرون أن يجبههم أحد بالحقيقة التي يريدون أن يغمضوا أعينهم عنها ، وانهم لواهمون •

وقد نجح موم في اجتذاب القراء لانه عرف كيف يمتعهم بقصصه ورواياته ، وأسلوبه السهل الذي ينساب كالماء الزلال • وقد طالما شعرت وأنا أقرأ له بأنه انما يتحدث الي حديثه الممتع الشيق ، ونحن قاعدان في استرخاء بعد وجبة لذيذة من الطعام • واني أحسب انه كان يقصد الى ذلك ويريده ، فقد وجدت غير مرة فيما كتب أنه يؤثر من اساليب الكتابة أسلوب الحديث المهذب الممتع • ففي معرض حديثه عن الكاتب الانكليزي هنري فيلدنغ وكتابه توم جونز ، يقول عنه ما أخاله ينطبق عليه قبل غيره : « انه يقال أن الاسلوب الجيد هو الاسلوب الذي يماثل حديث الرجل الاديب •وهذا ماينطبق على أسلوب فيلدنغ كل المطابقة• فهو يحدث قراءه ويروي لهم قصته كما لو كان يرويها لعدد من أصحابه وهم قاعدون الى عشائهم وأمامهم زجاجة من خمر »(١) •

1 — W. Somrset Maugham, Ten novels and theis authors, Penguin Books, London, 1969, P. 40.

ولم تكن هذه سمة أسلوب سمرست موم في رواياته ، بل كانت سمة أسلوبه في كل ماكتب • وقد أدرك ذلك R. Cordell في كتابه عنه ، فكتب يقول : « كان سمرست موم يفضل القصة التي يمكن للمرء أن يرويها في النادي أو على العشاء(٢) • وعن بعض كتبه في النقد يقول : « يشرك الكتاب قارئه في علم المؤلف وحبه للمطالعة • فهو ليس كتابا في النقد بالمعنى الحديث للنقد ، وانما يشعر القارىء وكأنما هو قاعد في حديقة دارة مورسك يستمع لمضيفه الشيخ الحكيم يتحدث عن الكتب التي قرأها ، والناس الذين عرفهم » •(٣) •

وسمرست موم لايني يؤكد أن الغاية من قراءة القصص والروايات وكتابتها هي مايجده قارئها من متعة فيها ، وليست غايتها في الدعاية أو التعليم • وهو يحسب أن هذه المتعة والاثارة هي غاية كل فن رفيع ، من شعر وأدب وموسيقا ونحوها ، وليس ذلك شأن القصص والروايات وحدها • وان الرواية التي لاتمتع قارئها ولاتحمله على متابعة قراءتها ، لأقل من أن يؤبه لها •

وقد أبدى سمرست موم في غير مكان اعجابه بطريقة هنري جيمز في رواية قصصه ، اذ كان يروي قصصه على لسان بعض أشخاصها ممن

2 — Richard Cordell, Somerset Maugham, a biographical and critical study, Heinemann, London, 1961, P. 141.

3 — Richard Cordell, P. 205.

له بعض الشأن في أحداثها ، فقد استطاع بذلك أن يخلق من الاثر في نفوس قرائه ماكان يريد،وأن يتجنب مصاعب الكاتب الذي يتخذ لنفسه سمات الراوي السميع العليم العارف بكل شيء • فان كل ما لايعلمه راويه عندئذ يترك غامضا مجهولا ، الى ان يحين موعد كشفه للقارىء في رأي الكاتب(٤) • وقد استخدم سمرست موم هذا الاسلوب في عدد من رواياته ، كما لجأ أحيانا الى رواية بعض قصصه على لسانه ، دون أن يجعل لنفسه دور البطولة في قصصه هذه ، وهي طريقة في الرواية كان سمرست موم قد أبدى اعجابه بها كذلك ونسبها الى هيرمن ملفل(٥) •

وقد توفي سمرست موم سنة ١٩٦٥ ، فأوصى ألا يصلى عليه وأن تحرق جثته • واختتمت بذلك حياته الحافلة التي عاشها ، ونموذجه الذي حاول أن يصنعه منها •

المظهر والمخبر

لست أضمن صحة هذه القصة ، ولكني سمعتها من مدرس للادب الفرنسي في جامعة انكليزية ، وكان رجلا تمنعه مروءته فيما أحسب من روايتها لو لم تكن صحيحة • وكان دأبه أن يلفت نظر طلابه الى ثلاثة من الكتاب الفرنسيين الذين كانوا يجمعون في رأيه تلك الخصال التي

4 — The Summing up, P. 144.

5 — Ten novels, P. 17.

تقوم عليها الشخصية الفرنسية ، فكان يقول أن قراءة آثارهم تعلم قارئها أمورا كثيرة عن الشعب الفرنسي ، حتى انه لو كان الامر اليه لما رضي لأولئك الولاة منا ، ممن تضطرهم مهامهم الى التعامل مع الفرنسيين أن يلوا مقاليد أمورهم الا أن يمتحنوا امتحانا عسيرا في آثار أولئك الكتاب • وكان أولئك الكتاب هم رابليه وما اتصف به من gauloiserie يمكن وصفها بأنها ذرابة لاتكتفي بأن تسمي المسحاة رفشا لعينا ، ثم لافونتين وما اتصف به من bon sens وما هو الا منطق العرف ، وأخيرا كورني والـ Panache •وهي كلمة تترجم عادة في المعجمات بالريشة التي كان الفارس المدجج يضعها على مغفره ، ولكنها تعني مجازا فيما يبدو الجلال واظهار الشجاعة والبطولة والشَوْر ، والفخر والزهو والخيلاء • وكانت تلك الـ Le panache هي التي جعلت الفرنسيين الاحرار في فونتوني يقولون لضباط الملك جورج الثاني،أطلقوا رصاصكم أولا أيها السادة،وكانت تلك الـ Le panache هي التي انتزعت من شفتي كامبرون الفاجرتين قوله في ووترلو ، أن الحارس يموت ولكنه لايستسلم أبدا ، وأنها الـ Le panache كذلك التي تغري شاعرا فرنسيا محتاجا ، وقد منح جائزة نوبل ، أن يفرقها جميعا في ايماءة رائعة • لم يكن علاّمتنا ذاك رجلا عابثا ، وكان يرى في هذه القصة التي سوف أرويها خير مايوضح تلك الخلال الرئيسة في الامة الفرنسية ، حتى كان لها عنده قيمة تربوية سامية •

ولقد أسميتها المظهر والمخبر ، وهو عنوان ما أحسب أنه قد يعتبر

أهم كتاب فلسفي أخرجته بلادنا ، حقا أو باطلا ، في القرن التاسع عشر . وهو كتاب جاف ولكنه مثير ، قد كتب بلغة انكليزية بليغة ، مع طرافة فيه ظاهرة . ومع أن القارىء من عامة القراء ربما لايستطيع أن يتابع فاهما بعض مافيه من محاجات عميقة ، فانه يحس مع ذلك بشيء من المتعة المثيرة كمن يمشي على حبل روحي مشدود فوق هوة فلسفية ، فاذا أنهى الكتاب شعر في نفسه بشيء من الرضى والطمأنينة الى أنه لاشيء يستحق أن يؤبه له كائنا ماكان . ولا عذر لدي في استخدام عنوان كتاب مشهور كهذا الكتاب ، الا أنه يفي بالغرض من قصتي خير وفاء . ومع أن ليزيت لم تكن فيلسوفة الا بذلك المعنى الذي نكون به فلاسفة جميعا ، اذ كانت تعمل فكرها في شؤون المعاش ، فانه كان لها من عمق احساسها بالخبر وصدق تعاطفها مع المظهر مايكاد يصدق معه زعمها بأنها قد توصلت الى التوفيق بين ما لايتفق من النقائض ، مما لايزال الفلاسفة يسعون اليه هذه القرون العديدة . كانت ليزيت فرنسية ، وكانت تنفق ساعات عديدة كل يوم وهي تلبس ثم تخلع ما لبسته في متجر من أرقى متاجر باريس وأكثرها غلاء . وانه دون شك لشغل ممتع لفتاة تدرك تمام الادراك ما لقوامها من رشاقة وجمال . فقد كانت باختصار عارضة أزياء . وكانت ذات طول فارع تملك معه أن ترتدي الثوب المذال في أناقة ، كما كانت هيفاء تكاد وهي في لباس الملعب أن تنشر شذا الخَلَنج حولها . وكانت لطول ساقيها تستطيع أن ترتدي المنامة في امتياز ظاهر ، وكانت بخصرها الدقيق وثدييها الصغيرين تجعل

أبسط لباس من ألبسة السباحة يبدو عليها فتنة للناظرين • وكانت تلف معطف الفرو حول نفسها لفة ذات سحر تجعل أعقل الرجال يقر أن معطف الفرو هذا يستحق كل مال يدفع ثمنا له • وكانت تجلس على الارائك الواسعة كل بدينة من النساء ، أو امرأة خشناء ، أو زحنة، أو عجوز شمطاء ، أو دميمة شوهاء ، وكانت ليزيت تبدو بارعة الحسن والدلال ، فكن لذلك يشترين من الثياب ما كان يلبق بها لباقة معجبة • وكانت نجلاء العينين عسليتهما ، فوهاء وردية الثغر ، ذات بشرة بضة نمشاء قليلا ، وكانت لاتحسن أن تحافظ على تلك الهيئة المتكبرة العابسة الجامدة ، وهي هيئةكانتفيما يبدو ضرورةلازمة لكل عارضة أزياء وهي تدخل رزينة بخطواتها المتزنة ، فتلتفت متباطئة، ثم تخرج بوقار وكأنها تكن للكون ازدراء لايماثله الا ازدراء الجمل له • وكان في عيني ليزيت النجلاوين العسليتين ايحاء ببريق ، كما كانت شفاتاها النكعتان[1] تهتزان وكأنما على وشك أن تنفرجا عن ابتسامة لدى أقل اثارة • ولقد كان ذلك البريق هو الذي جذب انتباه السيد ريمون لوسور •

كان السيد لوسور قاعدا على كرسي من طراز منحول الى عصر الملك لويس السادس عشر بقرب زوجته القاعدة على كرسي آخر •وكانت زوجته هي التي أغرته بالمجيء معها لمشاهدة العرض الخاص بأزياء الربيع ، فكان ذلك برهانا منه على لطفه وطيب نفسه • فقد كان رجلا

(١) الشفة النكعة هي الشفة الحمراء .

تشغله أعمال كثيرة ، هي فيما يحسب المرء أهم بكثير من قضاء ساعة في مشاهدة نيف وعشر فتيات حسان وهن يعرضن أنفسهن في ملابس عديدة مذهلة في تنوعها • ولكنه على ذلك لم يكن يحسب أن يغير لباس منها من زوجه فيجعلها غيرماكانت عليه • وكانت زوجه امرأة طويلة بارزة العظام قد بلغت الخمسين من عمرها ، وقد جاوزت قسمات وجهها في حجمها حدها المألوف • على أنه لم يكن قد تزوجها لجمالها ، ولا هي حسبت في يوم من الايام أو تخيلت ذلك ، حتى في أيام زواجهما الاولى • وانما تزوجها ليجمع بين مصانع الفولاذ الناشطة التي آلت اليها ومصانع سياراته المزدهرة كذلك ، فكان زواجهما زواجا ناجحا وسعيدا • وقد رزقته منها ابنا كان يحسن لعب التنس كما لو كان محترفا ، ويجيد الرقص حتى كأنه رقاص محترف ، ويستطيع أن يلعب البردج بمهارة مع خير لاعبيه • كذلك رزقته منها بنتا ، ثم استطاع بفضل الصداق الذي زودها به من أن يزوجها من أمير ذي نسب في الامارة عريق أو يكاد أن يكون ، فكان من حقه لذلك أن يفخر بولديه • وقد أمكنه بما صبر وجاهد ، وبما أوتي من تعقل واستقامة أن يثري حتى امتلك الجزء الاعظم من أسهم معمل للسكر وشركة صور متحركة وشركة صانعة للسيارات وصحيفة • ثم كان له أخيرا بعد أن أنفق من ماله ما أنفق أن يقنع أولئك الناخبين الاحرار المستقلين في احدى المحال فيدخلوه مجلس الشيوخ • وكان الى ذلك رجلا وقور المحضر ، لطيفا على بدانته ، أقشَر ذا لحية مستطيلة مشذبة شيباء ، ورأس أصلع ، وقد تراكم الشحم على قفاه •

ولم يكن ثمة حاجة أن ترى الزر الاحمر الـذي كان يزين به سترته السوداء لتعلم أنه رجل عظيم الشأن • وكان من أولئك الرجال الذين يحزمون أمرهم في عجلة ، فلما قامت زوجه لتذهب الى حيث تلعب البـردج ، ودعها قائلا إنه سوف يذهب ماشيا ، طلبا للرياضة ، الى مجلس الشيوخ حيث يستدعيه ولاؤه لوطنه ، ولكنه لم يبعد في سيره ذاك الابعاد بل اكتفى بأن يقصر رياضته على التردد جيئة وذهابا في زقاق صغير ظن محقا أن فتيات متجر الخياطة سوف يخرجـن منه بعـد انقضاء ساعات العمل • ثم لم يمض على انتظاره ربع ساعة أو نحوها حتـى رأى عددا من النساء يظهرن زرافات ، منهن الفتيات الجميلات ،ومنهن من بعد عهدهن بالصبا والجمال ، فاستدل من ذلك أن اللحظة التي كان ينتظرها قد أهلت ، وما هي الا دقيقتان أو ثلاث حتى خرجت ليزيـت الى الطريق • وكان الشيخ مدركا تمام الادراك أنه لم يكن له من هيئته وسنه مايحببه الى الفتيات عندما يرونه لأول مرة ، ولكنه كان يجـد لمركزه وثروته خير عوض عما يفتقده من وراء الشباب • وكانت ليزيت تمشي مع صاحبة لها ، وكان ذلك خليقا أن يرتبك له رجل أقل شأنا ، ولكن الشيخ لم يتردد أو يتلكأ ، بل أقبل عليها من فوره ثم رفع قبعته في أدب ، ولكنه لم يبالغ في رفعها فتظهر صلعته كاملة ، ثم رجا لهـا مساء سعيدا فقال وهو يبتسم ابتسامة تودد :

« Bon soir, Mademoiselle »

ولكنها لم تزد عن أن تخطف بصرها نحوه،ثم أن شفتيها النكفتين المنفرجتين عن ابتسامة أطبقتا ، ولوت برأسها عن الرجل وانخرطت

في حديثها مع صاحبتها وهي تمشي مظهرة قلة اكتراث بالغة . ولكن الشيخ لم يسؤه ذلك أو يربكه ، بل أنه استدار ثم تبع الفتاتين على بعد أذرع منهما وهما تقطعان الزقاق الصغير فتلجان الجادة ثم تستقلان الحافلة عند بلاس دو لا مادلين . وقد أرضى ذلك الشيخ كل الرضى، إذ أوصله ذلك الى عدد من النتائج الصحيحة . فان عودة الفتاة الى بيتها بصحبة فتاة من صويحباتها يدل دلالة قاطعة أنها لا عاشق مُخادن لها . كذلك فان ليها رأسها عنه عندما بادرها بالتحية يدل على أنها فتاة متحفظة مهذبة ومحتشمة . وكان الشيخ يحب ذلك في الفتيات إذا كن حسناوات . ثم ان معطفها وازارها وقبعتها السوداء البسيطة وجواربها الشفيفة كلها تدل على رقة حالها ومن حسن خلقها واستقامتها . ولقد بدت ثيابها تلك جميلة جمالها وهي تلبس تلك الثياب الفاخرة التي شاهدها بها من قبل . ولعله أحس بوخز يصل شغاف قلبه فيمسه، وكان ذلك احساسا لذيذا وأليما معا ، وهو احساس لايذكر أنه أحس بمثله منذ سنوات . ولكنه عرف من فوره ، فوشوش قائلا : « انه الحب ورب السما » .

ولم يكن صاحبنا الشيخ يحسب أنه سوف يحس بمثل هذا الاحساس مرة أخرى . ثم أنه شد من كتفيه ومشى مشية الواثق بنفسه ، فذهب الى مكتب من مكاتب التحري الخاصة حيث طلب أن يُتَحَرى له عن فتاة تدعى ليزيت ، تعمل عارضة أزياء في جهة كذا . ثم إنه تذكر أنهم كانوا يبحثون في موضوع الدين الامريكي في مجلس الشيوخ ، فاستقل

عربة ذهبت به الى ذلك البناء الشامخ ، ودخل المكتبة حيث كانت هناك أريكة كان يفضل الجلوس عليها ، وسرعان ما أسلم نفسه للنوم في اغفاءة لذيذة . أما المعلومات التي طلبها فقد تلقاها بعد ثلاثة أيام، وكان مادفعه لقاء الحصول عليها ثمنا بخسا . كانت المدموزيل ليزيت لاريون تعيش مع عمة لها مترملة في شقة ذات حجرتين في حي من باريس يعرف بباتينيول . أما والدها فكان بطلا جريحا من أبطال الحرب العظمى ، وكان يملك محلا لبيع الدخان في بلدة ريفية صغيرة في الجنوب الغربي من فرنسة . وكان ايجار الشقة ألفي فرنك ، وكانت تعيش حياة مستقيمة ، وان كانت تحب مشاهدة الافلام ، ولم يكن يعرف لها عاشق، أما عمرها فكان تسعة عشر عاما . وقد أثنت عليها بوابة المسكن ، كماكانت محبوبة بين صاحباتها في المتجر . وبدا جليا أنها كانت فتاة محترمة . ولم يملك الشيخ الا أن يظن أنها خير من يؤنس سويعات وحدته ، اذ يطلب الراحة من عناء العمل ومشاغل الحكومة .

وليس من الضروري أن نقص تفاصيل المراحل التي جازها الشيخ ليحقق الغاية التي وضعها نصب عينه ، فقد كان أسمى مقاما وأكثر أعمالا من أن يهتم بنفسه بذلك الامر ، ولكنه عهد به الى كاتم سر له كان بارعا في التعامل مع أولئك الناخبين ممن لم يكن قد قرّ رأيهم بعد في أصواتهم كيف يدلون بها . وكان بلا ريب رجلا يحسن أن يعرض على فتاة شريفة ، ولكن فقيرة ، ماقد تجنيه من الفوائد لو أتاح لها حسن طالعها أن تحظى بصداقة رجل كسيده . فقام كاتم السر بزيارة للعمة

الارملة واسمها مدام سالادان ثم أعلمها أن المسيو لوســـور ، وهـو السباق دائما ، قد بدأ يهتم بالافلام ، بل كان آنئذ على وشك أن يبدأ انتاج فلم (وان هذا ليدل كيف يمكن للرجل الفطن أن يفيد من حقيقة قد يمر بها غيره من البسطاء مر الكرام) . وقد أخذ السيد لوسور بطلعة الآنسة ليزيت في متجر الخياطة ، وبهيئتها في لباسها ، فخطر له أنها قد تصلح لدور كان في ذهنه لها فتمثله (كان الشيخ كغيره مـن الاذكياء يلتزم بأقصى مايمكن من الصدق) . ثم ان كاتم سـره دعـا السيدة وابنة أخيها الى عشاء ، حيث يمكن أن يزدادوا تعارفا بعضهم مع بعض ، كما يمكن للشيخ عندئـذ أن يحكم على الآنسـة ليـزيت وصلاحها لما ظن أنها تصلح له من الظهور على شاشة السينما . وقالت السيدة سالادان إنها سوف تستأمر في ذلك ابنة أخيها ، وان كانت من جانبها تظن العرض معقولا ومقبولا .

ولما عرضت السيدة سالادان الامر على ليـزيت ، ثم شـرحت لها عن مقام داعيهما الكريم ورفعة مكانته ، فان الصبية هزت كتفيها الجميلين في ازدراء قائلة : « Cette vieille carpe » وهو مايمكن ترجمته ترجمة غير حرفية بذلك العجوز الازعر .

قالت السيدة سالادان « وماذا يهمك من ذلك اذا كان سيهيىء لك دورا تمثلينه ؟ »

فقالت ليزيت : « El ta seaur »

وهو تعبير يعني بطبيعة الحال : وأختك ، ثم لاتنبو عنه الأذن ،

بل قد يحسب في غير محله • ولكنه في الواقع تعبير أقرب الى السوقية، لاتستعمله الفتيات فيما أحسب الا اذا أردن أن يفجأن محدثيهن ، وهو يعبر عن انكار بات• وان الترجمة الصحيحة الوحيدة باللفظ المُعرَّب لأبذأ من أن يخطها قلمي المهذب •

قالت السيدة سالادان « مهما يكن ، فان العشاء سوف يكون رائعا، ثم انك لم تعودي جارية صغيرة منذ اليوم » •

« وأين قال أننا سنتعشى ؟ »•

« في شاتو دو مادريد ، وهو أغلى مطعـم في العـالم كما يعرف الجميـع » •

أجل ، ولم لايكون كذلك،والطعام فيه جيد،والخمرة ذائعة الصيت• وقد أقيم بحيث يغدو في ليلة جميلة من ليالي الصيف الباكـر مطعما مسحورا • وبدت على وجنة ليزيت غمَّازة جميلة ، كما افتر ثغرهـا الأقنى الكبير عن ابتسامة أبدت أسنانا كأنها اللؤلؤ النضيد •

ثم غمغمت قائلة : « وبوسعي أن أستعير ثوبا من المتجر » •

وبعد بضعة أيام أحضرهما كاتم السر في سيارة أجرة أقلت السيدة سالادان وابنة أخيها الفاتنة الى بـوا دو بولوني • كانت ليزيت رائعة في زي من أكثر أزياء الشركة نجاحا ، كما بدت السيدة سالادان على درجة كبيرة من الوقار في ثوبها الاسود الاطلس وقبعتها التي خاطتها ليزيت خصيصا لهذه المناسبة • وقام كاتم السر بتعريف السيدتين الى المسيو

لوسور الذي حياهما في وقار عطوف تحية السياسي الذي يكرم زوج ناخب ذي شأن من أهل محلته وابنتها • وقد قدر الرجل بدهائه أن يكون ذلك دون ريب مايحسبه الطاعمون الذين قعدوا الى جواره ممن كانوا يعرفونه• وقد أمضوا وقتا طيبا في عشائهم ، ثم لم يمض شهر على ذلك حتى كانت ليزيت قد انتقلت الى شقة صغيرة فاتنة على مقربة من مكان عملها ومن مجلس الشيوخ معا • وكان أثاث الشقة حديث الطراز ، أثثها منجد ذائع الصيت • وقد أراد المسيو لوسور الى ليزيت أن تبقى في عملها ، اذ أعجبه تماما أن يكون لديها ماتشغل به ساعات يومها في الوقت الذي يشغله عنها ماكان مضطرا الى تسييره من أموره وشؤونه، فان ذلك كفيل بأن يبعدها عن العبث ، وقد كان يعرف حق المعرفة أن المرأة التي لاتجد ماتعمله طوال يومها خليقة أن تنفق من المال أضعاف ماتنفقه المرأة العاملة • ولاشك أن العاقل من الرجال يحسب لكل أمر من ذلك حسابه •

ولكن البذخ كان رذيلة غريبة عن طبع ليزيت • كان الشيخ كريما ودودا ، وكان مما أرضاه عنها أنها بدأت بعد حين توفر بعض المال، وكانت تدبر أمر منزلها بحكمة وتدبير ، وتقتني ثيابها بأسعار الجملة ، كما كانت ترسل كل شهر الى أبيها البطل مقدارا من المال ، فكان ينفقه في شراء قطع من الارض • ثم انها بقيت تعيش حياتها البسيطة ، وقد سر المسيو لوسور أن يعلم عن طريق البوابة التي كانت تريد لابنها وظيفة في ديوان حكومي أنه لم يكن لليزيت من زوار غير عمتها ، وصاحبة أو صاحبتين لها من المتجر •

كان الشيخ سعيدا كما لم يكن في حياته من قبل • وقد أرضاه أن يعلم أنه حتى في هذه الحياة الدنيا فان للاحسان جزاءه • والا ففيم كان ذهابه مع زوجه الى متجر الخياطة عصر ذلك اليوم الذي كانوا يبحثون فيه موضوع القرض الامريكي في مجلس الشيوخ ، لولا عطفه الخالص وحنانه ؟ وبذلك أتيحت له رؤية ليزيت الفاتنة لأول مرة • وكان يزداد بها هياما كلما ازداد بها معرفة ، فقد كانت رفيقة مبهاجا ، كما كانت مرحة عابثة • وكانت على قدر من الذكاء فكانت تسمع اليه وتفهم عنه وهو يشرح لها شؤون أعماله أو شؤون الدولة • وكانت تريحه عندما يكون مرهقا ، وتسليه عندما يكون كئيبا • تسر لرؤيته عندما يزورها ، وكان كثيرا مايزورها بين الخامسة والسابعة عادة ، وتحزن لذهابه • وكانت تخيل اليه أنه ليس عاشقها فحسب ، بل صديقها أيضا • فاذا تعشيا مرة في شقتها ، كان الطعام الذي أحسنت اعداده ، والراحة الأنيسة يحملانه على أن يقدر مباهج الحياة البيتية فيحسن تقديرها • لقد كان يبدو أصغر بعشرين عاما مما كان • بل كان يشعر بذلك ويحسه ، ويدرك حظه السعيد ، وان كان يحسب أنه من حقه أن ينال هذا الجزاء بعد عمر قضاه في العمل الشريف وخدمة الشعب •

لذلك فان صدمة المفاجأة كانت صدمة قوية بعد أن سارت الامور على خير مايرام زهاء عامين • فقد عاد الشيخ على غير انتظار الى باريس صباح يوم منأيام الاحد من زيارة قام بها الى محلتهالانتخابية،

كان مقررا لها أن تستمر حتى آخر العطلة ، ففتح باب الشقة بمفتاحه ودخل وهو يحسب أنه سوف يجد ليزيت في فراشها ، أذ كان اليوم يوم راحة ، إذ فوجىء بهاوهي تتناول فطورها في غرفة نومها وجها لوجه مع شاب مهذب لم يكن قد رآه من قبل ، كان يلبس منامته الجديدة (أي منامة الشيخ) • وقد دهشت ليزيت لمرآه ، بل أنها ذعِرت ذعرا واضحا ، وقالت :

« Tiens ، من أين أقبلت ؟ لم أكن أنتظر قدومك حتى الغد » •

فأجاب دون تفكير : « لقد أقيلت الوزارة ، فأرسلوا الي ليعرضوا علي وزارة الشؤون الداخلية » • ولكن ذلك لم يكن ما أراد أن يقوله ، بل نظر الى الشاب الذي كان يرتدي منامته نظرة هياج شديد ثم صاح « ومن يكون هذا الشاب ؟ » •

وانفرج ثغر ليزيت الاقنى الكبير عن ابتسامة آسرة وقالت : « انه عاشقي » •

فصاح بها الشيخ « أتحسبينني مغفلا ؟ فأنا أعلم ذلك » •

قالت : « ففيم تسأل اذن ؟ » •

كان المسيو لوسوررجل فعل لا قول ، فقام من فوره الى ليزيت ولطمها لطمة قوية على خدها الايمن بيده اليسرى ، ثم لطمها لطمة شديدة على خدها الايسر بيده اليمنى • فصاحت ليزيت « وحش » •

ثم انه التفت الى الشاب الذي كان يرقب المشهد العنيف مرتبكا ،

ثم شد من قامته ومد ذراعه مشيرا الى الباب في حركة مؤثرة وصاح «اغرب حالا ٠٠٠ اغرب من هنا » ٠

وقد كان من المعقول أن يحسب المرء أن المظهر الآمر لرجل اعتاد أن يهز جمهورا من دافعي الضرائب الغاضبين ، وأن يسيطر بعبوسه على الاجتماع السنوي لخائبي الامل من المساهمين ، كان كافيا ليحمل الشاب على الجري نحو الباب ٠ ولكن الشاب لزم مكانه ، في حيرة وتردد دون شك ، ولكنه لزم مكانه على كل حال ، ونظر الى ليزيت نظرة استعطاف ورجاء وهز كتفيه قليلا ٠

وصاح الشيخ « ماذا تنتظر ؟ أم تريدني أن ألجأ الى العنف ؟ »

قالت ليزيت « انه لايستطيع أن يخرج بمنامته » ٠

« ولكنها ليست منامته ، انها منامتي أنا » ٠

« انه يريد ثيابه » ٠

ونظر المسيو لوسور حوله فوجد على كرسي خلفه ثيابا منوعة من ثياب الرجال قد طرحت على الكرسي طرحا دون ترتيب ، فرمى الشيخ الشاب بنظرة احتقار ، ثم قال بلهجة ازدراء «بوسعك أن تأخذ ثيابك»٠

فأخذ الشاب ثيابه على ذراعيه ، ثم حمل نعليه اللذين وجدهما مطروحين على الارض ، ثم خرج من الغرفة لايلوي على شيء٠كان الشيخ ذلق اللسان مفوها فأفاد من ذلك كما لم يفد منه من قبل ، فأعلم ليزيت عن رأيه فيها ، فلم يكن فيه اطراء لها ، ثم صور لها قلة عرفانها

بالجميل في صورة قاتمة • وقد لجأ الى واسع علمه بمفردات اللغة كي يختار لها من ألقاب التقريع والازدراء مايدعوها به ، ثم أنه أشهد قوى السماء جميعا على الخيانة الفظيعة التي لم تقابل بها امرأة من قبل ما أولاها رجل شريف من ثقة • خلاصة القول أن الشيخ قال كل ما أملاه عليه غضبه وخيبة أمله وغروره الجريح • ولم تحاول ليزيت أن تدافع عن نفسها ، بل أصغت اليه في سكون مطرقة وهي تفتت دون وعي لفافة الخبز التي منعها ظهور الشيخ من الاتيان عليها • وأرشق الشيخ النظر الى صُحَيفتها ثم قال :

« لقد حملني الشوق علي أن تكوني أول من يعلم بما أحمل من نبأ عظيم ، حتى اني عجلت اليك من المحطة • وقد كنت أنتظر أن أصيب قليلا من الفطور قاعدا على طرف سريرك » •

« واحبيباه ، أولم تفطر بعد ، سوف أطلب لك فطورا على الفور» •

« لست أريد فطورا » •

« هراء • بل لا بد أن تحافظ على صحتك من أجل هذه المهمة التي توشك أن تقع على عاتقك » •

ثم قرعت الجرس ، فلما جاءت الوصيف أمرتها أن تحضر قهوة ساخنة ، فأحضرتها ، وصبتها ليزيت ، ولكنه رفض أن يشرب منها • ثم طلبت له لفافة خبز بالزبدة فهز كتفيه وأخذ يأكل وهو يدلي بملاحظاته عن غدر النساء ، وهي صامتة ، الى أن قال أخيرا : « مهما يكن فانك لم تبلغ بك القحة أن تحاولي الاعتذار لذنبك • وأنت تعلمين أنني لست

بالرجل الذي يساء اليه دون عاقبة • فأنا الكرم بعينه عندما يحسن الناس سلوكهم معي ، ولكني لا أرحم اذا بدا لي منهم مايسوء • ولسوف أترك هذه الشقة فلا أعود أبدا حالما أشرب قهوتي » •

وتنهدت ليزيت •

« وسوف أخبرك الآن أنني كنت قد أعددت لك مفاجأة ، فقد كنت عازما على الاحتفال بالذكرى الثانية للقائنا ، فأخصك بمبلغ من المال يغنيك عن الحاجة اذا حدث لي حادث » •

فسألته ليزيت في كآبة : « وكم كان مبلغه ؟ » •

قال « ألف ألف فرنك » •

وتنهدت ثانية • وعلى حين غرة أحس الشيخ بشيء ناعم يصيبه في رأسه من الخلف ، فذعر وصاح « ماهذا ؟ » •

قالت : « انه يعيد منامتك اليك » •

وكان الشاب قد فتح الباب ورمى بالمنامة على رأس الشيخ ثم أغلقه مرة أخرى • وخلص الشيخ نفسه من البنطال الحريري الذي كان قد علق حول رقبته •

«يا لها من طريقة يعيدها بها الي ، بل ان صاحبكهذا غير أديب»•

فوشوشت ليزيت قائلة : « انه يفتقد وجاهتك » •

« وهل هو ذو عقل كعقلي ؟ »

« لا » •

« فهل هو ثري ؟ »

« انه مفلس » .

« عجبا .. عجبا ، فما الذي ترين فيه اذن ؟ » .

قالت ليزيت مبتسمة : « انه شاب » .

فأطرق الشيخ ناظرا الى الصُحَيفة أمامه ، ونفرت من عينيه دمعة سالت على خده الى القهوة . ونظرت اليه ليزيت في حنان قائلة « يا صاحبي المسكين ، أنّى للمرء أن ينال كل مايطلبه في هذه الحياة » .

« لقد كنت أعلم أنني لست شابا ، ولكني حسبت أن جاهي ومقامي وحيويتي خير عوض عن ذلك . بل ان من النساء من لايطلبن الا الرجال الذين تجاوزوا مرحلة الشباب . وان بعض الممثلات الشهيرات ليحسبنه شرفا لهن أن يكن صويحبات وزير . ولست من العامة فأُعيّرك بأصلك الوضيع ، ولكن ذلك لا يغير من حقيقتك ، فأنت لست الا عارضة أزياء ، وقد انتشلتك من شقة لم يكن أجرها يتجاوز ألفي فرنك في العام . لقد رفعتك بذلك درجة » .

« ولكنني ابنة أبوين شريفين رغم فقرهما ، ولست بالتي أخجل من أصلي ، وليس لك أن تعنفني لانني كنت أكسب قوت يومي من عمل بسيط » .

« فهل تحبين هذا الغلام ؟ » .

« نعم » .

« أولست تحبينني ؟ »

« بلى ، أحبك أيضا · انني أحبكما معا ، ولكنه حب مع الفارق · فأنا أحبك لمقامك ووجاهتك ، ولان حديثك ممتع ومفيد · أحبك لكرمك ونبلك · وأحبه لان عينيه نجلاوان وشعره رَجِل ، ولانه بارع في الرقص ·· وليس في هذا غرابة » ·

« ولكنك تعلمين أني لا أستطيع في مقامي أن أذهب بك الى حيث يرقصون ، وأحسب أنه لو كان في مثل عمري لما بقي له من شعره أكثر مما بقي لي » ·

« ان هذا قد يكون صحيحا » قالت ليزيت في قناعة ، دون ان تفطن أن ذلك يغير من الامر شيئا ·

« فماذا تقول عمتك المحترمة ، مدام سالادان ، اذا سمعت بما فعلت ؟ » ·

« انها لن تكون مفاجأة لها تماما » ·

« فهل تعنين أن تلك السيدة المبجلة تقرك على ماتفعلين ؟ عفوك اللهم ، فمنذ متى وأنت على هذا اذن ؟ » ·

« مذ عملت في المتجر أول مرة · انه يسافر في تجارة شركة حرير كبيرة في ليون ، وقد حضر يوما بعيّناته ، فأعجبني وأعجبته » ·

« ولكن ، ألم تكن عمتك هناك فتحميك مما تتعرض له فتاة مثلك

في باريس من اغراء ؟ ماكان ينبغي لها أن تترك لك الحبل على غاربك مع هذا الفتى » ٠

« ولكني لم أطلب الاذن منها » ٠

« ان ذلك كفيل بأن يودي بأبيك العجوز الى القبر ٠ ألم تفكري في ذلك البطل الجريح الذي كوفىء على جهاده في سبيل وطنه بترخيص لبيع الدخان ؟ وهل نسيت أن ذلك الديوان سيؤول أمره الي كوزير للشؤون الداخلية ، وأنه يكون من حقي أن ألغي ذلك الترخيص لسلوكك هذا المنكر » ٠

«ولكني أعلم أنك رجل مهذب وأكبر من أن تفعل شيئا حقيرا كهذا» ٠

ولكنه هز يده في حركة مؤثرة ، فيها مع ذلك تصنع ظاهر ٠

« لا تخشي شيئا ، فلن أنزل الى هذا الدرك فأنتقم لنفسي من رجل يستحق من وطنه كل خير لطيش مخلوقة يضطرني وجداني الى احتقارها » ٠

وكذلك تابع الشيخ فطوره المتقطع ، دون أن تنبس ليزيت ببنت شفة ، فساد بينهما الصمت ، حتى شبع وتغير مزاجه وبدأ يغلب أسفه على نفسه شعوره بالغضب منها ، وحسب جاهلا طبع النساء أنه سيثير ندمها اذا استدر شفقتها عليه ٠

« انه قاس حقا أن يغير المرء عادة اعتادها ٠ لقد كان قدومي الى هنا راحة وسلوانا عندما كنت أستطيع أن أختلس لحظة من مشاغلي وأعبائي ٠ هل ستندمين علي ولو قليلا يا ليزيت ؟ » ٠

« دون شك » •

وتنهد عميقا •

« ما كنت أحسبك قادرة على كل هذا الخداع » •

قالت متفكرة « فانه الخداع اذن الذي يصعب عليك ؟ ما أعجب الرجال في ذلك • فانهم لايستطيعون أن يغفروا لمن يستغفلهم ، ومـا ذاك الا لغرورهم بأنفسهم ، حتى أنهم ليهتمون بأشياء لاقيمة لها ولا وزن » •

« هل تسمين هذا أمرا لاقيمة له ولا وزن ، أن أجدك تفطرين مـع شاب يرتدي منامتي ؟ »

« ولكنه لو كان زوجي وكنت عاشقي لما أنكرت من ذلك شيئا » •

« نعم ، ولكنني أكوت أنا الذي أخدعه عنـدئذ ، ويكون عرضـي موفـورا » •

« أي أنه يكفي أن أتزوجه ليصبح كل شيء على مايرام ؟ » •

فلم يكد يفهم قصدها ، ولكنه سرعان ماومض في ذهنه مرادها ، فحدجها ببصره • كان في عينيها ذلك البريق الذي كان يفتنه دوما ، وكان على ثغرها الاقنى الكبير طيف ابتسامة ماكرة •

« اياك أن تنسَي أني عضو في مجلس الشيوخ ، وكل تراث في البلاد يجعل مني عماد الخلق الرفيع والسلوك القويم » •

« فهل تأبه لذلك كله ؟ » •

وأخذ الشيخ يداعب لحيته الانيقة المستطيلة في حركة هادئة رزينة.

« انه لايساوي عندي قشرة بصلة » . ولكن التعبير الذي استخدمه كان ذا ظلال فرنسية ربما كانت تفجأ أولئك المحافظين من أنصاره .

قال « فهل يرضى أن يتزوجك ؟ » .

« انه يهيم بي حبا . ولاشك أنه سيتزوجني ، ولو أعلمته أن بائنتي ألف ألف فرنك لما طلب أكثر من ذلك » .

وحدجها الشيخ بطرفه مرة أخرى . لقد كان غاضبا عندما أعلمها عن عزمه في أن يخصها بألف ألف فرنك،فلقد بالغ كثيرا في ذلك لانه أراد أن يبين لها كم قدكلفتها خيانتها . ولكنه لم يكن بالرجل الذي يرجع عن قوله اذا تعلق الامر بكرامته.

« انه أكبر بكثير من كل مايمكن أن يحلم به شاب في مثل مركزه . ولكن ، اذا كان يهيم بك فانه سوف لن يفارقك » .

« ألم أخبرك بأنه يسافر في التجارة ، فهو لايستطيع أن يكون في باريس الا في آخر الاسبوع » .

« فقد تغير الوضع اذن . وانه لما يسره أن يعلم أني سأرعاك أثناء غيابه » .

« يسره ذاك جدا » .

ثم انها قامت من مقعدها وأراحت نفسها على حضن الشيخ ، تسهيلا لهذا الحوار بينهما ، فضغط يدها في حنان .

« اني مغرم بك يا ليزيت ، وأكره لك أن تخطئي ، فهل أنـت واثقة من أنه سوف يسعدك؟ » ٠

قالت : « أظن ذلك » ٠

« سوف استعلم عن ذلك ، فاني لا أقبل بحال أن تتزوجي من شخص لا أثق في خلقه القويموسلوكه الحميد ٠ بل ينبغي من أجلنا جميعا أن نكون على ثقة من هذا الشاب قبل أن ندخله حياتنا » ٠

لم تعترض ليزيت على ذلك ٠ فقد كانت تعلم أن الشيخ يحب النظام والتريث فيما يعمل ٠ ثم انه استعد للذهاب فقد كان يريد أن يخبر المدام لوسور بأخباره ، وكان عليه أن يتصل ببعض رجال جماعته النيـــابية ٠

قال وهو يودع ليزيت وداع المحب « بقي شيء واحد ٠ اذا تزوجتِ فاني لابد أن أصر على أن تتركي عملك ٠ فان مكان الزوجة في بيتها، وانه لما يناقض مبادئي جميعا أن تزاحم النساء المتزوجاتُ الرجال على لقمة عيشهم » ٠

وقد أطرف ليزيت أن تتخيل منظر شاب بادن وهو يزرع الغرفة هازاً وركيه ليعرض آخر نماذج الثياب ، ولكنها كانت تحترم مبادىء الشـــيخ ٠

قالت « كما تشاء ياحبيبي » ٠

وقد استعلم الشيخ عن الشاب ، فكانت نتائج استعلامه مرضية

مقبولة • وتم الزواج صباح يوم من أيام السبت بعد الفراغ من الاجراءات الشرعية • وكان شاهدا الزواج وزير الشؤون الداخلية المسيو لوسور والسيدة سالادان • وكان العريس فتى رشيق القد ، أشم الانف ، حلو العينين ، ذا شعر رَجِل أسود قد سرحه فرده عن جبينه الى مؤخر رأسه ، فكان يغلب عليه مظهر لاعب التنس قبل مظهر تاجر الحرير • وقد تأثر العمدة بحضور فخامة وزير الشؤون الداخلية ذاته فألقى كما هي عادة الفرنسيين كلمة حاول أن يجعلها بليغة ، فبدأ فأعلم العروسين بما كانا يعلمانه من قبل فيما أحسب ، فأخبر العريس بأنه نجل أبوين محترمين ، وأنه يعمل في عمل شريف ، ثم هنأه لزواجه في عمر يغلب على الشبان فيه أن لايعبؤوا الا باللهو والعبث • ثم انه ذكر العروس بأن أباها من أبطال الحرب العظمى ممن كوفىء على جراحه المجيدة فمنح ترخيصا لبيع الدخان • ثم أعلمها كذلك أنها كانت تكسب معاشها مذ قدمت الى باريس من مهنة شريفة في متجر كان يحسب من أمجاد الذوق والترف الفرنسيين • وكان العمدة متأدبا فذكر في ايجاز بعض من ذاع صيتهم من عشاق الروايات ، فذكر روميو وجولييت اللذين فرق بينهما خلاف مؤسف بعد زواج قصير ، وذكر بول وفرجينيا التي لاقت حتفها في البحر ولم تهتك ستر عفافها بتجردها من ثيابها • وذكر أخيرا دافنس وكلو اللذين لم يفض أحدهما الى صاحبه الا بعد أن أحلت ذلك المراسم الشرعية • وكان خطابه مؤثرا حتى ان ليزيت بكت قليلا • ثم انه أطرى السيدة سالادان التي كانت مثالا احتذته ابنة

أخيها الشابة الفاتنة فحماها مما قد تتعرض له فتاة وحيدة في مدينـة كبيرة من أخطار • ثم انه هنأ العروسين السعيدين على الشرف الذي أولاهما اياه وزير الشؤون الداخلية اذ رضي أن يكون أحد الشاهدين في حفل زواجهما • لقد كان ذلك خير شهادة على استقامتهما ، أن يكون هذا العلم من أعلام الصناعة ورجل الدولة الشهير قد وجد لديه الوقت اللازم ليقوم بهذا العمل المتواضع لهما في مقامهما المتواضع مما أثبت معـه نبلا وطيبة قلب مع عمق احساس بواجبه • ولقد دل عمله هذا على تقديره للزواج الباكر كما أكد على سلامة الاسرة وأهمية التناسل لكي تزداد هذه الارض الفرنسية الغناء مجدا وقوة •

كان ذلك حقا خطابا رائعا •

وقد أقيم حفل افطار الزفاف في شاتو دو مدريد الذي كانت له في نفس الشيخ وشائج عاطفية • ولقد كنا ذكرنا من قبل أن الوزير (كما ينبغي أن نسميه منذ الآن) كانت له من بين اهتماماته الكثيرة علاقة بشركة سيارات ، فلقد كانت هديته للعريس في يوم زفافه سيارة جميلة ذات مقعدين من صنع شركته • فلما انتهى الغداء ، استقل العروسان تلك السيارة الى حيث يمضيان أيام زواجهما الاولى ، التي لم يكن مقدرا لها أن تطول بعد نهاية الاسبوع ، اذ كان على الشاب أن يعود الى عمله الذي سوف يحمله الى مارسيلية وتولون ونيـس • وقبلـت ليزيت عمتها ثم قبلت المسيو لوسور وهي تهمس « سوف أنتظرك في الساعة الخامسة يوم الاثنين » •

فأجابها قائلا : « سوف أكون هناك » •

ثم مضت بهما السيارة ، وبقي المسيو لوسور والسيدة سالادان يتابعان بنظريهما السيارة الصغيرة الصفراء •

وتنهدت المدام سالادان التي كانت تشعر بشيء من الاسى غير مفهوم ، اذ لم يكن من عادتها أن تشرب الشمبانيا على الغداء ، وقالت : « طالما أنه سيسعدها » •

فقال الشيخ في قوة : « اذا لم يسعدها فحسابه علي » •

واقترب منه سيارته •

« Au revoir, chère Madame • بوسعك أن تستقلي الباص عند أفِنو دو نوفيي » •

ثم استقل سيارته ، وتنهد في ارتياح وهو يفكر في شؤون الدولة التي تنتظر اهتمامه • لقد كان جليا أنه أليَق به وبمقامه أن تكون خدنه ، لا فتاة تعرض الازياء في متجر ، ولكن زوجة محترمة •

* * *

ثلاث قصص لفرانسواز ساغان

• تقديم : جاك لوكارم*

ترجمة : كمال فوزي الشرابي

قد يكون النجاح العجيب الذي لقيته فرانسواز ساغان [1] في العام ١٩٥٤ قابلاً للتفسير على الرغم من ادعاء البعض عدم الوصول الى تفسيرٍ لـه . لا ريب في ان الجمهور دُهش آنذاك من مرأى صبيـة تعبر عن افكارهـا ومشاعرها بصدق واخلاص ، وتتحـاشى كل ما في « الرواية النسائية » من إغراءات محبّبة . كما ان هذا الجمهور أصيب بصدمـة السذاجـة في حب الاطلاع لديه ، وهو يبحث في روايات فرانسواز ساغان عن صـورة للشباب اللا أخلاقي .

تُسمعنا هذه الروايات صوتاً لا ترتفع له نبرة أبداً ، صوتاً يمتلىء بالحنان والمرارة . هنا نقترب كثيراً من روايات روجيه نيمييه [2] ، إلا ان المرح في روايات ساغان يبدو أكثر غوى ، والحزن أشد عذوبة .

لا تلتزم فرانسواز ساغان بأية ايديولوجية معيّنة ، وعدم التزامها ينبع

★ جاك لوكارم Jacques Lecarme : استاذ مساعد في الآداب الفرنسية بجامعة فيلتا نوز Villetaneuse (باريس ١٢) .

من عفويتها . انها تبسط أمامنا عالماً من الثراء والفراغ والترف ، ولكن هذا كله ليس إلا ديكوراً مميزاً لحوادث غرق عاطفية تصوّرها لنا بصوت خفيض ، فيما هي تمزج نكهة التحليل بسحر اللا إكتمال . أما موضوعاتها فهي بسيطة على الدوام ، ويمكن تحديدها في إظهار وجهين ـ غالباً ما يكونان زوجين أو حبيبين ـ أو ثلاثة وجوه . وتصور لنا شخصياتها في معظمها نماذج من البورجوازيين والارستقراطيين العاطلين ، المتحررين ، المنغمسين في الملذات ، تضاف اليهم فئة من المتعجرفين والمتكبّرين الذين يعيثون في الأرض فساداً ولا يهتمون بأمور الحياة الجادّة الكريمة .

لا ينجم لجوء ساغان الى الاقتصاد في وسائل التعبير عن تقشّف مقصود، بل يتأتّى من حدودٍ طبيعية استطاعت ألاّ تتخطّاها أبداً .

لاشك في أن رواياتها ذات هشاشة ، وستفقد بمرور السنين مزيجها من البراءة والانحراف ، وهو مزيج لشدّ ما أدهش في روايتها «مرحباً أيهاالحزن»، لكي تغدو ذات طابع نسائي تقليدي تصوّر لنا العشق المستحيل في مجتمع الاستهلاك .

واذا كانت ساغان قد أشارت مراراً الى « سن الرشد » ،لجان ـ بول سارتر ، و « المدعوّة » لسيمون دوبوفوار كروايتين كان لهما أكبر تأثير في أدبها ، فان أفضل صفحاتها تذكرّنا بسكوت فيتزجرالد [٣] فلديها كما لديه « كل حياة سيرورة ـ سلوك وعمل أو لاعمل ـ نهايتها التقويض » . فالكحول والثراء ينشران سحرهما ، ولكنهما يجعلان الفساد يسيطر ، ويعجّلان بحلول الكوارث . بلى ، في أعمال فيتزجرالد كما في أعمال ساغان ، نرى ذات

السويداء الغنائية ، وذات اليأس الهادىء ، وغوى كتابة يجعلنا نفكر في لحن من ألحان الجاز البطيئة الخافتة .

اشـــــــارات :

(١) ولدت فرانسواز كواريز Françoise Quarez في شهر حزيران ١٩٣٥ في بلدة كاجـار (Cajare) التابعة لمقاطعة لوت (Lot) بجنوب فرنسـا ، واشتهرت في عالـم الادب باسم فرانسواز ساغان Sagan . وهي ابنة صناعي فرنسي . حازت على شهادة الدراسة الثانوية في العام ١٩٥٢ ، ولم تقبل في امتحانات الشهادة التمهيدية لدخول جامعـة السوربون فانصرفت الى التاليف.

وفي هذه القصص الثلاث التي نشرتها ساغان مؤخرا في مجلات مختلفة ، والتي يقرأ القارىء العربي ترجمتها في الصفحات التالية ، نجد ذات الخصائص التي طبعت أدبها بمجمله وهي عـدم الالتزام ، التحليل ، الخبث على لطف ومهارة ويبدو في سخريتها الهادئـة وملاحظاتها اللاذعة ، الجنس أو العشق ، المرح ، تكلف اللامبالاة . أمـا اسلوبها فهو خاص بهـا ، ويتسـم بالرشاقـة والانسياب والسهولة ، وجملها قصيرة ، واضحة ، بعيدة عن المحسنات اللفظية . واما الحوار لديها فهو حيّ متدفق ، ذو حركة سريعة وعبارات دافئة .

ـ من رواياتها : « مرحبا أيها الحزن Bonjour Tristesse » ، وهي اولى رواياتها ، وقد نشرتها في العام ١٩٥٤ . استعارت عنوانها من قصيدة للشاعر الفرنسي بول إيلوار Paul Eluard ونالت بها جائـزة النقاد . « ابتسامـة ما Un Certain Sourire » ، « في شهـر في عـام Dans un Mois dans um An» ، « هل تحبين برامس ..? Aimez - Vous Brahms » « الغيوم العجيبة Les Nuages Merveilleux » ١٩٦١ ، « نوبة الاستسلام La Chamade » ١٩٦٥ ، « حـارس القلـب Le garde du Coeur » ، شـيء من الشمـس في المـاء البـارد Un Peu de Soleil dans l'Eau Froide » ، « جانب وجه ضائع Un Profil Perdu » « السرير غير المرتب Le Lit Défait » ١٩٧٨ .

ـ ومن مسرحياتها : « قصر في السويد Un Chateau en Suède » ١٩٥٩ ، « رداء فالنتين البنفسجي La Rode Mauve de Valentine » ، « الكمانات احيانا Les Violons Parfois » ، « الجـواد المغمى عليـه Le cheval Evanoui » ، « البيانـو في العشـب

« Le Piano dans l'Herbe » ، « خضــار وفواكــه Des Légumes et des Fruits »
١٩٧٨ .

ـ ومن قصصها : مجموعة « عينان من حرير Des Yeux de Soie » .

ـ ولها في السـيرة الذاتية : « فترات صفـاء للروح Des Bleus à l'Ame » ١٩٧٢ ، « اجوبــة Réponses » .

ـ وتجدر الاشارة اخيراً الى ان بعض مسرحياتها ورواياتها واقاصيصها قد اخرج للسينما . نذكر على سبيل المثال لا الحصر : « قصر في السويد » ، « نوبة الاستسلام » ، « شيء من الشمس في الماء البارد » ... ، و « عينان من حرير » وهذا العمل الاخير عُرض على شاشات فرنسا في العام ١٩٧٩ .

ومن اعمالها للتلفاز انها اعـادت في نهاية العـام ١٩٧٧ كتابـة سيرة آل بورجيـا (قيصـر ولوكراشيوس) ، وعُرض فيلمها في العام ١٩٧٩ بفرنسـا أيضاً على الشاشة الصغيرة .

(٢) روجيه نيمييه Roger Nimier (١٩٢٥ ـ ١٩٦٢) روائي فرنسي . احد أقطاب الأدب غير الملتزم الذي نشا بفرنسا بعد الحرب العالمية الثانية . يجمع ما بين التحليل والمرح والسخرية بقيم عالم ينهار ... له روايـات « السيوف » ١٩٤٩ ، « الخيّال الازرق » ١٩٥٠ ، « الاطفـال الحزانى » ١٩٥١ ، « حكاية حب » ١٩٥٣ .

(٣) فرنسيس سكوت فيتزجراند Francis Scott Fitzgerald (١٨٩٦ ـ ١٩٤٠) كاتب اميركي . تعبر رواياته عن خيبة أمل « الجيل الضائع » ... له روايات « غاتسبي العظيم » ١٩٢٥ ، « عذب هو الليل » ١٩٣٤ ، « آخر الأمراء النوّاب » ١٩٤١ (نشرت بعد وفاته) .

قطيعـــــــــة

أضاءت التلفاز وأخذت تنظر اليه ، بعد ان جلست على أريكة ، وركبتاها مثنيّتان تحتها ، وعيناها نصف مغمضتين ، في وضع كان سمّاه مرة « وضعه السِنكَوْريّ » ، وبدا له الآن متكلّفاً مقصودا .

كانت ترتدي كنزة بيضاء ، ذات صوف في منتهى النعومــة حتى لتشعر

العين بنعومته ، وبرز جيدها الأبيض الطويل ، على سحر وغوى ،وانزرعت في جذوره سنابل ذات شقرة ذهبيـة لتغدو أضاميم ثم باقات قبـل أن تؤطّر رأسها الفاتن • « لها جيد تمّة ، وعينا وعلة » •••

هل اكتفى بحلمه ، وبارتعاشه امام هشاشة هـذا الجيد وأمام التألـق الندي لهاتين العينين ؟ بل لقد ذهب به الحمق الى ان يشـير الى «أصالة » هذا العنق ، وهذا الرأس ، وهذين المعصمين الضيّقين • وهكذا أوحى اليه الحب بكلمات إطراء لا يتفوه بها سوى محبيّ الظهور وباعة الألبان •

كان قد وجد خليلته « أرستقراطية » وأعلن عن ذلك • ومن غـير أن يضحك من هذا التعبير ، او بالأحرى من سوقية هذا التعبير ، منحها اهتماماً فيه الكثير من الجمود كالاهتمام الذي يُمنح عادةً للبلّوريات أو للأزهـار الغالية الثمـن •

بلى ، لقد تصرف كخادم يحب الظهور وكمحب للظهور يحب الخدمة ، وهما تعبيران يؤديان معنى واحداً • وكان خجلاً من ذلك ، لأن ما يشعر به لم يكن اعجاباً بشيء يخونه فعلاً ولا احتقاراً له ، وانما شعور بالشيء ذاته • لقد أحب خليلته كما تعود أن يحب المال أو الفنون : أحبها بذوق • وكان يحتقر نفسه لأنه استطاع ان يضيف هذه الكلمات الصغيرة الثمينة والموجبة للشفقة الى هذا الشعور المتسم بالحرية ، والفجاجة ، وقلة الاحترام ، ولأنه اراد ان يضع ورقاً مذهباً وأشرطة حول هذا الشيء الدامي الذي يسمى الحب •

أحب في هذه المرأة الرصانة ، وغياب الانعكاسات الرديئة والمسكنة أو

المشاعر الدنيئة . أحبّها لما كانت تتحاشى فعله ، ولما كانت غير قادرة على فعله. أحبها لحواجزها المجنونة . ومع ذلك ، أي حب يظهر مناسباً لها غير الحب المجنون ؟ ألف مرة ، آه ، الف مرة كان يفضل لو أحبها لخياناتها ، أو لغبائها ، أو لأي عيب من عيوبها الحمقاء ! لكان على الاقل قد فهم تعاسته وسعادته في آن ، وتذوق الارهاق الساخر الذي يشعر به من احتقاره لنفسه ! وأخيراً ، وبشكل خاص ، لربما عرف بهذه الطريقة كيف يقطع علاقاته معها هذا المساء .

تمطّت . كانت ترتدي بنطالاً أسود يبرز مفاتن جسدها . هنا ايضاً خدعته نفسه ، كما كانت تخدعه هي ، إذ كانت في الليل فورة ، وعبودية ، وجنوناً يضمها جميعاً بين ذراعيه ، كانت متهتكة تنقصها العذوبة ، وكان يفتنه ان يراها تبرز في الصباح من جديد غاوية بعيدة .

قال لنفسه : « النار تحت الجليد » ... ولكن كيف ، كيف استطاع أن يطور حبه بدءاً من هذه الرواسم ؟ كيف استطاع ان يسكر نفسه بهذا التناقض الظاهر ؟ (وان يجده حتى مزعجاً ؟) . أي لغز يكمن فعلاً في امرأة تخاطبك في النهار بصيغة الجمع وفي الليل بصيغة المفرد ؟ وتتصرف كأنها غريبة في الحالين، في منتهى البرود وفي منتهى الاشتعال . ومع ذلك شعر بمتعة ــ خيل اليه انها من أكثر المتع رهافة ــ هي ان يؤدي معها ولأجلها دور الرجل الاجتماعي والبغيّ . ذلك انها لم تكن تعامله قط ، قط ، معاملة الند للند .

لا نفضح شيئاً من هذه التفاصيل المتنافرة أمام الشخص الذي يحبنا ، ولا نقاصص من نحب بما يمليه علينا الجنون الاعمى لمتطلباتنا الجنسية . ذلك خطأ، خطأ شنيع !

المشاعر الدنيئة . أحبَّها لما كانت تتحاشى فعله ، ولما كانت غير قادرة على فعله. أحبها لحواجزها المجنونة . ومع ذلك ، أي حب يظهر مناسباً لها غير الحب المجنون ؟ ألف مرة ، آه ، الف مرة كان يفضل لو أحبها لخياناتها ، أو لغبائها ، أو لأي عيب من عيوبها الحمقاء ! لكان على الاقل قد فهم تعاسته وسعادته في آن ، وتذوق الارهاق الساخر الذي يشعر به من احتقاره لنفسه ! وأخيراً ، وبشكل خاص ، لربما عرف بهذه الطريقة كيف يقطع علاقاته معها هذا المساء .

تمطّت . كانت ترتدي بنطالاً أسود يبرز مفاتن جسدها . هنا ايضاً خدعته نفسه ، كما كانت تخدعه هي ، إذ كانت في الليل فورة ، وعبودية ، وجنوناً يضمها جميعاً بين ذراعيه ، كانت متهتكة تنقصها العذوبة ، وكان يفتنه ان يراها تبرز في الصباح من جديد غاوية بعيدة .

قال لنفسه : « النار تحت الجليد » ... ولكن كيف ، كيف استطاع أن يطور حبه بدءاً من هذه الرواسم ؟ كيف استطاع ان يسكر نفسه بهذا التناقض الظاهر ؟ (وان يجده حتى مزعجاً ؟) . أي لغز يكمن فعلاً في امرأة تخاطبك في النهار بصيغة الجمع وفي الليل بصيغة المفرد ؟ وتتصرف كأنها غريبة في الحالين، في منتهى البرود وفي منتهى الاشتعال . ومع ذلك شعر بمتعة ـــ خيل اليه انها من أكثر المتع رهافة ـــ هي ان يؤدي معها ولأجلها دور الرجل الاجتماعي والبغيّ . ذلك انها لم تكن تعامله قط ، قط ، معاملة الند للند .

لا تفضح شيئاً من هذه التفاصيل المتنافرة أمام الشخص الذي يحبنا ، ولا نقاصص من نحب بما يمليه علينا الجنون الاعمى لمتطلباتنا الجنسية . ذلك خطأ ، خطأ شنيع !

وفي هذه اللحظة ، اذا لم تشوش ضميره أيّة صورة جنسية ، فان ذكرى بعض الكلمات : « الى اللقاء ، يا حبيبتي الغالية » التي كان يتفوه بهـا على احتشام خفي أمام أصدقاء مطلعين ، تشعل النار في خديه • أي خجـل ، أي مزاح وادعاء التزم بها جميعاً تحت ستار من الملاطفة المصطنعة ؟ لم يكن ذلك ممكناً ، هو الذي قرأ وأحب ، هو الذي كان محبوباً وأحب الحب وما يزال ، كيف استطاع ان يتحمل هذه الصـورة الهزلية المضحكة للحب ؟

قالت وهي ترفع نظرها اليه :

ــ ماذا تشربون ؟

ــ سأشرب بنفسي ، وانت ، ماذا تريدين ؟

وما إن أطلق كلامه بصيغة المفرد كأنه تحدٍ حتى أحس بأنه يثير السخرية فاحمرّ • آه كلا ! مادمت في هذا الوضع ، فسأستفيد من صيغة الجمع ، من هذه الواجهة ، لأنسحب بلباقة ، لو لم تكن هذه الصيغة مدعاة للضحك : إذ كيف تهجر امرأة هجراً مناسباً ، وأنت ما تزال تشعر بحرارة احتضانها لـك ، ونومها معك ، واستيقاظها بجانبك مدة عامين ؟

لم تحرك ساكناً ولم تجب • تناول مشروبه بيد ثابتة ، ووضع الرجاجة[1] التي أصبحت غريبة عنه على هذا الرف المجهول ، قبل ان يخطو نحـو مقعد يوحي مظهره الخارجي بأنه من طراز لويس السادس عشر • أحس بأنه شديد الضياع في هذا البيت ، هذا العالم الذي عرف في الماضي كل زاوية فيه وأحبها ، حتى

---

(١) الرجّاجة : الاناء الذي تمزج فيه المشروبات لتشكل كوكتيلاً •

لقد سرّى عنه قليلاً أن يرى رجلاً سياسياً يظهر بوجهه المنافق الاليف في الشاشة الصغيرة . نظر اليه ولكن هذه المرة بنوع من الاستلطاف وحتى الندم. قال له في نفسه : « حين أفكر انني كنت أجدك مضحكاً ، ياعزيزي ، متخماً بذاتك ، مدّعياً ، حقيراً ! حين افكر كم كنت تبدو خلواً من الذكاء والطيبة ، جباناً ، عامياً وراء استعلائك المُزدرى ! وهكذا ترى انه كان عليّ ، في نزوتي ، أن أعجب بك أيضاً ... لأنك تشبهها . »

مدّ ساقيه ، ووضع يديه على مسندي المقعد . كان يرتاح . جسمه الشبيه بجسم فتى صغير ، متعب نائم ، ولكن لم يمسّ ، جسمه سيذهب ليتمدّد وحده بين غطائين طريين فضفاضين بعد بضع ساعات ، بعد القطيعة ، وبالتأكيد بعد هدم كل مالم يكن موجودا .

قالت : « غريب ، أليس كذلك ؟ جميعهم يقولون الشيء ذاته . »

هز رأسه . إنه يوافقها مرة أخرى . كان دائماً يوافقها . لقد تكلمت بطريقة هي من اللامبالاة أو السخرية بحيث لا يجرؤ أحد على معارضتها ، خصوصاً انها كانت تبدو جاهزة لاخلاء الساحة . ولكنها في الواقع لم تكن مطلقاً كذلك . كانت متعلقة بآرائها الصغيرة ، وتجاربها الشخصية ، ونمط حياتها الذي ينسجم مع « مجلة الأزياء » اكثر مما ينسجم مع « التوراة » . وكان صوتها المتعب ، بلهجته المتباطئة قليلاً والمقنعة كثيراً ، صوت امرأة خائفة، ولذلك كان بلا شفقة . بلى ، كانت خائفة : خائفة من ان ينقصها مال على الرغم من أنها غنية ــ خائفة من الشيخوخة مع انها شابة ــ خائفة من ان تنكشف مع انه لا يوجد شيء ، أي شيء ، تحت هذه الهالة من الأناقة والمشية اللامبالية

يدرك آنذاك ان سبب هذه الدهشة يعود الى انها بقيت في نظره باردة في بعض منعطفات نفسه الخفية ، وذلك بشكل غامض وعلى الرغم من فسقها الليلي • أو انها كانت دائماً كذلك •

قالت :

ـ ما هي مشاريعك لهذا المساء ؟

رغب في ان يجيبها بايجاز : « أن أهجرك » وذلك فجأةً ولمجرد أن يرى التغيّر الذي سيطرأ على هدوء هذا الوجه الجميل وابتسامه وطواعيته• والواقع انه لو اقترح عليها أن تذهب الى المسرح، أو الى شاطىء للسباحة ، أو ان تمارس الحب لوافقت بلا تردد ، ولهنأته على خياله ، وأسمعته أن هذه الامنية ، مهما بدت سخيفة ، هي ما كانت ترجو تحقيقه طوال بعض الظهر ولأقنعته أخيراً ان هذه المسرحية ، أو هذا البحر ، أو هذه الأغطية المدعوكة هي من وحيها هي ، وان رغبته لم تفعل شيئاً سوى الانصياع لرغبتها ، وهكذا يظهر مضحكا ، ثرثاراً ، طائشاً خلال أمسية بأكملها ، ثم تقول له بتسامح وهما يعودان بعد أن يكونا قد اسهما في الضحك العمومي : « تسليّت جيداً ، أليس كذلك ؟ » وبذلك تسمعه بشكل غير مباشر أن هذه الامسية هدية منها اليه •

ومع ذلك فلم تكن غريبة الأطوار : كانت تضحك حين يكون الناس مضحكين ، وتصفق حين يكونون أذكياء ، وتصرخ حين يحسنون معها ممارسة الحب • ولكن هي نفسها ، هي نفسها كانت لا تُضحك ، ولا تثير التفكير، واذا كانت تُمتّعُ في الحب فلأن الآلية الطبيعية للاجسام البشرية كانت تحيل هذه المتعة شيئاً لا يمكن تحاشيه •

وفجأة خيل اليه أنه يشبه العَظائيات (نوع من الزواحف) الكثيفة الخرقاء التي يراها الانسان تجر نفسها جرّاً في المستنقعات الاستوائية ، وكل منها تحمل على رأسها الأعمى طيراً يضجّ بالصراخ ، ويعاني من السُعار (شدة الجوع) ، ويحمل الشؤم ، طيراً ألوانه متألقة ، يتغذّى بشكلٍ خاص بالنفايات والوحل التي تجمعها العظائيات . لن تجد أية صعوبة في العثور على تمساح آخر ، أو فرس من أفراس البحر تجثم عليه . فريشها لا بأس بجماله ، وصوتها مقبول بنفاذه لكي ينسى أيّ حيوان إيقاعَ الضربات التي تنهال من منقارها على رأسه بجشع واستمرار ...

قال :

ـ لا رغبة لي في الخروج .

تناول علبة لفائفه من جيبه . ابتسمت ، وبحركة رشيقة رمت له في الهواء قدّاحة صغيرة فاخرة مبسطة جداً كان أهداها لها مؤخراً . التقطها وهي طائرة ولم يدهش لبرودتها الشديدة كما لو أنها لم تسكن قبل لحظة يداً رطبة أخرى، وكما لو أن الذهب والفضة قد ألغيا دورهما كناقلين ، ورسولين للحرارة والرغبة ، عندما كانا يلمسان تلك اليد الأنيقة الباردة . كانت تلك قداحته ، والأريكة أريكته ، والبيت بيته ، والحوائج حوائجه ، والجسد جسده . ولم يكن يزعجه أن يكون قد دفع ثمن كل هذه الأشياء من غيرأن يصبح مالكها ، ولكنه أحس فجأةً بأن كل هذه الأشياء التي منحها حبه تزدريه حتى الموت .

رجل وامرأة يقبل أحدُهما الآخرَ الآن على الشاشة . كانا جميلين كما يجب ان يكون الممثلون . وتقلّصت يدُ المرأة على عُنُقِ الرجل فبدت

مستغرقة في الحنان ، والامتنان ،وفي شيء مجنون ، شيء شرس ثمين ، شعر هو بغتةً بأنه ينقصه حتى الدوار ، حتى الأسى • واحس بشيء ينعقد في حنجرته ، ويسدّ أوداجه ، ويمنع دمه من ان يغزو قلبه ويجعله يخفق •

كان وحيداً ، كان فقيراً ، كان يُحسُّ بالبرد والخوف والجوع • لم يكن له عمرٌ ، ولا اسم ، ولا مستقبل ، ولا أصدقاء • كان عارياً ، يرتجف من الضيق والحسد لأن ممثلة لا سحر لديها تقبل بطلاً متصنعاً على الشاشة الصغيرة • لو يقول لهذه المرأة الجالسة هنا ، على مقربة منه ، ثلاث كلمات لتعرّت ، ومرّرت يديها على جسده تدغدغه ، وتثيره ، ولقالت له كلمات رهيبة ، أكاذيب ، ولهمست له « أحبك » وعضته في عُنُقه • ولكنه بعد ذلك سيظل يشعر بمزيد من الوحدة ، وسيصبح هذا الارتجاف الخفيّ صريرَ أسنان قد لا يستطيع السيطرة عليه •

نظر اليها • كانت عيناها مثبّتتين أيضاً على هذا الثنائي ، ولكن بابتسامة أشربت بشيء من الاحتقار ، ابتسامة تريد ان تقول إنهذا محزن • ولكن أليس الحب كذلك ؟ قال لنفسه برعب مفاجيء : « ولكن ، ولكن ما دامت تشعر بمثل هذا الاحتقار للحب ، فلِمَ تُصرُّ إذنْ على ممارسته والتحدث عنه ؟ بأيّ حق تستعير كلماته ، وحركاته ، وحتى قناعه المزّق ؟ » رغب في أن يضربها لذلك كما يضرب من يزوّر كتابةً • لم تكن قط أحبت قبله ، ولقد حدّثته عن الموضوع فأحسَّ في ذلك الوقت بكبرياء أخرق • « بلى ، بأية غطرسة حمقاء مجرمة استطاع ، في تلك اللحظة ، ان يخفي ما ينجم عن هذا الاعتراف ؟ مع العلم انها اذا لم تكن في الثلاثين من عمرها قد أحبت قط قبله ،

فانها لن تحب أبداً بعده ، وانها فضلا عن ذلك ما أحبت قط في أثناء العلاقة التي قامت بينهما ؟ » •

عرفها خليلة رجل آخر ، وقد سُرَّ بالسهولة المدهشة التي هجرت بها هذا الآخر لتنضمَّ اليه • فعزا الى الحب هذه القسوة الجريئة التي بدرت منها ، وعزا الى سحره الشخصي هذه السرعة الشرسة ، وسمى تحرراً مالم يكن سوى هروب • هاربة ! هذا هو التعبير ! كانت هاربة تمر من صحراء الى أخرى وتحيل كل شيء حولها ــ الأهداب ، والوجوه ، والسجاجيد ، والفجر ذاته ــ تحيلها قفراء ، متجلّدة ، داكنة •

الرجل الآخر انتحر فيما بعد على شجرة دلب ، وتذكّر أنه حمل اليها النبأ بكثير من اللباقة ، وانطلق في ذلك من مبدأ غامض ، أخرق ، ولكنه رئيسي لديه بأن الانسان لا يستطيع أن يلصق جلده على جلد شخص آخر ، ولا أن ينفث نَفَسَهُ في فم آخر ، ولا أن يجلب دموع متعة أو حزن الى عيني انسان، من غير ان يُبقي ، في الوقت ذاته شيئاً من جلده ونفَسه ونظرته في هذا الآخر بشكل حي وقابل للانجراح •

وبعد فانها لم تنبس بكلمة لهذا النبأ ، بل هزت كتفيها قليلاً ، واستدارت بما ظنه من قبيل العفة • ثم لم تلبث أن تكلمت عن الحظ السيء : فالنحس هو وراء هجرها لهذا الرجل ، وهو وراء فقدانه توازن سيارته بعد ذلك بقليل • لم تتدخل في شيء من مجرى هذه الحياة القصيرة جداً ، ولا علاقة لها بهذه القصة الغرامية ولا بهذا الحادث القاتل •

وارتجف بغتة كما لو أن هذا الحادث لم يقع ، وكما لو أنه موعود بميتة

سريعة فور هجره لها . قال لنفسه « الإلهة الجهنمية الشابة [٢] التي تغزل مصيري . » ورآها تمد ذراعها كأنما هي تسخر منه ، وتتناول من على مقربة منها القماشة الملوّنة المنمّقة الصغيرة التي بدأت العمل فيها منذ قليل . رآها تعقد حاجبيها قبل ان تحرك اناملها الطويلة المغزلية بدقة . كانت هذه القماشة رمزاً ، لا فائدة منها الآن ولا في المستقبل ... ذلك أنه كان من غير المعقول ، ومن غير الممكن تصوره أن تستطيع سَرْدَ صُدريّةٍ من الصوف ، أو قبعةٍ ، أو حقيبةِ يد ، أو أي شيء آخر على العموم لأجل شخص ما . لم يرها قط تناوله خبزاً ، أو تمسك بباب لا ستقباله ، أو تذدّم ناراً لاشعال لفافته . واذا كانت قد رمت اليه بقداحتها عبر الغرفة منذ قليل ، فان حركتها تلك كانت حركة تباهٍ لتذكّره بأنها هديته التي تقبل هي بأن تعيره إياها — هو الذي اختار ان يصنعها لها جوهريّ ودفع ثمنها غاليا أيام كان يحبها — . لم تفعل لأجله شيئاً بلا مقابل ، وكانت ميزته الوحيدة التي ترفعه في نظرها على ملايين الأطفال الجياع في العالم ، أنه كان يملك في جيبه ما يكفي لدفع الحساب في مطعم (مكسيم) .

كانت عيناها مسبلتين على قماشتها ، وحاجباها معقودين ، وكانت تبدو فريسة صعوبات فنية . وصالبت صنانيرها ، ولملمت لفائف صوفها ، ووضعت الكلّ أمامها بحركة راضية .

---

(٢) في الميثولوجيا اللاتينية ان الباركات الثلاث Parques او الإلهات الجنهميات الثلاث كن يغزلن لُحمة حياة الفانين ومصيرهن . وهنّ كلوتو CLOTHO ، ولا شيزيس LACHÉSIS واتروبوس ATROPOS .

قال لنفسه باختصار : « انها شقراء ، شقراء بشكل لا يُصَدَّق » قبل أن تتلفت نحوه وتفتح فاها :

ـ سأهجرك ، قالت ، إن (سيريل) يحبّني وأنا أحبه أيضاً •

وفجأةً أحس بحزن هائل يخترقه ، وبرغبة في أن يقيء ويتعلق بثوبها • وللمرة الأخيرة ، أضاءت الشعور الشقر ، كشعلةٍ ، الجحيمَ الـذي سيعيشُ فيه حياته المقبلة •

دمـوع في النبيـذ الاحمـر

ساعة ••• أهبه ساعة • ساعة تأخّر ، هذا أقصى ما تستطيع امرأة أن تتحمّله • امرأة مثلي ، على أية حال • امرأة سعيدة بزواجها ، حسناء ، مشهود لها بالحسن ، مرغوب فيها ، مشتهاة • امرأة يشتهيها عدد كبير من الرجال ••• أستطيع أن أسميّ ستة منهم • امرأة بقبعة ساحرة ، وفراءات ثعلب ساحـرة ، تنتظر نصف ساعة على مقعد من حجر ، وفي ساحة من ساحات باريس ، رجلاً يتأخر عن الموعد ••• إنه لشيء مخزٍ ، لا يمكن تقبّله ، شيء مضحك ••• أنا جميلة ، أنيقة ، شهيّة ، مضحكة • بلى ، طوال ساعة ونصف ساعة سأظل هنا ••• فاذا تمسَّك بموعـده فسأدوس قبعتي البشعـة ، وسأترك هـذه الحيوانات القذرة على هذا المقعد ••• إذا تمسّك بموعده ، ووافاني الآن فسأتعرّى في هذه الساحة ، وسأتبعه سيراً على قدمي في انحاء المدينة • وإذا لم يأتِ فاني سأنتحر • سأعود الى البيت ، وأقبّل هنري ، وأضع قبعتي على سريري (مادامت تجلب لي الشؤم) ، واعلّق ثيابي علـى مشجب (ما دمت

ذات طبيعة مرتبة) ••• بعد ذلك ، سأتناول من حمّامي الانيق القارورة التي خبأتها خلف آنية خضابي، فأفرغها في يدي، وابتلع تلك الحبوب المرّة البيضاء، واحدة واحدة ، مع ماء دافىء • العدد اللازم • لا أكثر ولا أقل • ولن أكون عرضة للسخرية ••• السخرية ، يكفيني منها ما لقيت :

الحب يسخر منيّ ، والحياة تسخر منيّ ، ولكن الموت لن يسخر منيّ ••• أنا لم يعد لديّ وقت للمزاح ••• الحب ، بمعناه الكبير ، أقبلـه • أمـا المزاح ، بمعنييه الكبير والصغير ، فلقد رحل من النافذة منذ زمن طويل • منذ برنار فارو •

برنار فارو ! يالهذا الاسم ! ••• لا سحر فيه ولا أي شيء • حين أفكر في أنني كنت روبرتا دوريو ، امرأة سعيدة بزواجها ، أنيقـة ، مشهوداً لهـا بالحسن ، شهية الخ ••• امرأة لم تكن تعرف برنار فارو • والآن ، ومنـذ ستة أشهر ، أنا خرقة تعرف برنار فارو ••• برنار فارو الذي يعمل في التأمينات، والذي لا يتّسم بالجمال الجذّاب ، ولا بالذكاء الخـارق ، هذا المدّعـي ، الأنانيّ ، القليل التهذيب ـ ما دام يجعلني أنتظر منذ عشر دقائق ـ هذا الذي أحبّ •••لن انتظر ثانية واحدة أكثر من ساعة • وها هو الليل يهبط ، وبَرَدَ المقعد ، وأقفرت الساحة • يمكن ان يحدث لي شيء • قد يهاجمني أيّ شخص، هذا المتشرّد ، مثلاً ، الذي يصـل بكشكوله وهزاله وقذارته • وهو ليس حتى هرماً ، لذلك يستطيع بكل سهولة ان يلوي عنقي • ولكن ما تراه يصنع ؟ أيجلس على مقعدي ؟ يا للطامة الكبرى ! لا شـك في أننا متميّزان : أنـا ، بثعالبي ، وهو ، بأسماله ! سيضحك برنار من هذا المنظر عالياً لو أتى •

* * *

مدّ المتشرد لوكاس دو دوفان ساقيه بعناية وتنهد بارتياح • صحيح ما يراه : المقعد خالٍ إلاّ من هذه المرأة المغرورة بجيدها الأنيق • أصبح من العسير جداً أن يجد مقعداً هادئاً • فما إن تطلُّ الايام الصاحية حتى يهرع سكان المدينة ، الذين لا سيارات لديهم ، الى احتلال مقاعد لوكاس ، مقاعده الوفية البيضاء ، والعارية الملساء في الشتاء ، يحتلونها لساعات ، ويتبادلون القبل من الأفواه ــ هكذا ــ ، أو يقرأون كتباً ، وأحيانا ــ وهو أسوأ ما يمكن ان يحدث ــ يراقبون أطفالهم وهم يصخبون وينظرون اليه شزرا ! ••• أمّا الآن فها هو الليل ، وفي هذه الساحة الحزينة لا يشجّع هذا المقعد الحجري القاسي البورجوازيين المترفين المتخمين ولا المتعجرفين على الجلوس عليه ، ما عدا هذه السمراء ذات الحسن الحقيقي ، هذه السمراء تحت قبعتها • كانت تنظر باستمرار صوب ممرّ بين الأشجار ، وواضح انها كانت تنتظر أحداً ••• يجب أن يكون الانسان لئيما أحمق ليجعل هذه المرأة تنتظر ! لو لم يعدل لوكاس منذ زمن طويل عن التعلق بالنساء الجميلات ، وبالسيارات الجميلة ، وبحضارتنا الجميلة ، لغازلها • ولو لم يكن يرتدي هذه الثياب لسارت الحال على ما يرام • كان لوكاس الجميل ، في الستّينات ، شاباً في الثامنة والثلاثين من عمره ، أنيق المظهر ، مرح الجانب ، يُسقط من يريد في شباكه •

فتح كشكوله ، وأمسك بزجاجته الثمينة الملأى تماماً • فتحها ثم رفع معصمه بها ، ولكنه أوقف حركته فجأة • كانت كتفا المرأة الجالسة بقربه تهتزّان وهي تذرف دموعاً صامتة ولكن عنيفة وذات منظر مزعج • مدّ لوكاس ، كأنما على الرغم منه ، قارورته الثمينة نحوها • رنّ الزجاج على المقعد •

التفتت المرأة فرآها لوكاس مواجهة : رأى عينين صافيتين ، تتألّقـان تحت نقاب شفّاف ، ويحيط بهما الكحل والأسى ، عينين تفيضان بدموع غزيرة لم تتمكّن من حبسها • تأمّل أحدهما الآخر لحظة طويلة • نظرة زرقاء ونظرة سوداء ، نظرة باكية ونظرة مشفقة • وبدا أن المرأة تستيقظ ، وتمتمت «شكراً» ثم تناولت زجاجة لوكاس الثمينة وجرعت منها جرعة كبيرة قبل أن تعيدها اليه• نضبت دموعها للحظات ، وتورّد وجهها ، وابتسمت قليلاً • وعدّد لوكاس ، مرة أخرى ، بفخرٍ محاسن النبيذ الاحمر التي لا يمكن ان توصف •

قال بكل كبرياء المدمن الوفيّ :

ــ انها تخفّف عنك ، أليس كذلك ؟

قالت وهي تسحب منديلاً من جيبها :

ــ لقد خفّفت كثيراً عني •

ومَخطتْ في منديلها بقوّة حتى أن الصوت أدهشها هي نفسها • ألقت نظرة اعتذار نحو لوكاس ، ولكنه ــ وهو المهذّب جداً ــ كان يشرب بدوره من غير أن يظهرعليه انه سمع ،اللهمّ الا نشيد النبيذ العذب الساري في عروقه•

سألت :

ــ أيّ صنف ؟

قال لوكاس وهو يمسح فمه بكمّه :

ــ هذا ، لا أدري • على أية حال درجة كحوله ثلاث عشرة • أجده لدى روبير ، زميل لي • أتريدين المزيد منه ؟

اقترح ذلك بأدب انما من دون حماسة ، فقد كان يعتمد على هذه الزجاجة لقضاء ليلتـــه .

قالت السمراء بفطنة :
ـ كلا ، كلا ، أشكرك كثيراً . لقد رفع من معنوياتي حقاً . كنت بحاجة اليه ...

وما دامت هي نفسها تشير الى دموعها فان لوكاس يستطيع أن يستفهم عن السبب :
ـ هل أنت حزينة أم وضع لك أحدهم أرنباً ؟ (تعبير فرنسي يعني عدم المجيء في الموعد ـ المترجم)
ـ أظن أن أحدهم وضع لي أرنباً . وهاقد مرّ نصف ساعة حتى الآن...

قال لوكاس باصرار :
ـ هذا الشخص نذل . نذل فظّ ، لو سمحتِ .

قالت بصوت قوي :
ـ ... ولكني لن انتظر أكثر من ساعة . لقد أقسمت على ذلك . في السادسة الا دقيقة سأنهض وأعود الى بيتي و ... وهكذا .

بدأ لوكاس :
ـ لو كنت مكانك لـ ... لا بأس ...وبعد ... !

وأشار بيده إشارة غامضة . وبدا التفكير على وجهه . خيّل لروبرتا «ان مسحة من الجمال ظهرت على هذا الوجه » .

استمرت :

ـ لو كنت مكاني ...

ـ الأمر لا يعنيني ... ولكني انتظرت نساءً على مقاعد في الماضي ، وفي كل مرة كان يمر من الوقت ساعة وربع ساعة كان الموضوع ينتهي ... بالنسبة إليّ ، طبعاً .

نظرت اليـه بامعان :

ـ وفيما عدا ذلك ... وحين كنت تذهب قبل أن يأتين ؟

قال لوكاس وهو ينظر اليها بدوره :

ـ حين كنت أذهب فذلك لأنني كنت استطيع الذهاب . هذا لن يفهمنه جيداً . أما فيما بعد ، فكن يجتهدن للمجيء في الوقت المحدّد .

ساد صمت كان فيه الاثنان يفكّران . وكانا يبدوان كتمثـال رمزيّ لفيلسوف وتلميذته . نظرت الى قدميه ، ثم الى الممرّ . وبشبه شرود مدّت يدها نحو لوكاس الذي أذعن فوضع الزجاجة فيها . كان يشعر بعبءٍ في قرارة نفسه . جرعت منها جرعة فلاحظ بأسىً أنها جرعة كبيرة ، ثم مسحت فمهـا بكمّها كما فعل هو .

قالت بصوت متردد :

ـ وحين كن يأتين فلا يجدنك ؟

قال لوكاس وهو يضحك على الرغم منه . (ذلك أن ثلاث أسنان أمامية كانت تنقصه ، الأمر الذي كا نيغيظه أمام غزوته الجديدة) :

ـ في تلك الاثناء أكون قد عـدت الى مأواي ، وهناك كانت توجـد صديقتي العرجاء التي كانت تحبني حقاً ••• (أنهى هذه الجملة باختصار) ••• وعندئذ •••

وبدرت منه إشارة غامضة مع هذه « العندئذٍ » ••• ولكنها كانت تعني بوضوح : « وعندئذ أستمتع بالدفء مع العرجـاء ، تحت جسـري ••• » فأحسَّت روبرتا أن الفكرة ذاتها تغزوها : « عندئذٍ أستمتع بالدفء مـع هنري ، في منزلي ، شارع بول ـ دومر ••• »

نهضت ببطء ، ونفضت الغبار عن ثيابها • فكر لوكاس : « انهـا امرأة فاتنة ولكنها ضائعة ••• و ••• »

قالـت :

ـ انا ذاهبة الى بيتي •

قال لوكاس وقد غضّنت عينيه ضحكة :

ـ ولكن الساعة لمّا تنقضِ ، ألا ترين ؟

كان يشعر بالسرور والرغبة في المزاح • سيبقى هنا ليرى قدوم الشخص• كان يعد نفسه بلحظة لذيذة • جَعلُ امرأةٍ تبكي بعينين لهما هذا اللون خطأ يجب ان يدفع صاحبه ثمنه •

قالت وهي تضحك بدورها :

ـ كلا • كلا لمّا تنقضِ الساعة • لا بأس ••• سأذهب ••• الى اللقاء ، يا سيّدي • أشكر لك الـ ••• أشكر لك كل شيء •

وبدرت من يدها إشارة باتجاه لوكاس ... والزجاجة ... فشعر لوكاس بقلق ... ولكنها كانت قد انحنت ووضعت يديها الدافئتين على يديه ، وشدّت عليهما قليلاً ، ثم انطلقت . واختفت في الممر .

وفكّر لوكاس « رحلت في الوقت المناسب » وهو يرى ، بعد ثلاث ثوان فقط ، شاباً تبدو عليه إمارات العصبية ونفاد الصبر يتحرك على مقربة منه ويضرب الأرض بقدميه خلال النصف الساعة التالي .

كان برنارفارو مستوفز الاعصاب جداً حتى لقد شعر بضيق شديد كأنه وقع في ورطة لا خلاص منها .

وكما انه لم يفكر قط في الاعتذار عن تأخره ، فانه لم يفكر في ان روبرتا تستطيع ألاّ تنتظره ، هي بدلاً من هذا المتشرد الهزيل الذي يضحك وحيداً على المقعد . وشعر للحظات بحزن مشوب بغضب ، ثم بشكوك ، ثم بالحب يغزوه فوراً .

ولكن روبرتا لم تعد تنتظره في أيّ مكان . الله يعلم لماذا . إن روبرتا لم تعد تحبّه .

موسيقا لنزاع عائلي

مرّ هذا اللحن برأسه في ختام السهرة ، وبدا له مغرقاً في السحر حتى انه لجأ أخيراً الى حجرة الملابس لكي يكتب نغماته الاولى في دفتر عناوينه الصغيرة: دو ــ مي ــ سي ، سي ــ لا ــ صول ... تخيلّه في البدء على البيان ، ولكن

كان هناك مرح وحرية في هذه الأوزان الاولى يتطلبان المزيد • فكّ شريطي حذائه وهو يصفّر ، ناسياً للحظة النزاع الذي بدأته أنيتا في السيارة لمدة لم تكن طويلــة •

« أو تصغي اليّ ؟ لا أسألك ان كنت تسمعني ، ولكن إن كنت تصغي اليّ • »

التفتت أنيتا نحو زوجها وعلى وجهها الجميل ما كانت تفكر انه تعبير نصف حزين ، ونصف ساخر • لم تتصور لحظة انه يمكن لانفها ان يلمع ، ولا لغضونها الاولى أن تبرز بقسوة في هذا الفجر الصيفي • وهذا القصور في التصور ظهر مؤسفاً أكثر من المعتاد • « قصور » لم يكن هذا هو التعبير على أية حال ، لأنها كانت تستطيع ان تحصل على إفراط في التصور ولكن في اتجاه وحيد هو اتجاه الادّعــاء •

وكما يبني الطائر عشّه ، كانت أنيتا تراكم ، شيئاً فشيئــاً ، الحوادث التافهة ، والشاذة ، وحتى المتناقضة احياناً ، وتتوصل بأعجوبة الى جمعها معاً • وحين تحسب حسابها ، كانت بفخرٍ تخرجها لزوجها ، ذات يومٍ جميل ، كأنها أمثلة" وبراهينُ على نظرياته ، ونظريات لويس هي سطحيته ، ولا مبالاتــه ، وحتى حب الظهور لديه •

قال لها بصوت ضعيف : « ولكني أصغي اليك • »

قد يكون ايقاع جاز هو الذي يلزمه في الواقع : كونترباص ، كلارينيت، وربما بانجو •••

« لا أفهم ! حقاً لا انهم . قد أكون حمقاء ... »

« هناك إمكانات يجب ألاّ نشير اليها » فكر لويس بسرعة ومرح . ولكنه لم يلبث ان أظهر وجهاً رخامياً ،بعيداً ، شبه مغضب ، كما لو أن فرضية حمق أنيتا ،حتى في استحالتها ، ترنّ كتبديل لمواقع الكلمات في محادثة جدّية.

قال : « وأنا أيضاً لم أعد أفهم . كانت سهرة كبقية السهرات ... »

صدر عنها صهيل خفيف ينبيء عن الانتصار ، وجلست عمداً في المقعد المقابل له ، ويداها مبسوطتان تماماً على مسنديه ، وفي عينيها بريق تصميم ، بريق يعني انه ليس تبرماً بسيطاً يتوجب عليه أن يردّه ، وا أسفاه ، بل أحد هذه الاعتراضات التي لا يمكن لها أن تنتهي . تنهد وأشعل لفافة وهو يحرك أصابع قدميه المجرّدتين بارتياح .

« نطقت بالكلمة ، يا لويسي المسكين : « سهرة كبقية السهرات » . لا أحسن ولا أسوأ : سهرة لا طائل وراءها . ولكن بم يمكن لكل هؤلاء المحبّي الظهور أن يفيدوك ؟ »

صحيح أنه كان يوجد مجتمع ما في باريس يقيم الحفلات للويس ، وذلك منذ أن نال جائزة الأوسكار عن أحسن موسيقا للافلام في هوليوود ، في العام الماضي ، وصحيح أيضاً ان لويس كان يجد كالاطفال متعة في ذلك الجو العامر بالبذخ والبشاشة والاطراء ، وهو جوّ كان ينقصه بقسوة خلال سنوات « كان ينقصهما » فكّر بكل ما لديه من حسن نية ، ذلك أن أنيتا كانت قد اشتكت بما فيه الكفاية من الحياة خلال ما سمته « سنواتهما العجاف » .

وبدا له ازدراؤها ، وهي تتفاخر به الآن تجاه ما طالما رغبت فيه ، على شيء من التسرّع ، على شيء من الاغتباط .

كانت امرأة حسناء ، ترتدي ثياباً أنيقة ، وتجد لذة ظاهرة في ارتدائها . وتساءل أيةُ شراسة كانت توحي اليها بهذا الازدراء المتنامي . أكملت :

« أنت لاتعرف ، مثلاً ، ما قالته صديقتك الجميلة لورا كنول ؟ إحزر ... ! »

« لن أحزر أبداً » ، قال بإصرار .

« آمل ذلك . كان لديها الوقاحة ان تقول لي : « ما أحسدك عليه يا صغيرتي أنيتا (واتخذت صوتاً حاداً مضحكاً ، يختلف عن صوت لوراكنول الحلو) ما أحسدك عليه ليس النجاح الحالي للويسك ، بل سنواتكما الصعبة : ان تعيش المرأة مع مبدع ينبغي ان يكون شيئاً رائعاً حتى أن المصاعب المالية لتبدو ... لا شأن لها ... »

وتلفظت بهذه الجملة الأخيرة بتشدّق ساخر ، فرغب لويس ان يلفتها الى أن هذه الجملة ، مع هذا كله ، ليست مغلوطة بحد ذاتها ، كما أحس ، في الوقت نفسه ، برغبة أقسى في أن يلفتها الى أن لورا كنول لم تخطىء كثيراً ما دامت هذه السنوات الصعبة ، هذه السنوات العجاف ، هي السنوات السعيدة الزاهية لحبّهما : في أثناء هذه السنوات الخمس ، كان يحب أنيتا بجنون وكان مرتبطاً بها ارتباطاً كاملاً . واذا كانت بداية السنوات الغنية قد توافقت مع انحدار عشقهما ، فان الخطأ في ذلك ليس خطأه هو . كان قد قاد

نجاحه اليها ، ووضعه بفخر وربما بغباء عند قدميها ، وكان الامر بيدها وحدها لتجعل منه نجاحاً مشتركاً . الا أنها تكشّفت عن مثقفة متقشفة ، مستعليـة ، امرأة جديدة ما عرفها قطّ من قبل ولا قصد ان يتزوجها ، امرأة لم تعد لديه مطلقاً الرغبة في مكاشفتها بمن تكون . إنه لم يعد يفكر الا في الانسحاب ، والتملص ، والهرب ...

وكانت تصر ، وتضرب ، أو تحاول ان تضرب :

« ألا يصدمك ذلك ؟ صلَف تلك الإوزّة المفرطة في الثراء وهي تحسدنا على إملاقنا ، ألا يصدمك ؟ صحيح ان لورا كنول لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، هنـا ... »

قال وهو يدير رأسه بعصبية : « ولكن ماذا تقصدين ؟ »

ذلك انها أصابت في قولها أخيراً : فلورا تثير اعجابه على الرغم من فراءاتها النمسية ، حتى أنه كان يأمل ، بشيء من الحظ ، ان يصبح عشيقها في أقرب وقت .حتى لقد ابتسمت له بطريقة ما في أثناء السهرة ، ابتسامة مغلّفة بالحنان، أكدّتها عيناها البنفسجيتان ، ويمكن لها أن تهب الأمل أيضاً لانسان أقـل ادّعاءً منه . ابتسم . منذ سنتين أو ثلاث ، كانت الفرص تتضاعف في هــذا المجال ، ولكن اذا كان قد استفاد منها ثلاث أو اربع مرات ، فلقد فعـل ذلك بكثير من الحذر مما يجعل أوهام أنيتا لا طائـل وراءها . هــزّ اذن كتفين بريئتين . نهض ، تمطى ، اتجه نحو الحمام . لاحقه صوت أنيتا بينمـا كان يقف أمام صورته في المرآة ، صورة رجـل في الخامسـة والثلاثين ، متعبـة قليلاً ، مهتزّة ، ولكنها ذات رأس جميل على كل حال .

قال الصوت في الغرفة : « أتصوّر اني أزعجك ؟ ولكن اذا لم أقل لك الحقيقة ، فمن يقولها لك ؟ انت بحاجة ... »

« الخ ... الخ ... » فكر وهو يفتح الصنابير بضجة كبيرة . دو ـ مي ـ صول ، دو ـ مي ـ ريه ... بلى ، ان في هذا اللحن لسحراً ، لمرحاً على شيء من البطر . سيتيح له كتابته من المقام الصغير ، وحتى إضافة كمانات اليه ، من غير الاقلال من مرحه . وأكيد" ستلزمه فرقة كبيرة ... وسيطلب من جان ـ بيير ان يقوم بالتجويق في ايقاعات قليلة العنف .

تناول أنبوب معجون للأسنان ، فتحه ، تجمّد . كان وجه أنيتا يظهر في المرآة وراءه ، وقد ابيضّ من الغضب ، وكأنه تشنّج من الهيجان ، وتساءل لثانية من تكون هذه الغريبة ، هذه الشريرّة التي تتجرأ على ان تقف بينه وبين موسيقاه . سارت خطوتين ، وضعت يدها المختّمة على الصنبور وأغلقته بعنف . شاهد اليد البيضاء تحمرّ عند المفاصل ، ولاحظ لدى مرورها البريق الأزرق ـ اللازوردي للخاتم الذي أعطاها اياه قبل شهرين في عيد ميلادهما ، عيد ميلاد زواجهما العاشر . كانا قد تزوجا للسرّاء والضرّاء ، من غير أن يعرف ، في وضعه ، أن السرّاء كانت ستجلب الضرّاء بشكل آلي .

« لربما تستطيع ان تنظر اليّ اخيراً ، حين أحدثك بشكل جديّ ... »

كانت مستندة الى المغسلة بالقرب منه ، تتنفس بصعوبة . وتراءيا في المرآة كعدوين . وعلى الأصح نظرت اليه كعدو ، فانزعج ، وأحس بشبه خوف

من هذا الشعور بالكراهية الشديد القرب منه . وفكّر : « هدوءاً ، هدوءاً » ، ومدّ يده ، وأعاد فتح الصنبور بلا رشاش ، ومرّر فرشاة اسنانه تحته ، بحركة مقدّرة ، قد تكون مفرطة في التقدير الى حدٍ ما .

قال بصوت عذب (مغرق في العذوبة قليلاً) : « إنك لا تتحدثين اليّ « أخيراً » . إنك لا تتوقّفين عن محادثتي بجدّية . الا يمكنك ان تحاولي الحديث معي بلطف وحسب ؟»

فتحت فمها لتحتجّ ، ولكنه كان قد أطلق كلامه بصوت سريع ، عجول جمّدها .

قال : « إصغي . يجب أن تكفّي عن هذا . يجب ان تكفّي عن هذه الملامات ، عن هذه الطريقة في الحياة . انك تتعبينني ، يا أنيتا ، إنك تحطّمين قدميّ . عندي لحن برأسي في هذه اللحظة ، وأسمعه منذ ساعتين : أسمعه على الكلارينيت ، أسمعه على الكمان ، أسمعه على الهارب ، ومهما قلت ، ومهما رفعت صوتك بالصراخ ، فان هذا اللحن يغطي صوتك . أتفهمين ؟ »

وشعر بنوع من السخط يغزوه ، وكان يعرف أنه خطر ولكنه لم يستطع مقاومته ، وانه انتفخ كساقية بعشرات السيول الصغيرة التي ولدت من عشرات المشاعر الغاضبة الصغيرة المكبوتة .

وأكمل : « وبهذا اللحن ، اذا كان جيداً ، سأدفع نفقات الايجار ، والسيارة ، واثوابك ، وبذلاتي ، وحياة كل يوم ، وحتى ثمن الأعشية في المطعم لهؤلاء الناس الذين تزدرينهم ، من غير ان يكون لك الحق في ازدرائهم . واذا

لزم الأمر ، فسأدفع ايضاً طائرات ، تذاكر طائرات ستأخذني ، في أحيانٍ تزداد تقارباً ، بعيداً عنك ••• واذا لزم الأمر ، فسأدفع ايضاً ، بفضل هذا اللحن ، بدل إيجار مسكن آخر وثمن سيارة أخرى ، لكي تكون لدى كل منا حياته المنفصلة عن الآخر ، ولكي أنعم بالهدوء ، ولكي أستطيع ، في المساء ، ان أصفر لحناً وأنا أغسل أسناني بكل سلام ! »

رأى وجه امرأته يحمرُّ في المرآة ، رآهـا تتراجع خطـوة ، رأى حتى الدموع تصعد الى عينيها قبل ان تستدير وتخرج من الحمّام • رفع الفرشاة الى فمه وبدأ ينظف أسنانه بدقة متناهية وقلبه يخفـق : كان يكره ان يكون بغيضاً وها هو يتصور ، في إذعان ممزوج بالشفقة والمرارة ، مصالحةً علـى الوسادة ، المصالحة المزيفة الأبدية التي ستلي •••

خدش لثته ، فنظر بلا مبالاة الى خيط الدم الرفيع وهو يسيل على شفته السفلى •ولدهشته ، بدأ الغريب الحائر قليلاً ، المواجه له ، يتبسّم فجأةً • دو ــ مي ــ صول ، فا ــ مي ــ صول ••• لقد وجده ! هذا اللحن يستاهل أراغن • لا الأراغن الباهتة الجامدة لزواج كاثوليكي ، ولكن أراغن كبـيرة تضجّ بالحرية • وسيعرض الموضوع الرئيسي دفعة واحدة ، ببساطة ، لربمـا بمساعدة بوق •••

دخل غرفته ، وهو يصفر ، بخطـىً نشيطة ، خطى جنـدي منتصر ، « منتصر ولكن في أية حرب حزينة ؟ » فكّر وهو يبصر في ميدان المعركـة مهزومته الكئيبة ، وقد التفّت بوقار ومنامة شفافيتُهما تتسـاوى • ولكي

يؤمّن لهذه المرأة هزيمة مشرّفة ، كان عليه أيضاً أن يلامس كتفيها ، فانحنى عليها ، مذعناً للذّة .

خافت أنيتا ، وأظهرت خوفها ، ومن المؤكّد انها الآن تحقد عليه ، وهو ممدّد بالقرب منها . « انتصاره مضاعف » فكّرت بلا شك أيضاً (كما لو أن ضمّتهما كانت انتصاراً له) . شعر بعصبيتها تثور في الظلمة . وبذل ما في وسعه ليتنفس بانتظام ، وعمق ، كما هو المفروض في النائمين ان يفعلوا ، ولكن هذا الانتظام المكره كان يضيّق أنفاسه بشذوذه . وكبح ، في الوقت ذاته ، جماح سعال ورغبة في التدخين تعذّبه كرغبته في الضحك . ذلك ان وجه أنيتا قد أصبح الآن ، بفضل ايمائية بليغة ، الرمز الكامل ــ والمضحك ــ للكبرياء التي هزمتها الشهوة . كانت قد اوحت الى جسدها بسرعة ، بعد الانحسار الغريزي للتمرد ، بالانطلاق الغريزي للشهوة الذي كانا قد اصطدما به بقسوة وغباء في الظلام .وكان يتوجب عليه لثانية ان يسألها عمّا لا يسير على ما يرام قبل أن يفهم ، ولله الحمد ،معنى ذلك الهيجان كله . وحدها ذكرى لورا التي استحضرها في خياله ساعدته ، بعد ذلك ، على ألاّ يضعف ، بينما كانت هي تتبعثر في صرخات واتنفاضات طائشة ... ومع ذلك ظلّ يتنفّس كموقّت موسيقي حقيقي . وبعد بضع دقائق سيستطيع أن يتلفت بارتياح نحو الحائط ، وهو ينخر ذلك النخير الأبله للذكر المستسلم لرقاد عميق يرمّم قواه .

قلّص رَبلتي ساقيه ليستدير ، حين جمّده صوت أنيتا بنَفَسِهِ القصير ، فاذن هو الذي أيقظه وكشف عن وجوده .

« كيف استطعنا ان نصل الى هذا الحدّ ؟ » سأل صوتها الواهن

الأسيان « الذي يشبه قليلاً صوت تلك الممثلة الحسناء في فيلم « هيروشيما حبيبي » ، فكَّر عرضاً • أمل" أخير" أبقاه صامتاً ، ولكن" ذات" الصوت الحزين العذب انطلق قائلاً :

« لا تتناوم ، يا عزيزي المسكين • أجبني ••• كيف استطعنا ان نصل الى هذا الحد ؟ ••• »

وسمع نفسه يجيب على الرغم منه بصوت أبح" بائس :

« أين ؟ نصل الى أين ؟ »

« ان نقول الأشياء الرهيبة التي قلناها • »

« كيف ؟ كيف ؟ » قال لويس مرتاحاً ــ ذلك أنه خشي للحظةٍ ان تشير الى نزاعاتهما السابقة ، ولكن لحسن حظ أنيتا (كما لحسن حظ جميع النساء تقريباً) ان شهوة الذكر هي بحد ذاتها برهان على الحب ــ كأنَّ التعبير ذاته عن هذه الشهوة يؤكّد طبيعة الحب •

قال بصوت يوحي بالثقة : « كيف ؟ بحماقة • ثارت أعصاب كلٍ منا ، ولكن الأمر غير خطير • هيا نامي • »

« الأمر غير خطير ؟ ••• اتعتقد حقاً ما تقول ؟ »

كلا" ثم كلا" ، لم يكن يعتقد ما يقول ، ولكن لم تعد هي التي يرغب في ان يعترف لها بذلك : بل للورا ، أو لبوب ، أفضل صديق لديه ، أو لأمه ، أو لبو"ابته ، لأي انسان آخر ما عداها هي • لم تعد لديه الرغبة في التحدث اليها عن أي شيء (ولا سيما الشيء الوحيد الذي يمكن لها حقاً ان تطلب منه أن

يحدثها ـ هي وحدها ـ عنه) أي عنه وعنها ، عنهما وعن مستقبلهما .

« لقد أصبح الأمر مستحيلاً » ، تأكد لديه بينما نهضت هي قليلاً ، واستندت الى مرفقها ، وانحنت نحوه ، نحو هذه الكتلة الجامدة السوداء التي يجب ان تشكل ، في طلوع الشمس ، كتفيه ورأسه المنحني ، المخبأ تحت شعره ... استروح رائحة عطرها المرهفة وقد امتزجت برائحة جسدها ، جسديهما بعد ممارسة الحب ، هذه الرائحة التي كانت لديه رائحة السعادة ذاتها ، رائحة محرقة عذبة . واطبقت يد مجنونة ، برزت من الماضي ، على عنقه ، وأطلعت منه زفرة جافة ، تشنجاً بلا دموع أدهشه عنفه .

« يجب أن اكلمها » فكّر بسرعة قصوى وهو يرفض هذا الافتراض لحظة خطر بباله : « يجب ان اتحدث اليها . يجب أن أشرح لها ، أن أفهمها ، أن أعرّفها بخاصةٍ من أكون . »

ذلك أنها كانت ، منذ زمن طويل ، تتوجه بالحديث وهي تخاطبه الى انسان مجهول ، الى انسان فظ يجعله لويس ، ولا يمكن له ، مثلها ، ان يحبه ولا أن يتحمله أبداً . كانت قد وضعت في مكان لويس العاشق ، الواثق ، المرح ، الذي يعرف انه كانه ، نذلاً ، محباً للظهور ، بعيداً . لم ينسَ هو قط ، على أيّ حال ، الصبية الفاتنة السعيدة ، المرأة الوفية التي كانتها ، والتي كان يحاول ان يتوجه اليها بالحديث كل مرّة . وبحنانٍ ملؤه الحزن والاستغراب ، كان دائماً يراها ترفض ان تسمعه ، بينما كانت هي تجد في هذا الوضع السافر ارتياحاً فكرياً مرّاً ، كما بدا له . لربما لم يعد كلاهما يشبه

الصورة التي قدّمها لخدنِه والتي أحبّها كلاهما • إلاّ انه هو لا ينكرها بل يأسف عليها : ما أصبح يشكو منه هو انه لم يعد سعيداً على أيّ حال • بينما هي لا تشكو في النهاية الا من أنها خُدعت •

وفكّر وهو يفتح عينيه في الظلام « وهذا كان بلا شك ، ولربما لأنني أحببت حقاً هذه المرأة ، ولأني آسف حقاً عليها سأتمكن من هجرها • وهذا ما لا تستطيع هي ان تفعله أبداً • ذلك أن هجري لها سيكون ، اذا هجرتها ، لأني أتذكّرها • »

وكان الصوت يهذي في الأعالي ، بعيداً جدّاً :

« أتدري ، يالويس ، انه يمكن للكلمات ان تقود بعيداً جداً • علينا ان ننتبه • عليك ألاّ تقول لي أبداً انك لا تفكر بعمق ــ أضافت بوقار ــ حتى في الغضب • تعلمُ ان هذا يترك أثراً ••• أو تصغي اليّ ؟ »

ولكنه لم يكن يصغي اليها • إنه لن يصغي اليها بعد الآن أبداً • كان قد عاود إغماض عينيه ، وما يسمعه هو صفيرُ راكب درّاجةٍ في الشارع المقفر •

قال لنفسه ان اللحن سيكون عما قريب لحنه الذي سيصفره انسان حر آخر ــ قد يكون هو نفسه ــ عند الفجر ، في شارع مماثل •

* * *

لأنّنا جدّ فقراء

● قصة للكاتب المكسيكي: خوان رولفو ● ترجمة صالح علماني

الكاتب :

ولد خوان رولفو في قرية « سويولا » من أعمال ولاية خاليسكو المكسيكية عام ١٩١٨ . وقد شهد في طفولته الانتفاضات الفلاحية ، التي كانت أعنف ما تكون في ولايته التي ولد بها. وكان لهذه الانتفاضات تأثير شديد على نتاجه فيما بعد .

نشر خوان رولفو قصصه القصيرة الأولى في مجلة « خبز » الصادرة في مدينة «غوادلاخارا». وفي عام ١٩٥٣ نشر مجموعته القصصية الأولى بعنوان « السهوب الملتهبة » . ثم اصدر رواية « بيدرو بارامو » عام ١٩٥٥ ، فتوطدت مكانته كأحد أبرز الوجوه الأدبية الناطقة بالاسبانية .

من مجموعته القصصية « السهوب الملتهبة » اخترنا هذه القصة :

كل شيء هنا يمضي من سيء الى أسوأ • ففي الأسبوع الماضي توفيت عمتي « خاثينتا » ، ويوم السبت عندما كنا قد دفناها ، وبدأ الحزن يفارقنا ، أخذ المطر ينهمر كما لم يحدث من قبل • وهذا سبب لوالدي شعوراً بالاحباط ، لأن كل محصولنا من الشعير كان منشوراً تحت الشمس في الفناء • وقد هطل وابل الماء فجأة في دفقات كبيرة ، حتى انه لم يكن لدينا متسع لرفع ولو حفنة واحدة من الشعير واخفائها ، والشيء

الوحيد الذي استطعنا عمله ، نحن جميع من في البيت، هو احتماؤنا تحت السقف ، بينما كنا نرى كيف كان الماء البارد يسقط من السماء ليحرق ذلك الشعير الأصفر الذي حصدناه حديثاً •

وبالأمس فقط ، عندما أتمت أختي تاتشا اثني عشر عاماً من عمرها ، علمنا أن البقرة التي أهداها اليها والدي في يوم قديسها قد حملها النهـر •

لقد بدأ النهر بالتعاظم قبل ثلاث ليال ، عند الفجر • كنت نائماً حينئذ ، ومع ذلك فان الهدير الذي كان يأتي من النهر المندفع ، جعلني أستيقظ في الحال ، وأثب من السرير وألقي بيدي اللحاف بعيداً ، فقد ظننت أن سقف بيتنا ينهار • ولكني عدت بعد قليل لأنام ، فقد عرفت أن ذلك الصوت آت من النهر ، ولان هذا الصوت صار له ايقاع متشابه حمل النعاس الي من جديد •

عندما استيقظت، كان جو الصباح قاتماً لكثرة الغيوم، ويبدو وكأن السماء كانت تمطر دون توقف • وقد لاحظت أن هدير النهر أصبح أقوى ، وصار يسمع وكأنه أقرب • بينما انتشرت في الجو رائحة كرائحة الحرق ••• انها رائحة العفونة تأتي من الماء الصاخب •

ذهبت لألقي نظرة ••• كان النهر قد فقد ضفتيه ، وارتفع شيئاً فشيئاً على الطريق • كان ينفذ بسرعة عظيمة الى بيت المرأة التي يسمونها « لاتمبورا » ، وهدير الماء يسمع وهو يدخل الى الحظيرة ويخرج

بدفقات كبيرة من الباب . بينما «لاتمبورا» تمضي وتعود في بيتها الذي أصبح جزءاً من النهر ، وهي تحمل دجاجاتها وترمي بها الى الشارع لتذهب وتختبيء في مكان بعيد لايصله التيار .

أما في الجهة الأخرى ، حيث المنعطف ، فان النهر قد جرف ، ومن يدري منذ متى ، نخلة التمر هندي . لقد كانت في فناء بيت عمتي خاثينتا حيث لاتظهر هناك الآن أية نخلة تمر هندي . لقد كانت تلك ، شجرة التمر الهندي الوحيدة في القرية ، ولذا فان الناس قد تنبهوا الى أن هذا الفيضان الذي نشهده الآن هو أكبر فيضان عرفه النهر منذ سنوات بعيدة .

أختي وأنا ، رجعنا مرة أخرى في المساء لنتفرج على الماء الذي أصبح أكثر كثافة وقتامة ، وقد ارتفع الآن أعلى بكثير من مستوى الجسر الذي لم يعد يظهر منه شيئاً. وبقينا هناك ساعات نتفرج على ذلك المشهد. بعد ذلك صعدنا الى الرابية لنسمع ما الذي يقوله الناس المجتمعون هناك ، لأننا ونحن تحت ، الى جانب النهر ، لم نكن نسمع بسبب هدير النهر ، وانما كنا نرى أفواه الكثيرين وهي تفتح وتطبق وكأنهم يريدون أن يقولوا لنا شيئاً .. صعدنا الى الرابية ، حيث كان الناس يتطلعون الى النهر وهم يحصون الأضرار التي أحدثها . وهناك عرفنا أن النهر قد حمل أيضاً « سربينتينا » ، بقرة أختي تاتشا ، التي أهداها لها والدي في عيدميلادها .. لقد كانت بقرة جميلة ، لها أذن بيضاء وأخرى حمراء ، وعينان بديعتان .

لم أستطع أن أفهم لماذا عبرت « سربينتينا » النهر ، وهي ترى أنه ليس نفس النهر الذي تعبره كل يوم٠ ولكن، ربما أتت وهي نائمة،والا ما كانت لتدع نفسها تموت هكذا ٠ مرات كثيرة كنت أوقظها عندما أفتح باب الحظيرة صباحاً ، لأني اذا ما تركتها لتنهض على سجيتها فانها ستبقى طوال النهار مغمضة عيناها وساكنة وهي تزفر كما تفعل الأبقار عندما تنام ٠

وهكذا ، لابد انها كانت نائمة حين حدث لها ما حدث ٠ ربما استيقظت عندما شعرت بالماء الثقيل يصفع أضلاعها ٠٠ ربما ارتعدت عندئذ وحاولت الرجوع ، ولكن لدي محاولتها الرجوع وجدت نفسها عاجزة في دوامة تلك المياه السوداء القاسية ، والوحل اللزج ٠٠ وربما أطلقت خوارها طالبة المساعدة ، أطلقت خوارها بشكل لايعلمه الا الله ٠

سألت رجلا رأى البقرة عندما سحبها النهر ، اذا كان قد رأى أيضاً العجل الصغير الذي كان معها ٠ ولكنه قال انه لايعرف ان كان قد شاهده ، وانه رأى فقط البقرة المرقشة والتيار يحملها قريبا من المكان الذي كان يقف به ، وقد رفعت قوائمها الى أعلى ، ثم انقلبت ٠ وبعد ذلك لم يعد يرى قرونها ولا قوائمها ولا أي أثر لها ، وانه كان مشغولا بسحب قطع الحطب من الماء ،وهكذا لم يكن بمقدوره التأكد اذا ما كانت جميعها جذوعاً أم حيوانات تلك التي يجرفها النهر ٠ وبهذا لم نتوصل الى معرفة يقينية اذا كان العجل الصغير حياً ، أم أنه ذهب وراء أمه في النهر ٠٠٠ اذا كان هذا مصيره فليرحمه وأمه الله ٠

ان الحرج الذي وقع في بيتنا مما يمكن أن يحدث في المستقبل ، بعد أن أصبحت أختي تاتشا لاتملك شيئاً ٠ فقد استطاع والدي بعد عمل طويل ، الحصول على « سربينتينا » عندما كانت ما تزال بقرة صغيرة ، وأهداها لأختي ليصبح لديها رأس مال بسيط ، ولاتمضي لتصبح مومساً كما فعلت شقيقتاي الكبيرتان ٠

فكما يقول والدي ، انهما ضاعتا لأننا كنا فقراء جداً ، وهما كانتا عنيدتين ومتمردتين منذ صغرهما ، وعندما كبرتا ، أصبحتا تخرجان مع رجال من النوع السيء ، وهؤلاء علموهما أموراً سيئة ٠ وقد تعلمتا بسرعة وفهمتا جيدا الاشارات التي كان الرجال يطلقونها بالصفير لمناداتهما في ساعات متأخرة من الليل ، فتخرجان ولا تعودان حتى الصباح ٠ أو تخرجان في كل لحظة بحجة جلب الماء من النهر ٠ وفي احدى المرات ، ولم نكن نتصور حدوث ذلك ، كانتا هناك في الحظيرة تتقلبان على الأرض ، وفوق كل منهما رجل ٠

عند ذلك طردهما أبي من البيت ٠ لقد تحملهما في البداية بقدر ما استطاع ، ولكنه بعد هذا لم يعد يحتمل ، فألقى بهما الى الشارع ٠ ذهبتا الى « أيوتلا » أو الى مكان آخر لا أدري ما اسمه ٠ ولكنهما تعملان كبنات هوى ٠

والدي تألم كثيراً من اجل تاتشا ـ لأنه لايريد لها أن تنتهي كما انتهت شقيقتاها ـ وها هو يرى أنها أصبحت فقيرة معدمة بعد أن فقدت بقرتها ، ويرى أنه لم يعد بامكانها أن تتزوج من رجل طيب يحبها الى

الأبد ... لقد أصبح ذلك صعب التحقيق الآن . أما عندما كانت البقرة موجودة فقد كانت الأمور مختلفة ، اذ أنها لن تعدم من يتحمس للزواج منها ليحصل أيضاً على تلك البقرة العظيمة .

الأمل الوحيد الذي بقي أمامنا هو أن يكون العجل الصغير على قيد الحياة .. عسى ألا يكون قد عبر النهر وراء أمه ، لأنه اذا كان قد فعل ذلك فان أختي تاتشا لن تتأخر كثيراً حتى تصبح بنت هوى .. وأمي لا تريد لها هذا المصير .

أمي لاتدري لماذا عاقبها الله هكذا بمنحها بناتا من هذا النوع ، مع أن عائلتها - منذ جدتها حتى الآن - لم تعرف نساء سيئات السمعة . فتربيتهن جميعاً كانت ترتكز على مخافة الله ، وكن مطيعات ، ولم يسئن احترام أحد .. جميعهن كن هكذا . فمن يدري من أين أتت هاتان الابنتان بتلك الصورة الخبيثة ، هي لاتعرف ، وكلما فكرت بهما تبكي وتقول « ليحميهما الله الاثنتين » .

ولكن والدي يقول بأن أمرهما قد انتهى وليس له ثمة حل . وانما يكمن الخطر في تلك التي بقيت هنا : تاتشا . التي تمضي مثل قضيب البان، تنمو وتنمو، وقد أخذت تبرز في صدرها بدايات نهود تتوعد بأنها ستكون كأثداء شقيقتيها : حادة ، متعالية ، طائشة ، ومثيرة للانتباه .

والدي يقول :

- أجل .. انها ستملأ عيني أي رجل يراها في أي مكان ، وستنتهي

نهاية سيئة ... اني أرى أنها ستنتهي نهاية سيئة .

هذا هو العذاب الذي كان والدي يقاسيه .

وتاتشا تبكي وهي تشعر أن بقرتها لن تعود لأن النهر قد حملها معه . انها الآن معي ، وهي ترتدي فستانها الوردي وتتطلع الى النهر من فوق الرابية دون أن تتوقف عن البكاء ، وعلى وجهها تجري خيوط ماء عكر وكأن النهر قد دخل الى أعماقها .

وأنا أحتضنها مواسياً ، ولكنها لاتفهم ذلك ، بل تزداد رغبة الى البكاء . ومن فمها يخرج صرير يجعلها ترتجف وتنتفض بكاملها . ويستمر ماء الفيضان بالارتفاع ، وطعم العفونة الذي يأتي من النهر يرش وجه تاتشا المبلل ، بينما نهداها الصغيران يرتعشان ويهتزان الى أسفل والى أعلى دون توقف ، وكأنهما هكذا فجأة سيأخذان بالتضخم لتبدأ السير في طريق ضياعها .

* * *

قصّتان مِن فرنسا..

دانييل بولانجيه ــ جود ستيفان • ترجمة: صلاح دهني

قصتا « جان في القاعة » و « المبلّغ » من أحدث وأجمل القصص الفرنسي ، وهما قد تختلفان في الموضوع وفي الغرض ، لكنهما تشتركان في حسن فهم روح القصة القصيرة وقوانينها وصفاتها التي تميزها عن غيرها من الأنواع الأدبية • ونحن نحيي فيهما هذا الايجاز في القول وقوة التركيز وحسن توظيف المواقف وطريقة التعبير عنها •

« جان في القاعة » لأحد أعلام القصة في فرنسا : دانييل بولانجيه • ولد بولانجيه عام ١٩٢٢ ، ونشر أول رواية له « الظل » عام ١٩٥٨ ، وفيها وصف شاعري وماكر لضرب من الحياة في مدن الأقاليم فيها تباه ونفج وخضوع للمواضعات وأخذ بما هو غريب ومخالف للمألوف في آن معا • ثم أعقبها بالطريق الباردة ، الشجاع ، البحر على حصان وغيرها • وحصل على عدة جوائز أدبية مهمة آخرها « الجائزة الادبية الكبرى لمؤسسة أمير موناكو » في شهر أيار المنصرم عن مجمل أعماله • واعتبرت الصحافة الفرنسية هذه الجائزة تكريساً للكاتب بولانجيه كأحد أكبر

كتاب فرنسا المحدثين في القصة والرواية · كتب أيضا سيناريوهات أفلام وحوار أفلام ومثل وقد بلغ مجموع كتبه حتى الآن نيفاً وأربعين ·

أما جود ستيفان مؤلف قصة « المبلغ » فقد ولد عام ١٩٣٦ ، وسبق له أن نشر مجموعة قصصية سرعان مالفتت اليه الأنظار : «حياة أخي»· ثم أتبعها بمجموعات شعرية : السرو ، غزليات ، تتبعها شواهد قبور · وآخر مجموعة له : « الانثقاب » التي نستخلص منها قصة « المبلغ » ·

وقصص جود ستيفان متنوعة أبدا تتميز بمستويات متباينة بنحو غريب في الفكرة ، التحليل ، البحث البسيكولوجي ، الأمر الذي يتيح للمؤلف أن يبسط موهبته بنحو شاذ ، حميمي ، كئيب ، ساخر · ويظل الكاتب دوماً ذلك المعلم في السرد القصصي لئن بنى قصصه على أحداث من واقع الحياة ، أو على أحداث غير معيشة من بنات الخيال وفيض الخاطر ، وتظل لمسة شعرية في مستوى من الحنان أو القسوة ، حسب مقتضى الحال ، تستشف في خلفيات الأحداث ·

« ص »

جـان في القاعـة

كان ذاك خريف « المجمع الديني » ، وروما كلها في روما ، وما كان في المستطاع العثور على غرفة يأوي اليها المرء · وجان كوزينو التي هبطت في الصباح من قطار باريس لتلقى عشيقها الذي كان يصور لوحات طبيعة ميتة في حي الترانستفيري ، كانت قد أخذت تفقد الاحساس

بساقيها • فمذ قرعت الباب في بيت آردوينو آغرستي وأجابتها طفلة فتية : « بابا مسافر » •

ـ الى أين ؟

ـ الى صقلية ، ليصور الجبال • »

تيقنت جان أنها لن تراه من بعد قط • دخلت عشرين فندقاً، وعشر بنسيونات عائلية ، مشغولة كلها ، وقد جعلت المدينة تترجج وتصطبغ بلون صلصالي حار ينثال غبارا وينقلب بلون الاسمنت في ظلال الدروب الصغيرة • كانت ابنة آردوينو جميلة حقاً ، ذات فك متين بعض الشيء على صورة أبيها ، وعينين فاحمتين تغشاهما نقاط حمراء • وضعت جان آخر الأمر محفظتها أمانة في مقهى وتابعت بحثها عن مأوى • لو لم يدعها آردوينو، ولو لم يرغب في مجيئها لرؤيته ، لم أعطاها عنوانه؟ انه في صقلية لتصوير بعض المناظر الطبيعية ، مثلما جاء باريس لتصوير الشوارع •

« في منزلي لا أعطي سوى فواكه في اناء ، باقة ، حاجات • لايمكنني تصوير أشياء أخرى • وحين أصنع منها سلسلة انطلق حيثما كان ، بحثا عن الضجيج ، الحياة ، الآلات الضخمة • »

كانت تعود بالذاكرة الى اللوحات التي صورها في غضون الشهر الذي قضياه معاً : تقاطعات طرق مدومة ، دار الأوبرا ليلا ، سوق موفتار الشعبي ، ولوحة الباستل التي قدمها اليها وعلقها فوق سريرها : جمهرة الناس في حدائق فرساي أمام نوافير « المياه الكبرى » •

في سبيل أن تظل جان رابطة الجأش كانت تجرع كل ربع ساعة فنجان قهوة ، غير أن نعليها كانا يحرقانها ، فنزعتهما وسارت حافية القدمين · أخذ اليأس يساورها من ايجاد موضع تنام فيه ، وقد حل الآن وقت العصر ، والبيت المفروش الخمسون مشغول ، وهي تجتاز نهر التيبر من جديد · وجدت نفسها مجددا ، دونما قصد منها ، في شارع آردوينو الرطب · قرعت وفي ظنها أنها ستلقى الصغيرة ثانية ، الا أن سيدة ابتسمت لها ، كانت مثلما وصفها المصور ، فذهب ذهن جان بجموح الى أن من العجب العجاب أن نرى من يعيشون الجمال يربطون حياتهم بهذا القدر من الأشكال الكئيبة ·

« من أجل ماذا ؟ سألت مدام آغرستي ·

ـ غلط ، قالت جان · أعطوني دون ريب عنواناً خاطئاً · ألا تؤجرون غرفاً ؟

ـ كلا ، قالت الاخرى ·

ـ لم يعد في المدينة كلها موضع يصلح لايواء قط · دفعت مئتي باب ·

فقالت مدام آغرستي وهي تحدج النعلين في يدي جان :

ـ انه « المجمع الديني » · حتى بيوت البغاء ممتلئة · وقد أكدت لي ذلك صديقتي جيوزبينا فورني التي تدير بيتاً قرب ساحة اسبانيا · وجيوزبينا كانت معي فيما مضى في بيت لأخوات الهوى · فاذا كان في

مقدورها ان تفعل شيئاً فعلته • أترغبين أن أسألها ؟ »

من عتبة الباب كانت جان ترى الى الممر ذى البلاط الآصفر، وشجرة التين في الصدر من حديقة كثيفة وضيقة ومجنونة •

« هل أنت فرنسية ؟ زوجي يحب فرنسا حباً جماً • انه يذهب اليها كل سنة •

ـ كل سنة ؟ سألتها جان وقد تملكتها الغيرة •

قالت مدام آغرستي :

ـ هو فنان • ولو انه كان هنا لفعل المستحيل لمساعدتك • أدخلي ، سأكلم جيوزبينا • الهاتف في الطابق الأول • »

داعبت جان أعمدة الزينة على السلم • وكان يسمع صوت الموسيقا عبر الجدار • وثمة رائحة عتيقة لبندورة مشوية تفرش الدرجات الحجرية حتى اللوحة التي كانت تزين المنبسط العلوي وتمثل قدحين على مائدة ، فارغين ولكل لمعته على تجويفه ، شأن مجمل الأزواج ، وتخيلت جان مدام آغرستي وآردوينو جنباً الى جنب •

« جيوزبينا ؟ أنا كورنليا ، كيف أنت ؟

لم تكن جان كوزينو تصغي ، وقد استغرقها النظر الى داخل البيت الذي يؤوب اليه الحبيب بانتظام من بعد الهروب • وقد تفكك شيء ما في ذاتها شأن ما يحدث من بعد الخوف ، حينما يتخلص المرء من كارثة • في الأسفل ، كانت الصغيرة عائدة تغني ، وهي تقذف وتتلقى

حبة مانجه في يدها ، لم تبد اندهاشاً لرؤية الفرنسية مجدداً وفكرت الفرنسية أن الطفلة ستأتي على ذكر لقائهما الأول ، الا أن العينين السوداوين ذات البقع البرتقالية اللون تحولتا وجلجل صوت الأم معلناً عنوان مدام فورني ٠

« هأنا أكتبه لك ، خذي ٠ اسألي عن جيوزبينا ٠ انها معروفة ، وهي في انتظارك ٠ »

احتذت جان نعليها من جديد ، ولاحظت وجود نملة على احدى الدرجات ، ثم أخرى ، ورتلين يتصالبان في أسفل الجدار الأبيض ٠ وقد كان يسرها عادة أن تسحقها ، غير أنها غمرها احساس بالرضا لمشهد البيت الملغوم بالحشرات وهو ينهار فوق عائلة آغرستي ٠

قالت مدام آغرستي :

« أنا سعيدة جدا ٠ هنالك أيام تحملك فيها المصادفة على فعل الخير ٠ وأضافت وهي ترى جان تتملى من منظر لوحة القدحين: أتحبينها؟ لدى زوجي أفكار مبسطة جدا ٠ يصور ما يرى ، ويراه على طبيعته ٠ قدحان كسبناهما في يانصيب ، ذات يوم كنا فيه سعيدين ٠ »

هي ليست كذلك طوال الوقت ، فكرت جان التي كانت ماتنفك ترى بتلذذ الى البيت وهو ينهار ٠

« رغب بعض جامعي اللوحات في الحصول على هذه ، لكن آردوينو يحرص عليها ٠ أتفهمين جيدا ؟ هل أتكلم بسرعة أكثر مما ينبغي ؟ »

كان أردوينو يسألها ذلك أيضا ، منذ بعض الوقت •

« كـلا » ، قالت جان وهي تدس العنوان في محفظتها • « الوداع • شكراً • »

كان بيت جيوزبينا فورني يخبىء نافورة ماء يذكر خريرها في غرف المرمر بأن الحر ما ينفك شديداً •

قالت صاحبة البيت لجان :

« اذا لم يكن لديك مانع، سأستخدم غرفتك بعد الظهر حين تخرجين للنزهة • انني أرفض الزبائن ، لكنني يجب ألا أبالغ • اننـا نتبـادل المعونة ، أليس كذلك ؟ اعلمي انني أضع في صوان حمامك ـ فيما اذا نسيت ، وهي حالة قلما تحدث ـ عدة أزواج من المفارش • هل تعرفين رومـا ؟

ـ كـلا ، قالت جـان •

ـ انها اقليم ريفي • بؤرة زيت • في داخلها يتألق بعض الأحبـار المبهرين • وحبات فلفل النساء الدسمة مخبوءة في الأعماق • »

كانت جيوزبينا تلقي أول شص لها ، ولم تلحظ المرأة الشابة ذلك •

قالت جان :

« لن أتحرك حتى الغداة • فقدماي مدماتان • »

فما كادت تتمدد على السرير حتى قرع الباب وجاءتها خـادم بالملح والمراهم ، من قبل صاحبة البيت • فأسلمت جان قدميها للاستحمـام

والرعاية • وكان ثمة مرآة بيضوية الشكل معلقة بجدائل من خيوط القنب شكت فيها نبتات من زهور الخالدة تعكس لها صورتها ومجمل السرير • وافريز من تماثيل الحب الصغيرة التي حالت ألوانها تتراكض على حافة السقف • وكان المصباح المصنوع على شكل الفطر يحتبس ضوءه تحت غلالة منسوجة بالصنارة • نامت جان واستيقظت في حوالي ظهيرة اليوم التالي وهي في كامل ملابسها • دعتها جيوزبينا لمشاطرتها طعامها في الباحة الصغيرة الداخلية التيكانت تظللها فيشكل عرزال واق نبتة حلوه معترشة •

« تعرفين اذن مدام آغرستي ؟

ـ زوجها ، قالت جان وقد زايلتها الرغبة في الكلام أو في التستر على أي شيء كان •

ـ فنان ا نبرت جيوزبينا • سترين لوحة له في الغرفة (١ ، زنجية تسرح شعر أخرى • ذاك ما ينقصني ، زنجية • كان عندي منهن في بداياتي • كن يشتغلن كثيراً الىأن جاء يوم قلن ليوداعاً ليمضين وحدهن ويعشن معاً • لقد منحتهن بركتي لانني ليس لي سوى مبدأ واحد ، هو سعادة الجميع • تدخل الواحدة بيتي بلا عقد • فالقلب وحده ما يحسب حسابه ، وعليه تؤسس أمتن العقود • أنت جئت من أجل أردوينو ، اليس كذلك ؟

ـ أجل ، قالت جان •

ـ هذا حسن ، قالت جيوزبينا • يمكنني اذن أن أكلمك من فوري • »

رفعت جان عينين قلقتين وتقبض حلقها •

قالت مدام جيوزبينا :

« عرفت آردوينو وهو بهذا الطول • ثم أكبر • وقد احتفظ بأفضل الذكرى عن التربية التي منحته اياها • يجب أن يبدأ الصبيان حياتهم بين أيد خبيرة • فهذا سر الاحتفاظ بفؤاد فتي ، خلو من الجروح • انه بين الحين والحين ، ومن قبيل الاعتراف بالجميل ، يبعث الي النسوة الصبايا اللواتي يقابلهن • وانني لأعترف بأنك جئتني بلغة أكثر نعومة من المعتاد اذ يصطحب الى هنا صويحباته • لم يجرؤ على استقبالك • ان للرجال احيانا نذالاتهم ، لكن لعله أن يكون أحبك أكثر من الأخريات • »

كانت جان في مرحلة أبعد من العناء ، وعادت الى طبيعتها الكسول، وميلها العميق الى القبول بحكم القدر •

« أو تحبينه ما زلت ؟ سألت جيوزبينا • غالبا ما تكون عواطفنا محاولات مموهة للاقناع • والواقع أننا نتوق جميعا الى هدوء النفس ، تلك هي السعادة ، ولاشيء غير ذلك • »

كانت القوادة تحدق في جان بعين نفاذة وتخترقها • لم يك في هذه البنت الغاز الا في ظاهرها • وانها لتقسم بأنها غير جديرة بأن تتوجع • واذ كالتها بمكيالها ثمنت كل ما يسعها ان تستخلص منها •

« باريسية ! ذاك جانب أيضا من الاسطورة • وههنا يجب الافادة منه • في مدى شهور قليلة ، يا عزيزتي جان ، ستكونين لنفسك ثروة •

ستعودين الى موطنك ، وترتاحين ، وتحيين ميسورة دون اعتماد على شخص ، وتعودين لرؤيتي لموسم جديد •

قالت جان :

ـ ما عدت أريد رؤية هذا الرجل قط • هل يأتي الى هنا ؟

ـ سأتدبر أموري بحيث لاتلتقيان أبدا •

ـ هل يأتي ؟ غمغمت جان •

كانت موجة تنقض عليها ، واحدة من تلك الأمواج التي تكتسح في الكوارث الجدران والزهور ، الحاجات ، المارة ، الأشياء الحبيبة ، وتصهرها وتحيلها الى خليطة عجينية تغطي الأرض بحمأ ينهار • وجان التي كانت جيوزبينا تراها دقيقة القد في غلالات شفافة ، وهي تستقبل الزائر ببسمة حزينة أخاذة ، لم تعد سوى شكل حائر ، نتوء في صورة ما ضمن الوحل العام •

« أفهم كونك تفكرين ، قالت مدام فورني ، هذه منذ اللحظة اجابة بنعم • يا صغيرتي ، المستقبل لك • حصيلة كبيرة • لاتحدثيني بشيء عن حياتك في باريس • حدثني آردونيو عن كل شيء • أنت وحيدة • بائعة صنف ثان لدى خياط • مناولة دبابيس الى مصلحة الأثواب • الاتيان بقطع الفرو من خزانة الملابس ، قهوة للمدام البائعة ، زوج جرابات للزبونة ، الركض الى المشغل ، هل الطلبات جاهزة ؟ ساعية ، متدربة ، نقالة ! لاتنسي العينة ! اذهبي فاطلبي الى العارضة ان تعود

الى ارتداء القطعة الثامنة من المجموعة • عجلي يا جان ! وتبعث بـك العارضة بدورها لتعثري لها على أصبع أحمر شفاه ، والرئيسة لا تريد لك أن تستلحقك العارضة • دعي مساعدتي ، فأنا في حاجة اليها ! انني لا أعثر عليها قط• انها تقوم دوما على خدمة الآخرين• وبالطبع، هنالك اللحظات الطيبة ، حين تجرب الواحدة في القبو معاطف الزبونات ، حين تنتزع أختام المبيع الى اللواتي يرغبن بتزيين أثوابهن بقرشين • فهذا يزيد ، ولكن بنحو جد ضئيل وجد نادر ، حصيلة الشهر الضنينة ! عدا رسميات الصباح لدى الحضور ! ويلك ان انت نسيت أداء تحية الصباح لمديرة الدار ، وبالتدريج لسلم المراتب كلها ! لكنها آخر الأمر حياة ، ما دام أن سيدا ما يظهر ذات يوم ويرغب في تقديم وشاح ، ويكلمك هذا السيد بلطف ، يكلمك أنت ، أنت وحدك ، لان في وجهه نظرا • انه يدعى أردوينو • العين سـوداء ، نفق ينفتح هنالك على السماء ، اللوحـات المصورة ، غرفة الحب ، عن روما ، عني ، يا جان ! وهل لك أن تعلمي أنهن جميعاً ، جميع اولئك اللواتي ساعدتهن ، بعد الكثير من الزبائـن، زبائن رائعين وأنت تبدئين المهنة أيام « المجمع الديني » ، كلهن وجدن زوجاً ؟ انهن يكتبن الـي • لسـوف أجعلك تقرئين رسائلهـن • انهـن صديقات • »

أخذت جان الدورق بحركة بطيئة وقلبته ، ساكبة الماء على الغطاء ، ومخلصة الذبابة التي اجتازت الطاولة ، على مدى زمن طويل ، قبـل تمكنها من الطيران• فقدت عينا مدام جيوزبينا لونهما، وانقلبتا قرصين

شفافين ، بلون رمادي قاتل • كيف تراها انخدعت الى هذه الدرجة ؟ مع أن يد أردوينو كانت دوماً يد سعد • فيالسوء الحظ أن تكون جان التي استقبلتها الطفلة على غير توقع في المرة الأولى قد عادت الى بيت عائلة أغرستي من جديد ! كيف يعاكس المرء القدر ؟ نظرت الى الساعة الراقدة بين ثدييها وكانت على وشك أن تقول : « يا آنسة ، بعد ساعتين لديك قطار الى باريس » ، حين تبسمت لها جان • رأتها مدام جيوزبينا تأخذ الدورق من عنقه فزايلها أيما تفكير اذ تملكها الرعب • فلعل الموت حين يحم ، لايدخل الا الجسد المفرغ • شعرت مدام جيوزبينا انها رحبة وباردة ، قصر خال فيه الواح زجاجية طويلة تنتظر حلول الليل ، غير أن جان التي كانت تداعب الآن بكلتا يديها تعرجات الكريستال قالت بصوت واضح سمعته الأخرى كشكاة صادرة عن أعماق أبعد غرفة من غرف بيتها :

« حسناً ، أبدأ غداً • »

المبلـّغ

مت العديد من المرار ، ثم بعثت ، ثم مت وبعثت ـ دون أن يتخلف في ذاكرتي ، رغم ذلك ، أثر من تلكم الذاتيات الوقتية ، بل صرت بالمقابل غير آبه كلياً بمصيري ـ الى أن أمكنني آخر الأمر أن أمارس وظيفة أرضى عنها ، مرهقة بالتأكيد، لكنها منزهة كلياً عن أي غرض، هي وظيفة مأمور مكلف تخصيصاً بالوفيات • وأنا منتظم ، دقيق الألفاظ

شموس حسب الطلب : لذا ما كان لهم الا أن يحمدوا لي خدماتي • وعلى هذا ، أوفدت آنذاك الى مدينة صغيرة حيث باشرت عملي مذ وصلت مساء ـ فكلما بكر واحدنا في التخلص من تلكم الأمور ، كان ذلك أفضل اذ يتوجب على المرء أن يعجل في دفن حياته •

كان علي أن أقوم بعملي في شارع الأرامل ، وهو شريـان عريض للمواصلات كانت تقطن فيه كما تشير التسمية أكثرية من الأرامل وأرباب المداخيل ، بالاضافة الى عدد من الأزواج الشباب وفائض من الأطفال • مضيت ، على ذلك ، لدى هبوط الليل الى البيت الأول المقرر ، في الرقم ١٩ على اليسار صعودا • ضربت ضربات خفيفة على الزجاج ، مستعيناً بالدليل المطوي• وكان لباسي يمازج الظلمة الهابطة، فيما كنت أنتظر• وتسلقت الدرجتين المهترئتين كيما ألقي نظرة من فوق السجف التي يخمن المرء قذارتها وانها لم تستبدل منذ سنوات ، الا انني لم أكن أميز سوى كتلة ما انفكت منورة عن يميني : طاولة ريفية ، وظهر ألـق على الجدار ، آت من الظل ، فهبطت الدرجتين وانفتح الباب • تملكتني رائحة عفنة فيما كان يغلقه ـ وكان في الواقع هو الذي هبط ـ بعد أن وضـع المصباح على الطاولة • حنيت رأسي : « لدي ما أتحدث بـه معـك حول قضية خاصة • »

كان ينتظر بقية كلامي ، مرفوع الوجه ، متقبضاً بلا ريب بمـا اكتسب من تنبه دقيق عبر ممارسة مهنته كخياط• لمحت كرسياً وأشرت اليه بالاصبع ، سائلا اياه بالنظر، وجلست وظهري الى الجدار، ومرفقي

مستند على الطاولة • نده من جهة الظل صوت رفيع : « ليون ! » ـ فمضى يقف عند أسفل السلم و : « ماذا ؟ آت ، شخص جاء لشأن • » (لم يكن قد خمن بعد أي شيء •) عاد خبباً، واتخذ مكانا على كرسي، ملتفتاً بعض الالتفات ليواجهني ، وأخرج قراباً من جيبه وقرص أنفه بنظارة • كان الآن يتفحصني ، مطرق الوجه ، كما لو انه يدع لي الوقت لمباشرة اللعبة التي ستقودنا لأن نلتقي هنا كلا ليلة • قلت عند ذاك ممرّراً يدي التي ما انفكت في القفاز على شفتي : « يتعلق الأمر بقضية دقيقة بعض الشيء ••• » وأخبرته ، وقد جعلت جلستي أكثر راحة ، عن حلول الأجل بألفاظ واضحة ومع ذلك غير متميزة بنحو ما لاقناعه بنعومة بالأمر المحتوم الحزين: فالقضية ليست بذات بال في الواقع، ويمكن للانسان أن يعيش ثانية في آخر ، فيما بعد ، دون أن يدري حتى بذلك ، مستعيداً بين الحين والآخر وبنحو مفاجىء ذكريات مبهمة ومقلقة ـ بدل أن تنطلق كلمة خرقاء ، (وغالبا ما برهنت لي التجربة على ذلك) ، لتوقع الانسان في أحابيل الشك ، وتعيده الى الأسوأ ، الأمل : « الا انك تريد أن تخيفني ! » أو : « أو تعتقد أنني سأصدقك ؟ » •

كان واضحاً للعيان أن الشخص انسان بسيط ، ولم أخطىء في ملاحظاتي السريعة ، حين ابصرت به ظهراً ، وقد اعتمر بيريه ، وطالت لحيته ، واندست يداه في جيوبه امام باب بيته متبادلا الكلام مع بعض المارة ، ثم ماضياً لشراء زجاجة من البقالية المجاورة • ورغم ذلك كنت أخشى أن يظهر، شأن غيره ، انزعاجاً عديم الجدوى، أو يحاول المراوغة،

أو يتضرع ، أو يقاوم ما ليس منه مهرب • أجاب فقط حين فرغت ، وقد قلقت عيناه ، وغلظ صوته :

« وزوجتي ، ما الذي سيحل بها ؟ »

كنت قد تأملتها هي أيضا ، قصيرة متكومة على نفسها ، ممسكة بعنان كليب صغير ، فيما كانت ترافقه في نزهته اليومية ، وهي متدثرة بوشاح غليظ • ما من ريب في أنهما كانا زوجين سعيدين ، يكتفيان بالقليل بسبب عوزهما ، الا أنهما راضيان بما كتب لهما •

وعاد يقول : « هل أنت متأكد ؟ •• »

ـ نعم •

ـ ولكن أما كنت تعرفني حتى الآن ؟ ••

ـ وصلت لتوي ، وتعرفت اليكما ظهرا • نزلت في الفندق ، في أسفل الشارع •

ـ لكن ماذا اذا لم يكن هذا كله سوى حلم ••• أو خطيئة ••• ، قال ذلك وهو يمرر يده ، كالمذهول ، على اللحية القصيرة المشعثة والوسخة التي تبيض خديه •

قلت : كلا •

كنت قد تعودت الآن الرائحة ، فلا بد أنه البلاط الذي لم يغسل منذ زمن طويل • كان يستجدي تفسيرا ، الا أنه لم يكن في وسعي أن أعاود من جديد • فوقنا ، كانت المرأة تسير بخطا قصيرة ، وكنت أتساءل أين

هو الكلب ولم لم ينبح لدى قدومي • ولرغبتي بالابتعاد قبل نزولها ، غرزت عيني في عينيه، فقد كان الأمر يجب أن يتم، مستأذناً بالانصراف بقسوة ، ومهنئاً النفس لاختياري تلك الساعة المناسبة مستفيدا من تواطؤ الظل ـ فعلى هذا النحو سوف يمكنه أن يتم يومه بهدوء • فلعله أن يكون لهما ابن يأتي لزيارتهما مرة في السنة ، يكاتبهما ، كان ذلك مصدر فرحة أخيرة لهما بعد انفراط عقد الآخرين ، وانتظار موزع البريد والقراءة بصوت عال • كان المصباح يدخن ، وبما أنه لم يعد يفكر قط في ضبط فتيله ، فقد فعلت ذلك عنه ، ونزعت يدي من القفاز كيما لا أفسد الجو الهادىء المحيط بنا ، الذي يثبت انه ما من أمر غريب كان يحدث • ولامس ساقي شيء ما ، لاريب أنه الكلب هبط بلا ضجيج • عند ذاك جعل ينبح بعد أن تشممني •

قال العجوز : سأدعو زوجتي •

نهضت ، وبقي هو خافض الرأس ، منحنيا على الطاولة ، حيث كان القراب يلتمع في متناول اليد ، دون أن يعير أي انتباه الى تفجرات الكلب • لم يكن سوى خياط فقير تهرأت حياته وتخربت رئتاه حل مساء فتمدد ، لكي لاينهض من بعد قط • لم يكن في وسعي أن أبادره : « ما من سر مكنون، يجب أن تقبل الأمر » ، فاكتفيت بوضع يدي بالنحو المعتاد على كتفه :

ـ ليس الأمر بذي بال ، لاشيء بالمرة •

ـ ولكن زوجتي ، ؟ ٠٠٠ هكذا ، بغباء ٠٠٠ أما كان ثمة حاجة لابلاغي ٠

ـ أجل ، قل انه بسبب زوجتك ٠٠٠ »

والتي كانت ما تنفك تمشي في الأعلى، أوشكت أن تنزل، وظلالهما أن تتحرك وهلة ما ٠ فما بلغت، في الواقع، منتهى الشارع ـ وقد تصرمت بضع دقائق ـ حتى قرع ناقوس الموت في الساعة المحتومة ٠ فلا بد انه سقط هاوياً من الانفعال عند قدمي زوجته ٠ نظرت الى ساعتي ، وأخذت دفتري وشطبت اسم : غانديه ٠

على هذا المنوال ، أتممت مهمتي ، طوال فترة دامت حوالي ثلاثة شهور ، ذاهباً أول الأمر الى بيت مدير أحد المصارف ، في الرقم ٣٩ ، الذي كافح يائساً بالرغم من نصائحي في أن يستسلم للراحة ، مستشيراً أخصائيين باهظي الكلفة ، مستصرخاً أصدقاء له في جماعة سرية ليهبوا الى مساعدته ٠ ومن ثم نزلت الجادة ، من الجهة المزدوجة هذه المرة ، في الرقم ١٤ ، لدى سيدة عجوز : دخلت بيتها ذات مساء (كما دخلت بيت الخياط الذي باتت نوافذه مغلقة منذئذ) ودفعت بها الى قبوها ، فيما كانت تميل فوق سطل فحم ٠ مكثت على ذاك النحو طوال الليل تحشرج فاقدة الوعي، الى ان حضر أولادها صباح الأحد، وكانوا يقطنون الريف ويأتون ليمدوها بما يقيم أودها مرة في الأسبوع ٠ والكهربائي في الرقم ١٧ ، كان يقيم مقابلها : توفي بحادثة عمل حين فتحت العداد

خفية وكان يظنه مغلقاً ، فيما هو يصلح تيار الفندق · سقط هاوياً عن سلمه ·

ساد الذعر في الجوار · فذهب بعضهم في اجازات استجمام ، غير أن هؤلاء كانوا من الشباب الذين لم يكن الأمر يمسسهم بشيء · وزوجة الخياط ، في الرقم ١٩ ، لم تعش من بعده سوى شهرين : وكانت قد حطت الرحال في مستشفى ، اذ لم تعد قادرة على القيام وحدها بحاجاتها · على هذا لم يكن لي سوى أن أدع الحزن يفعل فعله ـ فبكت ، وأبلت نفسها ، وجفت نهائياً · أجهزت كذلك بالسكتة ، في الرقم ٣١ ، على مزارع ضخم اعتزل العمل ، السيد مارسيال · فلم يتأس أحد قط على مصيره ، على نقيض السابقين · كانت له ابنة دخلت سلك الدين ، عادت بهذه المناسبة لرؤية الدنيا ، وزوجة مخلصة كان قد اعتاد توبيخها · وأخيراً ، محوت بتصميم من عداد الأحياء ، واحداً بعد الآخر ، كاتباً عجوزاً خرفاً فاق عمره عمرَ كتبه ، وكاهن خورنية كانت وظيفته الصلاة في موت ابناء رعيته ، وطبيباً اشتهر في الجوار بمقدرته على الابراء ـ وتلك حالة أثارت أسف من بقي على قيد الحياة · فلما فرغت من تلك الميتات ، لم تتبق لي سوى واحدة قبل مغادرتي الحي ـ لان الولادات كانت تترى في أماكن أخرى ، مما يهدد التوازن الحيوي للمدينة ·

توجهت هذه المرة الى اسفل الشارع تقريباً ، وكان له امتداد من جهة واحدة ، يميناً ، نجا من أثر حرب سابقة في الرقم ٠٧ · قرعت جرس بيت ذي مظهر بال ، رغم أن نبتات من زهر البغونية كانت تتنافر

والواجهة المخططة · كانت الضحية قد أنذرت مؤخرا فيما كانت عائدة من شراء حاجياتها · فقد تملكها دوار فجعلت تترجح في الطريق بحيث انها ، وقد فاتتها فرصة التشبث بالسياج القريب ، أخذت تدور على نفسها مثل خذروف وسقطت بكل ثقلها على جنبها فوق اسفلت الطريق· فرفعها نجار العربات وأحد زبائنه وأعاداها الى بيتها · أجابتني هي نفسها ، فاتحة الباب على ممر تمتد به باحة صغيرة نحو الخارج ، تظهر بعدها خضرة حديقة ـ وذلك كله ضمن منظور بهيج · كان ثمة قط يتمسح بساقي ، فيما كنت أدخل مستعملا التوريات المعتادة ، وقد اجتذبني الضياء الذي تستحم به الساحة ذات الجدار المدهون مجددا بالأبيض · أدخلتني غرفة الطعام · من جانبي المفترق كانت نبتات خضراء تلقي أوراقها المتشققة ، وعلى الطاولة اللامعة تبتسم حزمة زنبق ، وعلى الجدار لوحة لابن قتل في حادث طائرة ، وعلى جدار المدفئة صورة فوتوغرافية لبنت صغيرة لطيفة ، وفي الجانب الآخر من تمثال صغير للربة ديانا الصيادة ، تمثال لموسيقي الماني · لم سجلت تلك التفاصيل في حين كان علي عادة ان اغلق عيني دون أي شيء ؟ على خزانة الصحون كانت ما تزال ترى ، في أطرها المذهبة ، وجوه مكبرة لبعض الأجداد · وأخيراً ، قرب الباب الذي ينفتح على الساحة المشمسة، قفص معلق يزقزق فيه عصفوران ·

ثمة أمور أخرى حيرتني أيضا · ففيما كانت الامرأة العجوز تكلمني ـ وكانت تبدو وقد هرأها الحمض ، فالعينان مخمورتان بسم

الأدوية ، والوجه مصفر" أو منفوخ في مواضع بفعل البودرة التي كانت تكافح ضد الأذى ـ كانت تسمع أصداء بيانو آتية من غرفة تؤدي الى الساحة ، ضيقة ، لكنها عميقة • خرج منها اذ ذاك كلب شائخ جاء يتشممني ، ثم تمدد على السجادة ، وقد صالب قدماً فوق أخرى ، علامة الانتظار الصابر • والقط الأسود الموشح بالأبيض اتخذ لنفسه بهدوء مكاناً فوق أحد الكراسي الجلدية وانشغل كلياً بتنظيف نفسه ـ والأمر المعتاد أن يكشف امري بسرعة، فيهرب أحدهما وقد وقف شعره، وينبح الآخر • كانت الامرأة العجوز قد سبقتني الى الكلام • ودون أن تتوسل الي ، أخذت تروي قصة وجودها بقوة ، متظاهرة انها ظنتني صديقاً قديماً لابنها وأنها لم تعرف للتو من أكون • كانت ابنتها تعكف على الموسيقا منذ وفاة الأخ وذهاب الأب الذي تركهما « لتجديد شبابه » • لفت نظرها الى أنها لم تعد تشاهد في المدينة الا نادرا والواقع أنه لم تعط لي أية اشارة الى حياتها) : كلا ، انها لم تعد تخرج قط • « أتريد رؤيتها ؟ » عرضت علي • نهضت بسرعة ، مؤكدا أن ذلك بوجه خاص يجب ألا يحدث • « انها تحيا وكأنها ميتة » ، تابعت كلامها وهي تحدجني عن قصد •

في لحظة الوداع ـ وكان علي أن أعاود المجيء وأن ألقي الحقيقة هذه المرة في وجهها دون أن أستسلم للانذهال بكلامها المشوش : فهي لابد تعرف أنني أجوب تلك الامكنة منذ بعض الوقت ـ أبصرت على الجدار ، فوق صورة الطيار ذي الشاربين الدقيقين ، رأس كلب مصغراً

ومعلقا هناك ، كلب يشبه ذاك الذي كان للمضيفة ، مجعد الشعر وبنياً• فلما خرجت وقعت في حيرة من أمري اذ كنت في حاجة الى روح عاشرة • فالفتاة لن تعيش من بعد موتها كما أسمعتني أمها ، وانها هي نفسها ما كانت تعيش بعد ما حل بها من مصائب ، الا لتتفادى وقوعها في براثن اليأس المطلق • وعلى ذلك يمكن تركها لتنطفىء وحدها ، كما فكرت ، فمرضها يوشك من جهة ثانية أن يقصفها بقسوة : فالحياة لذوي الصلابة ، لا لذوي الاوجاع • مضيت على ذلك الى بيت المبلغ ، ذاك الذي يذهب من بيت الى بيت ليخبر أهل المدينة بميتة الأمس وبساعة الصلاة الجنائزية • أخبرته بأن الناقوس لن يقرع مساء ، حسبما هو مقرر • ـ ولمن كان سيقرع ؟ سألني من وراء زجاج نظارته المدخن ، وقد استبد به حب الاطلاع رغم الرفعة التي تمنحه اياها وظيفته • ـ لقد تأجل الأمر الى فترة لاحقة ، والواقع أن الأسى الخالص لم يدخل بعد البيت ذا الزهور والطيور ، بل حل محله الحزن الذى سببه فقدان كلب مسن وأصم ، لدى حلول الشتاء •

بعد تلك الحماقة الطفيفة ، وخرقي وظيفتي (على أن الحيوانات اليوم في الحقيقة ، تبدو وقد حبيت بـ « النفس » الوهمية ذاتها التي يدعيها البشر وحدهم وقد خدعتهم لغتهم المنطوقة ، فلديهم دفن ، وصلوات ، وأسف كما يكون الأسف تماماً) ، تم نقلي الى مدينة أخرى، وألحقت بفرع مختلف ـ لم يعد فرع الشيوخ ، الميسر نسبياً ، بل هو أشد ايلاماً ، فرع « الموت المفاجىء وغير المتوقع » الذي يختص

بأشخاص يتمتعون بصحة كاملة وتقبض أرواحهم في حلاوة العمر · وعلى هذا ، فمنذ صبيحة الغداة يتوجب علي أن أنكب على العمل ، فأروح أقرع بالسر باب واحد ما من مواطني هذه الدنيا الفانية ـ قد يكون بابك أنت ·

* * *

اختراع لغة جديدة

من أدب ألمانيا الشرقية

قصة : وولف كانك كوهيل هاس ترجمة : محمد منذر لطفي

— ١ —

... تتالت الأرقام من مكبر الصوت بشكل متسلسل حتى وصلت الرقم « عشرة » ، لم يشعر (سترات) بالخوف .. ولا بالأمل ، ونظراً لأن الرقم « عشرة » كان رقمه ، لذلك تقدم بخطوات قليلة خارج الرتل الطويل ، وسار مترنحاً ذات اليمين وذات الشمال ، ماراً بالعديد من الوجوه الجامدة الواجمة حتى وصل نهايته ، ثم التفت يمنة .. وتابع السير بشيء من الألم باتجاه ذلك الرجل الذي استدعاه ، والذي كان يقف على قاعدة منصة .. وأمامه طاولة

---

* ولد عام ١٩٣١ في مدينة برلين ، عمل في احدى صحف الشباب لفترة من الزمن ، ثم عمل في شركة « ديفا فيلم » خلال الأعوام (١٩٥٠ — ١٩٥٢) ، ومنذ ذلك الوقت وهو يمارس الكتابة التي أولاها عناية كبيرة وتفرغ لها ، وهذا ما أتاح له الشهرة ، وبخاصة في مجالي الكتابات القصصية ، وكتابات سيناريو الأفلام .

معدنية تناثرت عليهـــا بعض الأوراق •• وانتصب في منتصفها « مايكرفون » رمادي اللـــون •

ـ ٢ ـ

•• الزمان نيسان ١٩٤٤ ، لقد كان « سترات » إذن صاحب الرقم عشرة في ذلك الصف الطـــويل الذي تشكل من رجال منهوكي القوى •• ووجوه مطرقة بوجوم وصمت نحو الجدار المرتفع بكل كآبة •

ومع أن النهار في بدايته ، إلا أن « سترات » كان يشعر بالتعب والإرهاق حتى الانهيار الكامل •• أو قلْ حتى الموت •• !

وقد يكون لصغر سنه دور بارز في تلك الحال التي وصل اليها ، أما السماء ـ التي كان ينظر سترات إليها بين الفينة والأخرى ـ فقد كانت رمادية اللون•• داكنة الغيوم •• تتهيأ تدريجياً لتقيؤ المطـــر ، وعلى بعد قليل جـــداً من تلك الغيوم •• على بعد قليل جداً من هذه الأرض •• بل وتحت امتداد تلك الغيوم بالذات كانت تقبع « هولاندا » •• نعم بلده « هولاندا » التي أُحضر منهـــا بالقوة مع خمسة رجال آخرين ، لقد حدث ذلك منذ مائة يوم •• لا بل منـــذ زمن طويل جداً قياساً الى العذابات المستمرة التي كان يتعرض لهـــا يومياً ، وأحس بالسؤال الملح القديم يعاوده من جديد : لماذا حدث هذا ••؟•• لماذا••؟•

ـ ٣ ـ

لقد أُحضر هنا ليستحم في العرق صيفاً ••ويتجمد من الصقيع شتاء ••

بل ليحمل الأحجار •• وليُضرب ويستلقي على الأثمال •• وينام على أشباه « البطانيات » •• ثم يأكل بقايا الخضار المتعفنة •• وأخيراً وليس آخراً لكي ينتهي من الوجود ••!

ولكن قبل أن ينتهي •• بل وحتى لحظاته الأخيرة •• عليه أن يعمل •• ويتنفس •• بل عليه أن ينسى من هو تقريباً •• وقد نسي أو كاد •• !

لم يكن سترات يستطيع أن يتصور أن ذلك المكان ، حيث ولد ، ذلك المكان الذي لا يبعد كثيراً عن حافة السماء ما يزال هو الآخر موجوداً •• نعم إنه لا يستطيع أن يتخيل أن تلك المروج وهاتيك الجداول •• ووالديه •• وأسراب الأماسي •• والرائحة العطرة المتميزة لصف الطالبات في مدرسته •• كل ذلك ما زال موجودا •• !

هل هذا ممكن ••؟•• هل ••!•• صحيح أنه كان طالباً في قسم الفيزياء العملية ، ومع ذلك فإنه لا يستطيع أن يصدق أن كل ذلك ما زال باقياً حقاً •• وكما هو •• لأن مثل هذا التصديق ـ وهو على هذا الوضع اليائس ـ كان فوق طاقته وتصوره وإمكاناته •

وباعتبار أن قانون حفظ القدرة البشرية وبقاء الحياة لم يعد ساري المفعول •• لم يعد يُعمل به ، على الأقل ، بالنسبة لهؤلاء الأسرى الذين يهرولون صعوداً وهبوطاً على السلالم الحجرية الكبيرة ، وهم يحملون الأحجار ، هؤلاء الأسرى الذين لا يعرفون من الحياة سوى شيء واحد فقط اسمه «العمل» يؤدونه دون تردد أو تذمر ، ويعيشون محنة رهيبة لا تأخذ بعين الاعتبار أبسط

ضروريات الحياة .. ، لهذه الأسباب مجتمعة .. فإن الموت وضع حداً لمعاناة خمسة من الطلاب الأسرى أصدقاء سترات ، أما السادس ــ سترات نفسه ــ فقد كان متعباً..منهكاً..على بعد خطوات قلائل من النهاية المحتومة..!

ــ ٤ ــ

لكنه اليوم لن يذهب الى مقلع الحجارة على ما يبدو ، وهــذا من حسن حظه بالطبع ، ذلك أن تتالي الأرقام من خلال مكبر الصوت قد توقف عند الرقم عشرة ، الذي هو رقمه كما هو معلوم ، ولكنه راح يسائل نفسه في حيرة .. لماذا عشرة رجال فقط..؟ وأين سيذهبون بهم ..؟ هل الى مستودع الفحم..؟ أم الى المركز الصحي ..؟أم ..!

ولكن تلك التساؤلات اضمحلت عندما تقدم نحو سترات رجل برتبــة عريف ، يرتدي معطفاً أبيض ، ثم قــاده ورفاقه التسعة الى المطبخ المؤلف من مبنى حجري ذي أرضية من فلين وآجر ، وُضع عليها ست قدور لامعة تحتوي حساءً ذا رائحــة نتنــة .

لم يكن سترات قد أُحضر ورفاقه لتناول الطعام ، بل لغرض آخــر هو « تقشير البطاطا » ، ذلك أن رئيس المركز كان قد أعلن عن عزمه بتحضير حفلة طعام احتفاء بأصدقائه ، وفي مثل هذه المناسبات فإن السادة والإداريين والكتبة والحرس والقائمين على التعذيب ، وحتى طبيب المعسكر .. كل هؤلاء جميعاً يتحلقون حول طاولات طويلة ليتناولوا الأجبان والبيرة ، ثم يأتي دور لحــم الخنزير المشوي ومعه سلطة البطاطا . ولتحضير هذا الطعام انتصبت في المطبخ

عشرة مقاعد مع عشر سلال مملوءة بالبطاطا ، تقابلها مثلها للنفايات ، ثم إنـاء معـدني كبير في الوسط .

— ٥ —

وجلس سترات على أحد المقاعد المستطيلة منتظراً بدء العمل ، لقد كان جو المطبخ دافئاً وهادئاً ، بل لقد بدا مريحاً جـداً اذا ما قيس بمقلع الحجارة وجوّه البغيض .. حيث التعب .. والعرق .. والموت أحياناً .

وقرب باب المحرس كان يقبع أحد رجال الصاعقة الألمـان (S. S.) داخـل محرسه ، بينما راح العريف الذي أحضرهم يتبختر في مشيته كالطاووس ، وهو يذرع المكان جيئة وذهاباً ، وكان يقف في بعض الاحيان أمام سترات ورفاقـه التعساء يراقب عملهم ، ولم يكن يفعل ذلك عن ضعة أو خسة وإنما بدافـع اهتمام مهني بحت منه ، ولكن هذا لا يعني شيئاً بالنسبة لسترات الذي بـدأ عملية التقشير بيدين مرتجفتين ، ولقلة خبرته في هذا المجال ، فإن القشور التي راح يزيلها كانت تحمل جزءاً سميكاً من البطاطا نفسها ، زد على ذلك أن عملية التقشير هذه كانت تتم ببطء شديد .. وتحت نظرات العريف النازي .

ويبتعد العريف قليلاً عن سترات ، ولكنه لا يلبث أن يعود إليه من جديد، وعندها يُسرع سترات في عمله ولكن دونما فائدة ، لأن السؤال الحتمي الذي لا بد منه يكون قد تشكل ، والحالة هذه ، على شفتي العريف الألمـاني :

— ما هو عملك السابق ..؟

— طـالب .

ويتابع سترات التقشير ثانية بيديه المرتجفتين دون أن ينظر الى الأعلى ، فقد كان يشعر أنه سيتلقى ، بين دقيقة وأخرى ، ركلةمن قدم العريف ، وأن جلبة تلك الركلة لا بد وأن تلفت انتباه رجل الصاعقة النازي القابع خلف نافـذة محرسه ، مستغرقاً في القراءة ، وعندها تحدث الكارثة •• حيث تبدأ عملية ركل وضرب عنيفة لا محالة ، قد تؤدي ــ نظراً لوضعه الصحي السيء وعدم قدرته على الاحتمال ــ الى النهـاية المحتومة •

لكن •• ولدهشة سترات العظيمة •• يتابع العريف قوله :

ــ لقد انتهت دراستك الآن على ما أظن •• بعد أن صرت عندنا ••آ•• ؟

وعنــد الظهيرة أُحضر لكل واحد من الرجال العشرة إناء يحتوي على حساءٍ تطفو على سطحه بعض قطـع اللحم ، وراح سترات يُفرغ الحساء في هيكله العظمي وقد اتكأ على الجدار ، لكنه شعر فجأة أنه لم يعد لديه رغبـة في الطعام رغم أنه بعيد عن الضوضاء •• بعيدعن مقلع الحجارة •

وتُلفتُ حركة الأعشاب الخضراء ، تحت الأسلاك الشائكة المكهربة ، انتبـاه سترات ، فيتذكر أنه الربيع ونيسان ، ويتقدم العريف نحـوه في تلك اللحظـة قائـلاً :

ــ ماذا كنت تدرس يا رجــل ••؟

ــ العـلوم الطبيعية •

ــ نعم •• إنني أرى ذلك •• يتمتم العريف بهذه العبارة كما لو أنه كان يعرف مسبقاً نوع تلك الدراسة •

— ٦ —

لم يشعر سترات بالخوف عندما تقدم منه العريف ثانية أصيل ذلك اليوم ثم وقف بجانبه ، في الوقت الذي كانت فيه أشعة الشمس تزحف من النوافذ الى داخل المطبخ الكبير ، بينما كانت البطاطا تُلقى في القدر ، وبعد ذلك جاءت الفرقة الخاصة في ثيابها البيضاء ، وبدأت عملها في تقطيع الخبز وتحضيره لليوم التـالي .

من يتصور الآن ، وفي هذه اللحظة أن إنساناً هنا وهناك يموت في الرمال أو في مقلع الحجارة تحت سياط التعذيب والإرهاق ، ليس بعيداً جداً عن هذا المكان .. من ..؟ سؤال طرحه سترات في داخله ، ولكن العريف أبى إلا أن يعكر عليه تصوراته تلك ، لأنـه أحس هو الآخر ـ على ما يبدو ـ بشعور داخلي مُلح وشديد يطلب منه أن يُريح نفسه بعض الشيء من العبء الذي يرزح تحته ، ولكونه كان يقف قرب سترات فقد راح يتمتم لنفسه بصوت مسموع وهو يقـول :

ـ اللعنة على هذا العمل كله ، عندما أخرج من هنا بعـد انتهاء الحرب سأذهب « لإيران » لا محـالة .

بدا واضحاً أن لذلك العريف أخاً أو قريباً في إيران ، ولهذا أخبر سترات بذلك ، ثم ابتدره قـائلاً :

ـ إنك هولندي .. أليس كذلك ..؟.. هل تظن أن إيران مكان جيد للذهاب إليـه ..؟

قال سترات براحة هـذه المرة :

ـ إنني متأكد أنهـا مكان جيـد •

ثم تابع التقشير ، لكن بهدوء ، نظراً لأن العريف بدا لطيفاً معه ، في الوقت الذي هـز فيه العريف رأسه وسط ضوء الأصيل اللطيف الغامر ، وشـعر بالسعادة •• لأن هنـاك شخصاً واحداً على الأقل يؤيده في رأيـه ويفهمه ، ثم بـدأ يتنهد بأسى قـائلاً :

ـ كم أنا آسف على هذا الوقت الضائع هنا ، لو استطعتُ على الأقل أن أتعلم اللغـة الفارسية فقط ••؟

ثم بدا مضطرباً حائراً ، في الوقت الذي أخذ فيه الفلق يزحف على وجهه المتغضن فبدا صادق التعبير •• كأنه وجه صديق مخلص •

ـ ٧ ـ

كان العريف رجلاً في الأربعين ، صحيح البنية •• مكتملها ، بالمقارنة مع هؤلاء الأسرى الأشباح الذين برزت هياكلهم العظمية بشكل واضح ، لقد رفعه القدر فجعله الآمر الناهي في هـذا المعتقل •• مع أنه بدا واضحاً أن من السهل خداعه ••!•• نعم هكذا تجري الأمور أحياناً ، وفجأة سمع سترات صوتاً في داخله ، ما لبث أن أصبح تمتمات على شفتيه ، وهو يقول كمن يحدث نفسه :

ـ إنني أعرف الفارسية •

رماه العريف بنظرة من عينيه اللامعتين غير مصدق في بداية الأمر الصوت

الخافت الذي تناهى الى سمعه ، ثم •• وبقليل من الشك •• تقدم منه وقال :

ــ أظنك قلت إنك تعرف الفارسية •• آ ••؟

هز سترات رأسه الى الأسفل بثبات ، فرد العريف بسرعة قائلاً :

ــ تعـال معي •

تبعه سترات بشيء من الاضطراب حتى وصلا المهجع ، وعندئذ التفت العريف إليه وقـال :

ــ والآن •• قل لي كيف حدث وتعلمت الفارسية إذن ••؟

لم يعد هناك مجـال أمام سترات للتراجع على الإطلاق ، ونفي معرفته باللغة الفارسية ، لأن المرء لا يمكن له أن يمزح مع عريف في الجيش الألمـاني في مثل هذه الأحوال ، ذلك أن أقل رد فعل يمكن أن يتلقاه نتيجة مزاح كهذا هو ضربة واحدة فقط تسقطه أرضاً ، ولا يمكن له أن ينهض بعدها أبـداً •

ــ ٨ ــ

لم يكن سترات يريد المزاح عندما أعلن معرفته باللغة الفارسية ، فقد كان الكلام مجرد حوار ومجاملة بالنسبة له ، لكنه كان يعرف في قرارة نفسه أنـه لا يريد العودة الى مقلع الحجارة •• حيث الهلاك المحقق بانتظاره لا محالة •

إنه يريد المكوث هنا في المطبخ ، حيث يستطيع أن يجلس في هذا المكان على المقعد كآدمي ، يقشر البطاطا ، ويحصل على قصعة حساء ، ولكن الشـيء الوحيد الذي كان يخشاه هو ارتجاف صوته أو اضطرابه اللذان يمكن أن يكشفا حقيقة أمره •• ومع ذلك فإن صوته لم يضعف ، بل حافظ على طبيعته وهـو يشكل الجملة التالية :

ــ لقد كنتُ في إيران قبــل الحرب .

ــ يا ألله .. هل تعلم ما سيحدث لك إن كنتَ تكذب ..؟

عكستْ عينا سترات الرعب الذي كان يُلمّح به العريف ، لأنـــه كان يعرف، تمام المعرفة ما يخبئه له في جعبته لو عرف حقيقة الأمر ، ولكن اللعبة يجب أن تستمر .. بل لا بد من استمرارها لأن ذلك أهون الشرين .

حاول سترات إظهار المزيد من الثقة بنفسه .. فبدا متأكداً منها وواثقاً بها نوعاً ما ، عندئذ تابع العريف حديثه بسرعة قائلاً :

ــ حسناً .. كيف تقول « صباح الخير » بالفارسية ..؟

أجاب سترات : « دالام » ، فصاح العريف :

ــ و « غـــائط » ..؟

توقف سترات لوقت بدا طويلاً .. نظراً لضيق الصدر الذي بدا على العريف ، الذي لم يلبث أن انتهره قائلاً :

ــ بالتأكيد هناك كلمة بالفارسية مرادفة « لغائط » .. ما هي ..؟

قال سترات :

ــ « توبـــا » .

ــ « توبا » .. كررها العريف بطريقة توحي أنه يريد حفظها .. ثـــم تابع قـــائلاً :

ــ إنك منذ الآن ستقشر البطاطا فقط ، للمحافظة على حياتك .

— ٩ —

والواقع فإن هـذا الحوار حمل في طياته الكثير بالنسبة لسترات ، لأن النتائج التي تمخض عنها وأعقبته كانت عظيمة جداً ، فلقد كان من عادة العريف « باتنباخ » أن يستقبل « رويدر » عندما كان يظهر هذا الأخير بعـد الولائم الكبيرة بشكل خاص ، نظراً لأنـه المسؤول الأول عن تنظيم العمل في هـذا المعسكر ، ولكونه كذلك فقد راح « باتنباخ » يشرح له حاجته منذ زمن طويل لرجل آخر ليساعده في الفرقة ، ولكنه لم يتمكن سابقاً من إيجاد الرجل المناسب، أما الآن .. فإنه لاحظ رجلاً ذا هيئة معينة .. قد يكون ملائماً .

كان « رويدر » يحرك رأسه طيلة الوقت الذي كان فيه « باتنباخ » يتحدث معه ، ولم ير في نهاية الحديث مانعاً من إلقاء نظرة على ذلك الرجل ذا الهيئة الخاصة ، فسار متثاقلاً بصحبة العريف حتى وصلا المطبخ .

تقدم « رويدر » من « سترات » وحدجه بنظرات فاحصة ، غـير مبال بكونه طالباً سابقاً في كليـة العلوم ، وإنما كان همه أن يرى كيفية عمل هـذا الرجل الذي بدا واضحاً أنه لا يجيد تقشير البطاطا رغم الجهد الواضح الذي يبذله من أجل ذلك ، ومع هذا ، فقد هز « رويدر » رأسه إشارة الموافقة ما دام العريف « باتنباخ » سيزيد له كمية النقانق واللحم والسمن ، ثم قفل عائداً الى المهجع ليدوّن اسماً ورقماً على ورقة معينة .

وفي اليوم التالي وصلت تلك الورقة الى مركز إحصاء العمال ، ومن ثم الى القائد المسؤول عن العمل في المعسكر برمته ، وهكذا فقد عاد « سترات » وحـده فقط من بين رفاقه العشرة الى المطبخ ليعمـل به ، ولم ينس العريف

« باتنباخ » أن يضربه على قفاه ضربة خفيفة أثنـاء عودته تأكيداً للصداقـة التي تمت بينهمـا .

— ١٠ —

الآن أصبح سترات إذن رجل العريف الألماني باتنباخ ، وهو لن يعـود ثانية الى المقلع وإنما سيمكث في المطبخ ويحصل على الخبز والحساء ليستطيع الوقوف على قدميه مرة أخرى ، ويقوي ذاكرته أيضاً .

وفي الوقت الذي كان فيه سترات غارقاً في حديث ذاتي مع نفسه ، كان العريف باتنباج غارقاً هو الآخر في حديث ذاتي مع نفسه أيضاً ، وقد بدأ يفكر في الأمر ، ويفرك يديه رغم استغراقه بالتفكير بشؤونه الخاصة تلك ، فرغم أن المسؤولين كانوا قد احتجزوه في هذا المعسكر لتدبير أمور الأسرى ، إلا أنهم لن يستطيعوا منعه من تعلم اللغة الفارسية الآن ، وحتى « رويدر » الذي بـدأ يحوم حول « سترات » هذه الأيام في محـاولة منه لمعرفة ما يجري بينه وبين باتنباخ ، لن يعرف .. ولا يمكنه أن يعرف أن تلك الرابطة القوية التي انعقدت أواصرها فجـأة بين ذلك العريف الألماني وهذا الهولاندي الجائع هي من أجل تعلم « لغـة جديدة » .. أنّى له أن يعرف .. أنّى ..!

— ١١ —

ولكن حتى « باتنباخ » نفسه لايدرك أويعرف أن تلك اللغةالتيسيتعلمها من ذلك الهولاندي ليس لها وجود في هذا العالم على الاطلاق ، وإنما هيمجرد كلمات وقواعد يؤلفها « سترات » نفسه ، نعم إن سترات وحده الذي يعرف..

وهو وحده الذي يقرر أحكام ومفردات هذه اللغة ، وكم من الكلمات سيحتاج في الأيـام المقبلة .

— ١٢ —

عند الظهيرة ، وحالما ذهب « رويدر » لتناول الطعام ، استدعى «باتنباخ» « سترات » الى مكتب الوحدة ، حيث كان يجلس هادئاً منتبهاً وأمامه بعض الأوراق وقلم رصاص قصير جداً لا يكاد يظهر من بين أصابعه ، وقد بدا أنـه على أتم الاستعداد لاكتساب المعرفة وتعلم اللغة التي طالما أحب تعلمها .

وفي ذلك اليوم الدراسي الأول ، أحب العريف باتنباخ أن يسمع شيئاً ما عن إيران ولو بشكل عام ، وكان سترات مستعداً أيضاً لتشبيع فضوله ،فأخبره أن الجو حار جداً هناك ، وأن النساء جميلات للغـاية ، وأن الفقراء فقراء .. والأغنياء أغنياء ، ويبدو أن باتنباخ كان سعيداً لسماع هـذه الأخبار بدلالة الرضى الذي ارتسم على وجهه ، نظراً لأن هذا الوصف ينطبق تماماً على ماتخيله هو مسبقاً عن بـلاد فارس ، ونظراً لأنه اعتاد أن يحضر سهرات عمـل ممتعة ومسلية ، فقـد ابتدر سترات بالقول ، سـائلاً إياه فيما اذا كانت مثل تلك السهرات ممكنة هنـاك أيضاً في بلاد فارس أم لا ، ثم توقف فجأة وسـأل سترات ، وعلائم الجـد بادية على وجهه :

ـ هل لديهم ملاهٍ أيضاً .. ؟

ولكن سترات لم يفهم بسرعة كافية قصد باتنباخ ، فبدأ هـذا الأخير بالشرح وزاد في سرد التفاصيل ، وعندئذ أسرع سترات قائلاً :

ـ نعم .. نعم .. هناك الكثير من الملاهي .. لا شك في ذلك .

هز باتنباخ رأسه موافقاً ، ثم طلب من سترات أن يبدأ الدرس الأول ، ويتعرف على معاني بعض المفردات مثل : (شرطة ـ شكراً ـ من فضلك ـ مطعـم ـ الخ ••) •

وكان من الطبيعي أن يشعر سترات بصعوبة وإحراج بالغين •• وهـو يتدبر الأمر بترجمة كل كلمة تسعفه بها ذاكرته ، ثم وهو يبدأ بتأليف الجمـل الفارسية المزعومة التي لا يفهم هو نفسه معناها ، وراح يتأنى قليلاً وهو يلفظ الكلمات التالية : (آلان ـ موناتو ـ لايس ـ توكي ـ سول •• الخ) ثـم توقف فجأة وأعلن لباتنباخ أن هـذه الكلمة الأخيرة غـير أصلية ، وأنهـا مأخوذة من لغة أخرى ، ثم انتقل ليخبره أن الكلمة الفلانية متداولة جـداً في المنطقة الواقعة شمالي إيران •• ثم تابع شرحه حول كلمة أخرى بقوله : إن هذه الكلمة تعتبر عالمية لأن لها وجود في أكثر من لغة •• وهكذا •• في الوقت الذي كان فيه باتنباخ يدون كل كلمة يسمعها بتأن وصعوبة بالغتين •

— ١٣ —

وفي المساء •• وتحت البطانيات البالية التي كان يستعملها أثناء النوم ، راح كتفه يلامس كتف جاره الذي يشاركه السرير في المهجع ، وشعر سترات بالتعب والقلق وهو يبحث عما يمكن أن يؤلف من كلمات فارسية ليقدمها الى باتنباخ في الدرس القادم ، وأكثر ما كان يُقلقه هو كيفية إيجاد نظام أو طريقة يستطيع بواسطتها أن يتذكر تلك الكلمات فيما اذا سأله باتنباخ يوماً عن إحداها •

وهكذا •• وبينما كان الرجـل النائم الى جواره يئن •• كانت شـفتا سترات منهمكتين في تشكيل تلك الكلمات التي لم يسمع بها إنسان قط ، وكان

يعيد كل كلمة مرة أو مرتين ليتأكد من حفظه لهـا ، وراحت شفتاه ترددان : (تال ـ ميب ـ ميل) التي تعني بلغتـه الضمائر الفارسية (أنـا ـ أنت ـ هو ـ هي .. الخ) .

ورغم حذر سترات وانتباهه الشديدين ، إلا أنه نال ضربة قوية بين عينيه سددها له باتنباخ بقبضة يده الفولاذية ، ثم ألحقها برفسة ، تلتهـا مجموعة ضربات أخرى على الجدار ، كل ذلك لأن كلمة (رونيدام) الفارسية المرادفة لكلمة (مطعم) الألمانية ، والتي كان سترات قد اخترعها سابقاً وعلّمها لباتنباخ في اليوم الأول ، قـد نسيها هو اليوم ، أو لنقل غابت عن ذهنه عندما سـأله العريف الألماني عنها من جديد ، وأخبره أنها « على طرف لسانه » لكنه لا يستطيع تذكرها الآن ، ولكن باتنباخ لم يرض بذلك التسويغ ، ولم يسمح له أن يلقي نظرة على قائمة الكلمات التي كان قد دوّنها ، ولسوء حظ سترات فقد كان باتنباخ واثقاً من كل كلمة تعلمها وكتبها في تلك الأوراق ، لذلك أمسك سترات بكلتا يديه وهدده بالتخلي عنه حتى قبل أن تنتهي فرصة الظهيرة .

ورد سترات قائلاً بيأس : إنه مضى على إقامته في إيران أكثر من عشر سنوات ، وكان وقتها صبياً ، وأن كلمة (رونيدام) تلك .. كلمة نادرة حقاً ، وأنه كان قد تذكرها بالصدفة عندما سأله باتنباخ عن معنى (مطعم) ، ثم أردف قائلاً : إن الكلمة الصحيحة (لمطعم) هي (ماردام) ، ومع ذلك فقـد قاطعه باتنباخ قـائلاً :

ـ سأدعك تتعفن في الجحيم أيهـا الهولاندي .

ساد المكان صمت ثقيل ، وأدرك سترات بما لا مجال للشك فيه أنه إنْ

لم يحصل على ورقة وقلم رصاص فلن يقــوى على تزويد ذاكرته بالكلمات اللازمة •• وبالتالي فإن العاقبة وخيمة لا محالة ، ثم اتكأ على الجدار وهــو ينظر الى العريف الألماني بعينين أطل الخــوف منهما والرعب ، ورماه باتنباخ بنظرة من جانبه الى جبهته حيث بدت البشرة مشدودة بفعل الضربة التي كان قد سددها إليه ، وبدا معها أحد العروق الزرقاء وهو ينبض على صدغ سترات، فتمتم باتنباخ لنفسه قائلاً :

ـ يا للعنة •• لو استطعت فقط أن أعرف ما بداخل هذه الجمجمة ••! ما بداخل هــذا الرأس •!•

وببطء بــدأ الشك يمتزج بالارتياب •• ولكنه شيئاً فشيئاً راح يتذكر كمية المفردات التي بات يملكها من تلك اللغة منذ الأيام الأولى وحتى اليوم •• وكيف كان يمضي تلك الأمسيات وهو منهمك في التعليم لدرجة نسيان هــذا العالم •• ونسيان الحقد الساكن في أعماقه تجاهه ، وارتسمت في ذاكرته صور بعض النساء اللائي يمكن أن يصل إليهن في المستقبل بواسطة تلك الكلمات الفارسية القليلة التي كان قد بذل جهداً عظيماً في تعلمها ، ثم تذكر فجــأة أن عليه أن يكون ذلك الرجــل المميز الذي يجب أن يستفيد من كل ساعة ، وأن يفكر في المستقبل الأفضل ، وأن تكون له أسراره الخاصة به ، وكذلك خططه البعيدة المدى ، لذلك فقد التفت الى سترات مهدداً بصوت متهدج :

ـ إذا كنتَ تخدعني وتغشني أيها الشاب••أو إذا كنت تجهل الفارسية•• فسوف ••• فيسرع سترات لمقاطعته بسرعة قائلاً :

ـ إنني أعرف بالتأكيد يا سيدي •• نعم •• نعم إنني أعرف الفارسية ••

ولكن طول الوقت الذي انقضى على عودتي من إيران جعلني لا أتذكر بعض الكلمات ..!

وشد ما كانت فرحة سترات عظيمة عندما بدأت تظهر علائم الرضى على وجه باتنباخ الذي بدا وكأنه يميل الى منحه فرصة أخيرة .

— ١٤ —

وبذل سترات بعد ذلك جهداً كبيراً للحصول على ورقة وقلم ليدوّن لغته ، وبعد كثير من المشقة والعناء نجح في ذلك ، ولم يخش اكتشاف أمره من قبل باتنباخ لأنه كان قد خبأ الورقة في قبعته بينما خبأ القلم في حذائه ، وهكذا فان اللغة الجديدة التي اخترعها موجودة الآن ومحفوظة بين قبعته ورأسه ، وكل ما عليه هو الحذر عند رفعه لقبعته بعد سماعه النداء من مكبر الصوت الذي يطلبون بموجبه من الأسرى رفع قبعاتهم ، عندئذ فقط يمكن أن تسقط (اللغة) الى الأرض ،ويمكن أن تكتشف وتؤخذ منه ، وعندها يعرف تماماً ما سيحدث له بعد اكتشاف أمره ، إنه سيُضرب من قبل الحرس ، ومن تلميذه بالذات بشكل لا رحمة فيه ولا شفقة .. نعم سيُضرب باستمرار .. وحتى المـوت ..!

— ١٥ —

اعتاد سترات أن يخبىء أيضاً ولكـن تحت ملابسه قطعة من الخبز أو قليلاً من البطاطا ليعطيها لرفيقه الذي يقاسمه سريره كل مساء ، لقد كان ذلك الشخص من أبناء مدينته « جروتجن » ، وهو يعمل في المقلع مع أن جسده لا يملك سوى جـزء يسير من اللحـم .

وعندما أقبل المساء راح سترات يبذل جهداً ملحوظاً في تأليف لغته وحفظها من قبله ، قبل أن يقدمها لذلك العريف ، لهذا فقد انكب على كتـابة الأحرف بطريقة معينة ذات انحناءات خاصة ، ثم راح يخترع كلمات جديدة للدروس القادمة ، ويحاول بعد ذلك أن يُدخـل على مفردات لغته تلك بعض أصوات اللغات التي كانت تُدرّس في المعاهد الألمانية المحيطة بالمعسكر ، والخاصة باللغات ، لا •• بل إنه أخذ يُعطي لغته أصواتاً تنقلك بعيداً جداً •• ليس الى بلاد فارس فحسب •• بل الى عالم غريب هادىء •• لأنه كان يهـرب في مثل تلك اللحظات من المعاني المخيفة التي كان يلصقها بمثل تلك الأصوات مثـل (ريوم ــ ريما ــ ماتوري ــ نارينورا •• الخ) • كان يرسـم الكلمات في جـداول ، ويحاول أحياناً أن يغير من لفـظ بعض الكلمات بشكل معكوس ليسهل عليه حفظها ، فكانت كلمة (دخان) بالألمانية تصبح (ناخد) بالفارسية على سبيل المثـال •

وهـكذا تابع باتينباخ تعلم تلك اللغـة الفارسية الجميلة ، والتي كان لا يخفي صعوبة اتقانها رغم أنه كان يستمتع بها على حد قوله •

وأصبح من عادة سترات أن يكتب ليلاً كلمات تلك اللغـة على ورقة صغيرة جداً ويخفيها في قبعته ، ثم يضع القبعة داخل قش الوسادة ، ولم يكن ليخترع أكثر من خمس كلمات في الليلة الواحدة ، وهذا يعني (٣٠) كلمـة في الأسبوع على اعتبار أن يوم الأحد عطلة ، وقد كان ذلك كاف بالنسبة لباتنباخ•

— ١٦ —

بدأ جسم سترات يتحسن ويصبح أفضل وأقوى من ذي قبل ، نظراً لأنه

أصبح يتناول صحنين من الحساء يومياً ، ومن خلال تلك الرائحة التي كان يعبق بها الجو لاحظ سترات أن الصيف قد عـاد ، وفي أحد الأيام اتنبه الى وجود رجل هولاندي يعمل في مكتب الإحصاء التابع للمعسكر ، كان ينتظره قرب المرحاض ، وعندما مر بجانبه ابتدره ذلك الرجل بالقول :

ـ ما الذي يجري بينك وبين العريف الألماني في غرفته كل يوم ..؟

ورد عليه سترات قـائلاً :

ـ وماذا يعنيكَ أنت من هـذا الأمر ..؟

أجـابه الهولاندي بقليل من التسامح :

ـ أنت لم تلحق بعملك الحالي صدفة .. أليس كذلك ..؟ لقد وضعنا نحن اسمك على القائمة العاملة بتقشير البطاطا لأنك كنت آخر الطلاب في هذا المعسكر ، ولأننا أردنا أن تتعافى قليلاً ، ولكن الذي اتضح لنا فيما بعد أن باتنباخ يسأل عنك دائماً .. لمـاذا ..؟

ساد الصمت المتوتر بين الرجلين ، غير أن طنين حشرة خضراء كانت تطير بجانبهما عكّره بعض الشيء ، ولم يكـن سترات يرى الشك في عيني الرجل الآخر فقط ، وإنما كان يرى معه أيضاً الشفقة والخوف والامتعاض مع شيء من القسوة ، كما كان يشعر في تلك اللحظات أكثر من أي وقت مضى أن تلك اللغـة التي كان يخترعها ، ـ والوحيد في العالم الذي كان يعرفها ـ يمكن أن تحميه .. ولكنها في الوقت نفسه يمكن أن تدمره أيضاً ، لأنها كانت تضعـه فوق مستوى زملائه المساجين ، وكان يخشى في الوقت نفسه أن يُفشي سـره لأي شخص .. حتى ولو كان صديقاً .. ولكن هل هناك صديق حقيقي في هذا

المعسكر ••؟ قد يكون هناك واحد فقط ، إنه الشخص الذي يقاسمه السرير في المهجع ، والذي يحمل إليه الخبز والبطاطا كل يوم •• ولكن حتى هـذا الشخص فإن سترات لم يكن ليطمئن إليه •

— ١٧ —

الزمان صيف عام ١٩٤٤ ••• حيث أخذت القاذفات الفضية تشق سماء ألمانيا ••ونظر سترات الى السماء••ثم اخترع كلمة فارسية مرادفة لـ (الحياة) دعاها (سافال) ، ثم كلمة أخرى (لشجرة التفاح) دعاها (بولي مولي) ، لقد فعل ذلك من أجل إدخال المرح والضحك والسرور على قلبه هو وليس على قلب باتنباخ ، ولكن •• وبناء على طلب من هذا الأخير بدأ يعلمه الأرقام الفارسية والتعابير والاصطلاحات التي يمكن أن تستعمل في سهرات العمـل ، وكان سترات يراعي شعور باتنباخ •• فعندما يراه معكر المزاج كان يخترع له كلمات مثل (انتقام) ، وإحدى هذه الكلمات كانت (سوليدو لادور ناتالم) وحاول باتنباخ أن يرفض مثل هذه الكلمات محتجاً لدى سترات خلال إحدى ثورات غضبه أنه يريد كلمات فارسية عملية دارجة وذات استعمال يومي ، لكن سترات أخذ يشرح له أن هذه الكلمات الطويلة هي التحية المعتادة المتعارف عليهـا في تلك البلاد ، وأنه يستحيل عليه عبور شبر واحـد من الحدود الفارسية دون (سوليدو لادور ناتالم) ، وعندها يستسلم باتنباخ وهو يردد (توبا) محاولاً لفظها بطريقة فارسية قديمة •

وبما أن ذاكرة سترات ، المدربة علمياً ، لم تعد مشلولة بسبب الجوع •• ولم تعد ضعيفة بسبب الخوف ، فقد راح يجهد الآن بالتفكير لاستنباط إطار

موحد لهذه اللغة الجديدة ليتجنب احتمالات الوقوع في خطأ لا يمكن تلافيه، علماً بأن خمسين رجلاً من حوله هلكوا يوماً بعد يوم..وأسبوعاً بعد أسبوع، لقد أُحرقتْ جثثهم وصعدت أرواحهم الى السماء، ومن المحتمل أن تكون أفواههم قد رسمت كلمة أخيرة ما قبل أن يغادروا هذا العالم .. غير أن لغة سترات لن تصل الى أحد، ولن ترتسم على أية شفاه في هذا الكون سوى شفاه العريف الألماني باتنباخ، سوف لن تحمل أية رسالة أو مدلول، إنها تمثل نفسها فقط، ومع ذلك فهي قادرة على إنقاذ حياة مخترعها على الأقل، وجعل باتنباخ ـ الذي يثابر على تعلمها بكل ما أوتي من قوة ـ كلباً وسخاً غير متعطش للدماء، إنها تجعله أكثر لطافة .. وهي ـ إن لم تحدث ذلك ـ فلن تكون ذات فائدة تذكر.

لكن سترات يحتاج الى خيال خصب ذي أفق واسع جداً ليستطيع أن يكتشف الأصوات التي يمكن صبها في قوالب الكلمات الجديدة .. ويحتاج الى الشجاعة لمواجهة الصعوبات المحتملة في المستقبل .. ويحتاج أيضاً الى جهود المجربين والمختصين ليقوم بعبء تلك اللغة خير قيام وعلى الوجه الأكمل .. وأخيراً وليس آخراً فإنه يحتاج الى العريف باتنباخ نفسه .. لذلك القواد الآتي من هامبورغ .. إنه يحتاج الى حماقته وبلاهته لتجعله يستمر في تلقي دروس اللغة الفارسية تلك.

ـ ١٨ ـ

في يوم من أيام آب حُمل سترات الى العيادة الطبية بعد أن سقط على الأرض مغشياً عليه، وقد بدا وجهه ملطخاً، أما لسانه فقد برز من فمه،

واستمر طريح فراش خشبي لمــدة ثلاثة أيام كان يهذي خلالها بشكل شــبه مستمر ، لقد سمعه المرضون يتكلم بهولاندية غامضة مضطربة ، بالإضافة الى مجموعة كلمات غير واضحة لا معنى لها ، ومرّ وقت" بدا فيه أنه قاب قوسين أو أدنى من النهاية ، لكنه كان أقوى من الذين سبقوه الى الموت ، لأنه بقي يمتلك ذاكرته ، وكان من عادة أحد الممرضين المرور بين صفوف المرضى كــل يوم ، وهو يحمل بيده حقنة تشفي الآلام كافة وبسرعة عجيبة •• إنهــا حقنة النهاية•• حقنة الخلاص من الحياة والبرء من الآلام والثبات والراحة الأبديين ، وعندما سمع ذلك الممرض صوت سترات وهو يصيح ويهذي اندفع نحــوه ، ثم أعلن بعد قليل أن لوثة أصابته ، ولهذا سجل اسمه في دفتر صغير خــاص كان يحمله ، ثم اقترب من يده ليرفع له القميص •• ويبحث عن أحد الأوردة ليحقنه •• ثم يأمر بسحبه الى الغرفة المجاورة حيث عشرات الموتى يغطون في ثبات أبدي عميق ، وعندها لن يسمعه أحد هنا ثانية •• ولن يسأل أو يفتش عنــه أحــد ••!

ونظر سترات ، من خلال ضوء الشمس الدافىء المنبعث من أحد النوافذ ، الى رفاقه الرجال المستلقين بجواره بــلا حراك •• وقــد تصلبت° وجوههم واحتفظت بملامح ساخرة رسمتها يد الموت في الثواني الأخيرة •• أما أصدقاؤه الطلاب الخمسة فقد كانوا يرقدون أيضاً •• وأفواههم مفتوحة كما لو أنهــم كانوا يحاولون الصراخ ••!

وهو •• ! أين هو الآن ••؟ هل هو حي •• ؟! •• إنه يحس أن له صوتاً يمكن أن يعوي به كالذئب ••! نعم إن له صوتاً يمكــن أن يصيغ بواسطته

كلمة تجعل كـل إنسان يفهم ويتساءل باستثناء أصدقائه الراقدين هنا بصمت كثيف من حـوله ..!

وعندما جـاء بعض الرجال الحاملين عدداً من النعوش لنقل بعض الموتى ، راح سترات يناضل بجنون في غمـرة حمّاه ، فانتبهوا إليه .. ونقلوه على الفور الى سرير آخر في غرفـة مجاورة .

وفي اليوم التالي بـدا سترات أكثر هدوءاً من ذي قبل .. وتقدم منـه الممرض الألماني ، ثم نظر إليه ، وهز رأسه قائلاً :

ـ قل لي أيهـا الشاب ما هي الكلمات المبهمـة التي كنت تصرخ بهـا البارحة ..؟ لقد اعتقدنا أنك تعاني من آلام النزع .. ولهذا هممتُ بإعطائك إبرة الخلاص .. إلا أنني عدلتُ عنها في اللحظة الأخيرة .. مفضلاً التريث .. في الوقت الذي ظن فيه بعض الأخذان على ما يبدو أنني أعطيتك إياها .. ولهذا حملوك الى غرفة الموتى مباشرة بعد مغادرتي .. ثم لمس بيـده جبهة سترات للاطمئنـان ..!

وبدا سترات ضعيفاً جداً .. قليل الحذر .. ثم أجـاب :

ـ إنها فارسية .. لكنها ليست فارسية حقيقية .. إنني أخترعها ..!

وعند ذلك سـأله الممرض الألمـاني بدهشة :

ـ ماذا تخترع ..؟

ـ لغة يا سيدي .. نعم لغة جديدة .

واعتبر الممرض أن ذلك من آثار الحمى .. وهكذا أُنقذ سترات ثانية..

وبدأ يتحسن تدريجياً ، لقد ظل الممرض الألماني يردد على مسامعه بأنه محظوظ جداً •• لأنه هرب من الموت في غفلة منه •• وأن حظه ما زال قوياً لأن عريف المطبخ باتنباخ ما يـزال يستخدم معارفه وصداقاته لإرسـال بعض كسرات الخبز لـه •

وبدأ سترات يقف على قدميه بشكل تدريجي ، وعندما سـأله الممرض الألمـاني ثانية عن تلك اللغـة تظاهر بأنه لا يتذكر شيئاً من هذا القبيل على الإطلاق ، إلا أنه بذل جهداً كبيراً أيضاً في إخفاء ذلك القلـق الذي زحف الى قلبـه عندما اكتشف ضياع قبعته •

— ١٩ —

سار سترات بعدذلك بخطى وئيدة متجهاً نحو مهجعه الأصلي بعد أن غادر العيادةالطبية والفراش الخشبي، وبدا فيسيره كشبح عائدمن الموت،كانتالوجوه التي يراها الآن تبدو وكأنها جديدة عليه ، وحين وصوله الى باب المهجع تقدم من المسؤول وصافحه •• فرد عليه المسؤول قائلاً :

ـ تعال معي إني أملك شيئاً لك •

وفي غرفة ذلك المسؤول استلم سترات قطعة قماش وسخة •• التي لـم تكن سوى قبعته •• ثم أخذ يتحسس قطعة الورق •• وهو يقلبها بين يديه •• في الوقت الذي قطع فيه المسؤول الصمت وهو يقول :

ـ لقد أحضرها إليّ الشاب الذي يشاركك السرير •

فسـأله سترات :

ـ وأين هو الآن •• صيحح إني لم أره في المهجع •

أجـاب المسؤول :

ـ لقد سقط مريضاً بعدك •• وهو لـن يعود أبداً •

كان ذلك المسؤول يتنفس من أنفـه بصعوبة •• وكأن أنفه قد كُسر •• وبصوت مسموع قـال لسترات :

ـ تستطيع أن تُحضر أي شيء تريـد من المطبخ ••!

ـ ٢٠ ـ

وهكذا عاد كل شيء الى سابق عهده ثانية•• عاد سترات الى العمل في المطبخ وعادتْ عينا العريف الألماني باتنباخ تلمعان ببريق الرضى ، ولأنـه لا يسمح لسترات بالتوقف عن الدروس •• لذلك فإنه كان يجلس كل ظهيرة ـ وبعـد ذهاب « رويدر » ـ الى الطاولة ، وقد ابتلعتْ كفه قلم الرصاص الصغـير ، وعكس وجهه صبر وحلم الطالب النجيب الذي لا يريد أن يُفوّت عليه شيئاً •

(يتعلم) تعني بفارسية سترات (ليفو) ، وقد تعلم سترات بالفعـل أن يهرّب خلال فرصة الظهيرة قلم رصاص وورقة كلما كان بحاجـة الى ذلك ، بالإضافة الى قليل من الخبز والبطاطا يقدمهما الى جاره الجديد الذي يناصفه السرير في المهجع ، وفي الوقت الذي يأخذ فيه كتفا سترات بملامسة كتفيْ جاره الذي يرقد الى جانبه في المساء ، يكون عقله مستمراً في تأليف الجمل والعبارات وتصريف الأفعال •• يرددها بينه وبين نفسه كي يحفظها ، ليس فقط من أجل إلقاءها على مسامع باتنباخ المسرور بها •• وإنما لأنه بدأ يشعر بدوره أن هذه اللغة التي اخترعها •• والتي جهد الليالي بتأليفها •• قد امتلكته هو الآخر !

ولكن •• ودون سابق إنذار •• شعر سترات أنه مهدد فجأة وبشكل كبير بخطر داهم قد يكشف سره ويعرضه الى ما لا تحمـد عقباه ، ذلك أن باتنباخ سمع أن رجـلاً إيرانياً قد أُرسل الى المعسكر •• نعم رجل فارسي حقيقي من لحـم ودم ••!

يا ألله •• لقد قضى باتنباخ يومين كاملين ، مستعملاً كل ما أُوتي من حيل وألاعيب وصداقات ومعارف كي يظفر بذلك الشخص الإيراني •• حتى عثر عليه أخيراً •• ولكنه ـ ولحسن حظ سترات ـ لم يكن إيرانياً وإنما كان من شبه القارة الهندية •• ولذلك بقي باتنباخ يشتم ويلعن طـوال ذلك اليوم •• ويتمتم لنفسه :

ـ تباً لهـذا المعسكر المتعفن •• إنه معسكر رعاع وأوباش •• لا يوجد فيه حتى رجل فارسي •!•

وعندما شاهده سترات بهذه الحالة الانفعالية الحزينة التي كانت تلفـه من قمة رأسه الى أسـفل قدميه قال له :

ـ هوّن عليك يا سيدي العريف باتنباخ •• إنك لن تجد رجلاً فارسياً واحداً هنا•• لسبب بسيط واحد هو أن « الفوهرر » لم يصل بعد الى هناك•• الى إيران •• وهـذا من سوء حظ أولئك الرجال البعيدين الذين يسكنون الهنـد وما جاورها من بلدان •

وارتاح باتنباخ قليلاً لهذا التبرير الذي أرضى غروره •• سيما وأنـه يعرف تمام المعرفة أن الأمر قد أُسقط من يده •• وفوق إرادته ••!

— ٢١ —

وأتى الخريف •• ثم ذهب •• وأخيراً هو ذا الشتاء قد حلّ برياحه المتجمدة التي أخذت تعصف بالمعسكر وتحمل معها كتل الثلج الأبيض •• التي راحت تغطي الأرض وتغمرها ، ومشى صف طويل من الرجال في أثمال بالية بخطى وئيدة •• ثم مروا خطوة خطوة من خلال باب المعسكر الذي أُرسلوا إليه من معسكرات أخرى ، بعد أن استطاعوا التغلب على عناء المسير الشاق الطويل •• وها هم الآن قد بدؤوا التحرك للإقامة في خيام هزيلة بدلاً من مهاجع قديمة •• حيث سيضمحلون ويتلاشون رويداً رويداً تحت السماء المرصعة بالنجوم ليلاً •• والغيوم الهاربة بسرعة نهاراً •• نعم إنهم سينتهون لا محالة وسيموتون برداً بسبب استحالة تأمين الدفء •• وندرة شروق الشمس •

وخلف إحدى نوافذ المطبخ الكبير حيث يلف المكان قليل من الدفء •• وبغياب العريف الألماني باتنباخ •• راح سترات يلعب دوراً مسرحياً فارسياً خيالياً على النحو التالي ، ويحضّر من خلاله « بروفة » ممتعة تُرضي ذلك العريف :

— إنني رجل أعمال آتٍ من الخارج ، أيمكنني مشاركة السيدة هذه الرقصة ••!

(تامولي ليم باسار ميلكوا ، نيلي تارماد امداد دونكا ••؟) •

— ٢٢ —

وأخيراً جـاء ذلك اليوم الكبير من أيـار •• الذي انفتحت فيه كـل الأبواب •• وتفتحت فيه براعم الأشجار •• وأصبح كل الأحياء أحـراراً في الذهـاب حيث يشاؤون •

وعاد سترات الى هولاندا مع من عاد •• وأنهى دراسته في الفيزيـاء •• وأصبح مدرساً ناجحاً •• واستهلك حياته كلها •• لكنه يعترف الآن بأنه لم يعمل خلالها عملاً أكثر عظمة من عمله الذي أنجزه هنا •• لقد اخترع لغـة جديدة •• لغـة •• هو نفسه الآن أخذ ينساها يوماً بعد يوم •

أما العريف الألماني باتنباخ فقد رحل أخيراً الى بلاد فارس •• رحل الى إمبراطورية إيران •• لكنه استغرب وتعجب لتلك اللغة التي كان الفارسيون يتحدثون بهـا ••!

نعم •• لقـد بـدا له ، للوهلة الأولى ، أن أهـل فارس لا يحسنون التحدث باللغـة الفارسية ••!

※ ※ ※

بم تفكر هذه الجبال

للشاعر الألباني المعاصر: اسماعيل كادارا — تقديم وترجمة: عبد اللطيف الأرناؤوط

تمتاز قصائد الشاعر الالباني المعاصر (اسماعيل كاداره Ismail Kadare) بخصوبة مشاعر العمال والفلاحين وتتضمن أشعاره نفخات من ارث مجد آبائه وعظمة أجداده •• فيكشف عن حقيقة الايجابية في جميع أحاسيسه ••

ويعد الشاعر /كاداره/ المولود في عام ١٩٣٦ من شعراء الجيل الذين نزعوا - بعد التحرير - الى التجديد والابتكار بعيدين عن التقليد والقديم• فتمتلي قصائدهم بمعاني الغبطة لاكتشاف المستقبل المجهول •• ولمعرفة الذات الانسانية •• ولتحقيق عناصر الارادة الشاعرية •• فالعالم الشعري عندهم مجموعة من المنجزات الوطنية والمكتسبات الاشتراكية • وتعد تجربة /كاداره/ اكتشافا للحركة التعبيرية التي ينحصر فيها دور الشعر في لحظات التعبير عن نشاط الانسان في معترك الحياة • ويمكن قياس عمله الفني وتقييمه بالطاقات الابداعية الخلاقة والشحنات العاطفية الانفعالية ••

وقد استطاع / اسماعيل كاداره / من صياغة روح أمته في ملاحمه الشعرية المنبعثة من أعماق الأرض والقوة والحب ٠ فهو دائم الحركة الايقاعية ويتجلى في حركته الشعرية الذوق الانساني فالشعر عنده لغة الوجود وانفعال الوجدان وتعبير صادق تعقدها الروابط الانسانية ٠٠ وتحفل قصائده بالايقاع والموسيقا ٠٠ ذلك الايقاع المتناسق والمتضافر بمقومات التجربة العاطفية والملامح الشعرية ٠٠

وتحمل القصيدة التالية أنسام الطبيعة الألبانية ٠٠ وخيال الشاعر الألباني ٠٠ ووحي الانسان الألباني المتمرد على الضعف والاستكانة ٠٠ والطامح الى العلا ٠٠ والكرامة ٠٠

* * *

بم تفكر هذه الجبال ٠٠ ؟؟

بـم تفكر هذه الجبال الشامخة ؟؟
عندما تغيب الشمس وراء السفح
يتسلق مغامر عند الغسق
حيث تلقي بندقيته ظـلا مديدا
على أرض الوطن ٠٠

* * *

يتحرك ذلك الظل بسرعة
قاطعاً مسافات من الجبال والسهول والقرى
وأنا أيضاً ٠٠ أسير على منحدر

مستغرقاً في تفكير عميق
من الذي يعرف مكاني ٠٠ ؟؟
ظلال بندقيتي وفكري
تلتقي معـاً
تتقاطع ٠٠ تتلاشى ٠٠
عند غروب الشمس

* * *

وهكذا انطلقت دائما
يـا « البانيا » بخطى ثابتة
مضيت دون أن تعرفي ٠٠
الى أين المسير ٠٠ !!
قد يكون الصباح غائماً ٠٠ ضبابياً ٠٠
قاتماً مغبراً حاملاً بقايا الليل

* * *

عندما تجرف السيول الطمي
تبقى جذور الاشجار عارية
وهكذا فان السنين الطويلة
نخرت عظامك ٠٠
وتركت عروقك واضلاعك عارية

* * *

أضلاع ٠٠ وعروق

صـخور ·· وأحجـار
سـهل ضيق ممتـد
مرت عليك القـرون
عضـك العـدو
ونثر منك قطعا هنا وهنـاك
هاجمك ذلـك المشرد
وعندما تقدمت اليـه
صفعت وجهه الكريه ··
لم تتوقفي ولم تتراجعي يا البانيا

* * *

لـم تلقِ بندقيتك
تنكبتها بشغف
حملتها على كتفيك النحيلتين ··
البارزتين · التي غطتهما الندوب ·

* * *

غمست رغيف الخبز
في حساء الشعير والذرة
وفـرت الدهـن
لتشحيم البندقية التي حملتها ··

* * *

انجبت زوجتك اولادا ··

وأحدث مدفعك رعودا

والألبانيون يفخرون بك ..

الولد والرعـد

سيحرث الولد الأرض فيما بعـد

وسيطارد رعد البندقية فلول العدو

* * *

هناك كان الشعراء

يجلسون على مقاعد منحوته

من جذوع الاشجار

أشجار انتصبت في غاباتك ..

كتبوا عنك القصائد العديدة

استلهموا المقاعد اللامعة المستديرة

وكانت الطيور تغني ..

فوق الاشجار التي

اجتثتمن أعماقها

وتم صنع الاثاث منها ..

* * *

يبدو أنهم نسـوا

الغابات الممتلئة بالشجر .. العملاق

حيث سرحت الذئاب

الاوبئة الفتاكة

القت بك على الأرض ..
والدجالون .. جعلوك صماء
مثــل عطارد
أثناء الحروب ..
التي أكلت ابناءك .

* * *

شراسة العدو هز الأرض
وبــدد عظام البلاد العارية ..
وفجأة .. زأرت البلاد الجائعة
سددت ضربة قويــة
وثارت غير عابئة ..
تنشر الجوع والعطش
وانطلقت تقيس الأرض ..
بمقياس صغير ..
لا بــل بالمتــر ..
بل بطول البندقية

* * *

كم من البنادق سددها العدو
نحــو صدرك ..
كم خلف هجومه الغادر
قبوراً مبعثرة ..

وجئتأ لسكان الجبال
وعواصف هوجاء
وأسماء مشطورة
ومنذ زمن قريب
نبتت أكوام من الأحجار
بدلا من الأزهار
وتعالت أغنية رتيبة الايقاع
أنشدتها قبائل الوطن ..
أغنية مجد وفخر ..
حتى اندثرت البندقية تحت التراب
وضاع الاسم ..
وتبددت المقاطع مع العاصفة ..
مثل ثمرة البلوط ..
وقد أصابها البرد والصقيع ..
لقد تلاشت الأغنية
التي أنشدتها القبيلة ..

* * *

زحفت « البانيا » كلها
بأكواخها ..
لتقضي ليالي حزينة أسطورية
لتستعد للمعركة ..

وكشفت عن مشاعرها
التي تجري في دمائها ··
ونفخت في أعماق الارض
روح البطولة والفداء

* * *

حاولت أن تقول شيئا
لكـن ·· هل باستطاعة
ثلاثة أوتار قصيرة ··
وأصابع مرتعشة
من البرد والجـوع ··
أن تقـول شيئا

* * *

انطلق ألباني نحيل من جديد
وكأنه نبت من الأرض
وعلى كتفه النحيلة العارية
نمت بندقية طويلـة ··
رأيته في الذروة على طرف جبل
رأيته في الاسفل على السهل ··
وقد جعلته بندقيته طويلا
مع أنهـا كثيرا ··
ما جعلت حياته ··

قصيرة جدا ٠٠ وبسيطة

* * *

مضغت الأساطير في الليالي الباردة
وبعدها ابتلعت أغانيك ثانية
في أرض الآبــاء الجائعة
سقطت على محراثك
وفوقك سماء داكنة
أخذت جرعــة ٠٠
ولكنك لم تحلمي مع الأسف ٠٠
بالسعادة أو الحب
كالآخرين في العالم
حلمت واشتهيت
كسرة خبز أخرى
ملعقة من مصل اللبن
حلمت بالخبز والمصل
وبقليل من الدهن ٠٠
لتشحيم بندقيتك ٠٠

* * *

حفلة عرسك مع الغنــاء
جلبت كوميض البرق في الليل
ضربة طبل وقلق

ولكن . مع قليل من السعادة
السعادة التي حلمت بها طويلا
خلف محراثك .. وفي أزماتك

* * *

الليالي تتمخض عن الأصباح الباكرة ..
قاتمة كالرماد وداكنة
والأيام .. لعنت الليالي .
والليالي لعنت الصباح ..

* * *

البانيا البسيطة الحانية
أنجبت أطفالا وسيمين .
وتحت كل طفل
تطلعات وأحلام وآمـال
والكل .. امتص صدرها الجاف
لكن أبناء البانيا حاربوا
في فيا في الصحراء ..
وعندما لاقوا منيتهم ..
كانوا يبحثون عن خلاصهم في الاستشهاد

* * *

أرسلت أبناءك خارج حدودك
ليتعلموا الأشياء الحسنة

وعند عودتهم اليك ..
لم يجدوا الا الحزن .. والألم .. في الوطن ..
وغيوما صفراء محملة بالمطر
بينما كان الملك ..
يحطم ببساطة كل أحلامهم ..
أتوا .. جاؤوا ..
بأوهامهم في جعبتهم
ومشوا بأمانيهم الفاسدة
تحت ظلال الخيالات القاتمة ..
بجانب الاديرة والمساجد ..
الى أن ناداهم المطر والقبر *

* * *

---

*

* وستنشر المجلة القسم الثاني من هذه القصيدة ومختارات اخرى من شعر اسماعيل كاداره في عدد قــادم .

محتوى العدد

الموزعون

سورية : المؤسسة العامة للتوزيع ــ دمشق

الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع

تونس : الشركة التونسية للتوزيع

الاردن : وكالة التوزيع الاردنية ــ رجاء العيسى

بقية الأقطار العربية: الشركة العربية للتوزيع ــ بيروت

الاشتراك السنوي

في الجمهورية العربية السورية :		في البلاد العربية :	
■ للافراد	١٥ ل.س	■ البريد العادي	٢٤ ل.س
■ للدوائر الرسمية	٣٦ ل.س	■ البريد المسجل	٤٨ ل.س

تضاف تكاليف الطائرة في حالة الاشتراك بالبريد الجوي

الاشتراك يرسل حوالة بريدية أو شيكاً أو يدفع نقداً الى محاسب اتحاد الكتّاب العرب

سعر العدد

سورية	٣٠٠	ق.س	عدن	٦٠٠	فلس
لبنان	٣٠٠	ق.ل	السعودية	٦	ريالات
الكويت	٤٥٠	فلس	ليبيا	٣٧٥	درهم
ابو ظبي	٩	دراهم	تونس	٧٠٠	مليم
دبي	٩	دراهم	المغرب	١٠	دراهم
الخليج العربي	٩	دراهم	الجزائر	٦	دنانير
الاردن	٤٠٠	فلس	السودان	٧٥٠	مليم
قطر	٦	ريالات	العراق	٤٠٠	فلس
البحرين	٦٠٠	فلس	مصر	٥٠٠	مليم

طبع في مطبعة الكاتب العربي ــ بدمشق ــ هاتف ١١٩٧٣٨